نقد وإصلاح

طه حسين

دار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع

نقد وإصلاح

نقد وإصلاح

تأليف

طه حسين

المحتويات

خطأ التقدير	٧
العَائِد	١٥
مضى القِطار في مَوْعِده	٢٥
الرَّبْوة المَنْسِيَّة	٣٣
القَرْيَة الظالِمَة	٤٣
الصِّراع	٥٣
مِنْ أدَبنا الحَديث	٥٩
المطوَّلة ... رُدَّ قلبي	٦٣
مِنْ أدَبنا الحَديث	٧١
مِنْ أدَبنا الحَديث	٧٥
أنا الشعبْ	٨١
شهريَار	٩١
صحِّ النوم	٩٩
مِنْ تاريخ الشِّعر العَربي	١٠٥
حَديث الجِيَاع	١١٣
ومَا زال الغيث منهمرًا	١١٧
والفلسفة	١٢٣
مَثَل	١٢٩
واجب	١٣٣
نعَم واجب	١٣٩

حقُّ الخطأ ١٤٥

حتَّى بَعْدَ الحُكْم ١٥٣

الخطوة الثانية ١٥٩

بل يجب أن تكون الخطوة الثانية ١٦٥

الخطوة الثانية وإنْ غضِبَ الغاضِبُون ١٦٩

تعبئة ١٧٧

خطأ التقدير

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي ألبير كامو

هذا لون جديد من الأدب التمثيلي عرفه الفرنسيون منذ أواخر الفترة التي انقضت بين الحربين العالميتين، أو قُلْ — إنْ شئتَ الدقة — إنهم عرفوا أصوله في هذه الفترة، ولكنَّ إنتاجهم فيه لم يستكمل قوته ونضجه إلا أثناء الحرب العالمية الثانية، ولم يظهر إلا في أعقابها، وهو صورة للنفس الأوروبية منذ انقضت الحرب العالمية الأولى وتركت ما تركت من الآثار البغيضة، ومن ذكرى الأحداث المروعة التي صبتها على الناس.

وصورةٌ كذلك لما دفعت إليه النفس الأوروبية حين جعلت نذر الحرب الثانية تسعى إلى الناس متواترة، يقفو بعضها أثر بعض، مجدِّدة ما عرف الأوروبيون من الخوف والهلع، ومن الروع والجزع أثناء الحرب الأولى، ممهِّدة لكثير منهم طريقَ التفكير المظلم المتشائم الذي لا يرى في الدنيا إلا شرًّا، ولا يرى الخير والنعيم في هذا العالم الحديث إلا وهمًا، بعد أن أُتِيح للعقل ما أُتِيح له من الرقي، وتمَّ للعلم ما تمَّ من التقدم، وبعد أن استكبر العقل وطغى، وأسرف في الكبرياء والطغيان، وغرَّه ما وُفِّق إليه من استكشافات، وبعد أن تسلَّط غرور العقل هذا على حياة الناس، فأشاع فيها ضروبًا من فساد الخُلُق وسوء التقدير للقيم الموروثة التي كانت الحياة تعتمد عليها وتأتلف منها، أثناء القرن التاسع عشر، بل في القرون التي سبقته.

فقد نشأ عن هذا كله إيثار الإنسان لنفسه بالخير من دون غيره من الناس، وشاعت هذه الأَثَرة في الأفراد أول ما شاعت، ثم تجاوزتهم إلى الجماعات، ثم تجاوزتهم إلى الشعوب.

وكان من هذه الأَثَرة الفردية والاجتماعية والدولية أن ضعف التضامن، ووهت الصلات بين الناس، ومضى كلُّ فرد لا يلوي على شيء، جامحًا في طريقه إلى تحقيق آرابه ومنافعه، ومضت الأمم كما مضى الأفراد غير مُلوِية على شيء ولا حافلة بشيء إلا أن يكون التسلُّط على أعظم جزء ممكن من الأرض، والانتفاع بأعظم حظ ممكن من الموارد، والاستعلاء لا على الضعفاء وحدهم بل عليهم وعلى الأقوياء أيضًا.

كل ذلك أدى إلى إثارة الحرب؛ فانتصر المنتصر وأطغاه انتصاره، وانهزم المنهزم وأحفظه انهزامه، فأضمر الشر واستعد للثأر، واختلف المنتصرون في اقتسام الغنائم؛ فامتلأت الدنيا فسادًا واضطرابًا. وما دام الأدب صورة لحياة الناس، فقد صوَّر الأدب الأوروبي بين الحربين آثارَ هذا كله، ثم صوَّر ما ملأ النفوس من روع وهلع، حين تتابعت نذر الحرب الثانية، فنشأ الأدب المظلم الذي سمَّاه الأوروبيون في ذلك الوقت الأدب الأسود. نشأ في أوروبا الوسطى كما نشأ في أمريكا، ولم يلبث أن شاع في فرنسا كما تشيع النار في الحطب.

ونشأت فلسفة متشائمة إلى جانب هذا الأدب المتشائم تقوم على اعتداد الإنسان بنفسه وبنفسه وحدها، وعلى إهدار القيم القديمة واستحداث قيم جديدة لا تكاد تحفل بالفضيلة والخير، ولا بالحق والجمال، كما عرفها الناس من قبلُ.

ولم تلبث هذه الفلسفة أن تجاوزت مكاتب الفلاسفة والمفكرين إلى رءوس الشباب، فأحدثت شرًّا كثيرًا، أحدثت استهتارًا بالنقائص على اختلافها، وانتهازًا للفرص واختلاسًا للذات كلما أُتِيح اختلاسها، وازدراءً للأوضاع الاجتماعية المألوفة، واستخفافًا بالسنن الموروثة. كما أحدثت زهدًا في الحياة، وسخطًا عليها، ونفورًا منها، وتهالكًا على الانتحار. ثم جاءت الحرب الثانية فأضافت شرًّا إلى شر، ونكرًا إلى نكر، وثبَّتت في نفوس الناس ما كان يضطرب فيها اضطرابًا، وأقرَّت في عقولهم وقلوبهم ما كان يخطر لها ولا يكاد يتأصَّل فيها.

وعظم خطر الأدب المظلم هذا كما عظم خطر الفلسفة المتشائمة تلك … فشاع في الشعر، وشاع في المقالات، وشاع في القصص، وحاول أن ينفذ إلى التمثيل، فأُتِيح له شيء من نُجح أول الأمر، ولكنَّ الناس لم يلبثوا أن انصرفوا عنه وزهدوا فيه، وأصبح التمثيل المتشائم هذا أدبًا يُقرَأ ولا يكاد يُعرَض على النظَّارة حتى يستخفي؛ لأن الجماعات لا تثبت للتعمق الفلسفي، وإنما هي تذهب إلى ملاعب التمثيل تلتمس فيه الجد الذي يثير العواطف ويدعو إلى العبرة والموعظة، ويكفل المتعة الأدبية الخالصة، ويُخرِج الناس عن

أطوارهم التي ألفوها، ويحط عنهم أثقالهم التي تنوء بهم أثناء النهار، أو يلتمسون فيها الفكاهة التي تسري عنهم الهمَّ، وتغري بهم الضحك، وتسوق إليهم الرضى، وتهدي إليهم الفائدة من حين إلى حين.

فأما الجلوس إلى تعمُّق الحقائق الفلسفية العليا، فليس من جمهور النظَّارة في شيء، وجمهور النظَّارة — كما تعلم — يتألف من أخلاط من الناس تتفاوت حظوظهم من الثقافة والمعرفة وحُسْن الاستعداد، والتأتِّي لمواجهة ما يثير العقل من المشكلات.

وكاتبنا الذي أقدِّم لقصته بهذه المقدمة الطويلة أحد هؤلاء الأدباء المتشائمين الذين أخذ التشاؤمُ عليهم نفوسَهم من كل أقطارها، وهو قد واجه قرَّاءه في أواخر الحرب الثانية وفي أعقابها بمذهبه الفلسفي المشهور؛ مذهب العبث، وهو مذهب قديم في أصله، جديد في صورته، يقوم على أن وجود هذا العالم لا حكمة له فيما يرى العقل.

فلا تَسَلْ إذن عن غاية هذا الوجود أو عن عِلَّته، فالعقل لا يعرف له علة كما أنه لا يعرف له غاية، والعالم عند هذا الكاتب أشبه شيء بالأسطورة القديمة التي اتخذ منها اسمًا لكتابه ذاك، وهي أسطورة البطل اليوناني كيزينوس الذي قضى الآلهة عليه أن يرفع صخرة من أسفل الجبل إلى قمته، فهو لا يزال يدفع هذه الصخرة أمامه حتى ينتهي بها إلى القمة، ولكنها لا تبلغها حتى تنحدر عنها إلى القاع، فهو في جهد متصل، ولكنه جهد لا غاية له ولا نفع فيه.

ثم لم يكتفِ الكاتب بأن يصوِّر مذهبه هذا في كتاب أدبي فلسفي، وإنما أراد أن يذهب به مذهب التمثيل، فوضع طائفة من القصص إحداها قصتنا هذه، وهي تعتمد على أسطورة شائعة في أوروبا الوسطى فيما يقال.

وتلخيصها يسير، فالفصل الأول منها يُرفَع فيه الستار عن فندق متواضع من فنادق القرى تديره أيِّمٌ وابنتها وخادم لهما شيخٌ، وقد تعوَّدت الأم وابنتها اقتراف نوع غريب من الجرائم؛ فهما تستقبلان أضياف الفندق — وقلَّما ينزل الناس به؛ لأنه بعيد منعزل في قريةٍ قلَّما يُلمُّ بها غرباء — فإذا كان الضيف فقيرًا ومتوسط الثراء، ألمَّ بالفندق في يُسْر وانصرف عنه في سلام، وإذا كان غنيًّا ظاهر الثراء ألمَّ بالفندق، ولكنه لا يخرج منه إلى حيث يخرج الأضياف الأحياء، وإنما يُسقَى قدحًا من الشاي فيه منوم، فإذا أغرق في نومه أقبلت الأم وابنتها وخادمهما عليه فاحتملوه إلى النهر غير بعيد وألقَوه فيه أثناء الليل، واحتجزوا ماله وحرقوا ثيابه وأوراقه وكل ما يدل عليه. ولهذه الأيِّم ابن قد غاب عنها في طلب الثراء منذ عشرين عامًا، وانقطعت عنها أخباره، فهي لا تعرف من أمره شيئًا، كما أن ابنتها لا تعرف من أمر أخيها ذاك شيئًا.

ونحن نراهما في أول القصة وقد خلَتْ إحداهما إلى الأخرى، وهما تتحدثان عن ضيف ألمَّ واحتجز لنفسه غرفة من غرفات الفندق، ثم ذهب ليعود إلى غرفته بعد حين. وهما تتحدثان عن ثرائه وعن أنه ظاهر اليسار لم يسأل عن أجر غرفته، ولم يحفل به كما يفعل الفقراء وأوساط الناس. وهما تتمنيان عودته لتصنعا به صنيعهما بغيره من الأضياف الأغنياء، تتحرق الفتاة إلى هذا تحرُّقًا وتُقبِل الأم عليه مستكرهة لا تنشط له كما تعودت أن تنشط لمثله فيما مضى. أما الفتاة فتتحرق لأنها طامحة إلى الغنى الذي يتيح لها أن تهجر هذه القرية، بل أن تهجر وطنها كله لتسعد بالحياة الحرة الناعمة حيث البحر والشمس، وقد ملكت أمواج البحر وأشعة الشمس عليها أمرها كله، فهي تريد أن تظفر بهما مهما يكلفها ذلك من جهد أو إثم.

ويُقبِل الضيف ولا نلبث أن نفهم أنه ابن الأيِّم وأخو الفتاة، أقبل من مهاجره البعيد لِيَبرَّ أمه وأخته وينقذهما من حياتهما الضيقة، وهو متنكر لا يعلن اسمه ولا شخصه، يريد أن يفاجئهما بالحق من أمره بعد أن يمتحن معرفتهما له وتذكرهما لشخصه، وهما لا تعرفانه ولكنَّ الأم تحس إشفاقًا عليه، إشفاقًا غامضًا لا تفهمه ولا تعلِّله إلا بالتعب الذي يأتيها من الشيخوخة، وقد أقر الفتى زوجه في فندق آخَر وتدبَّر معها أمره تدبيرًا، ولكن زوجه لا تحب منه هذا الاحتيال، وإنما تؤثر الصراحة وتريده على أن يعلن إليهما نفسه في غير لعب ولا مداورة، وهي تكره أن تفارقه ليلة كاملة؛ لأنها لم تفارقه منذ اقترنا، ولكنه مصِرٌّ على حيلته؛ يريد أن يمتحن بها نفسه وأمه وأخته. والأم رفيقة به، وابنتها عنيفة به أشد العنف، كلتاهما لا تعرفه ولا تحقق شخصه، ولكن في قلب الأم ميلًا غامضًا إليه ورحمة غامضة له، وفي قلب الفتاة طمع في المال وشوق إلى البحر والشمس، والخادم الشيخ يتردد بين حين وحين لا ينطق بحرف، ولا يسمع له صوت، والحوار بين الفتى وأخته غريب فيه ما ينبغي من الغموض؛ لأن الفتى يخفي نفسه، وفيه ما ينبغي من عنف الفتاة؛ لأنها لا تفهم ولا تسيغ أن يكون القاتل رءوفًا عطوفًا عليه، وقد أعدت للفتى غرفته وصعد إليها وأقبلت أخته عليه بعد حين كأنها تريد أن تصلح في الغرفة شيئًا، فيكون بينها وبينه شيء من هذا الحوار الغامض الذي يرفق فيه هو وتعنف فيه هي، يريد هو أن يتلطف؛ ليعرف هذه الأسرة وليعرِّف إليها نفسه، وتأبى هي كل رفق؛ لأن أمر هذا الفتى لا يعنيها إلا من حيث الغاية التي يجب أن ينتهي إليها وهي الموت.

وتعود الفتاة إلى الغرفة بعد حين حاملة إليه قدح الشاي فتضعه وتنصرف مع أنه لم يطلبه، ولكنها تزعم له أنه خُيِّلَ إليها ذلك، والفتى يشرب ما في القدح، ولا يكاد يفرغ

منه حتى تأتي أمه تريد أن تحتال في صده عن هذا القدح الذي قُدِّم إليه خلسة وعلى غير علم منها؛ فإذا رأته قد أفرغه في جوفه أذعنت لما ليس لها منه بدٌّ، ولكنها على ذلك تتحدث إلى الفتى رفيقة به، متحبِّبة إليه، والفتى يرضيه ذلك فيمضي معها في الحديث، ويوشك أن يفضي إليها بذات نفسه لو اتصل الحديث ولكنه لا يتصل؛ فالفتى متعب مكدود قد أدركه النوم، ثم اشتمل عليه. وتأتي الفتاة فيكون بينها وبين أمها شيء من صراع الأم محزونةً ضيقة بابنتها التي خالفت عن أمرها، وتعجَّلَتْ موتَ الفتى، والفتاة عجلة تريد أن تفرغ من أمرها لتسرع بعد ذلك إلى السفر. وهي تأخذ كل ما في ثياب الفتى من مال، وما تزال بأمها تتعجلها وتلحُّ في تعجُّلها، حتى تنتهي بها إلى ما تريد.

وكذلك التقت هذه الأسرة في الفصل الأول من القصة، وانتهت إلى غايتها في الفصل الثاني. فإذا رُفِع الستار عن الفصل الثالث، فنحن في الصباح، وقد أُلقي في النهر والفتاة راضية، والأم محزونة كارهة، والفتاة مبتهجة قد استرد وجهها نضرته، واسترد ثغرها ابتسامته، واسترد قلبها الغبطة والأمل، ولكنَّ الخادم الشيخ يُقبِل صامتًا صارمًا، ويدفع إليها جواز السفر الذي كان بين أوراق الفقيد، فلا تكاد تنظر فيه حتى يسقط في يدها وحتى تدفعه إلى أمها، فإذا نظرت فيه اشتمل عليها حزن يائس ولكنه هادئ لا ثورة فيه.

حزن يعيد إلى قلبها ما كان قد ندَّ عنه من حب ابنها، ويغمر قلبها بهذا الحب بعد أن فات أوان الحب، وبعد أن لم يَبْقَ إلى استدراكه سبيل.

والحوار عنيف بين الفتاة وأمها لا في الإثم بل في عواقبه … فالفتاة لا تحفل بأخيها؛ لأنها لم تعرفه، ولم تقبِّله قطُّ، ولا تذكر أنه قبَّلها، وهي طموحة إلى الحياة تريد أن تستنفد لَذَّاتها كلها، تريد أن تفر إلى البحر والشمس، وأن تنعم بكل ما تنعم به فتاة في نضرة الشباب … والأم يائسة بائسة قد أزمعت أن تلحق بابنها في النهر، وأن تستقبل معه هذا العدم بعد أن لم يُتَحْ لها أن تستقبل معه الوجود.

والفتاة تنازعها في حبها وتلحُّ عليها في ألَّا تتركها، ولا تنأى عنها ولا تسلِّمها وحدها لخطوب الحياة … ولكن الأم حازمة مصممة قد سئمت الحياة وأثقالها، وعجزت عن احتمال إثمها هذا الأخير على كثرة ما احتملت قبله من الآثام. وهي تترك ابنتها وحدها وتمضي في سرعة هادئة إلى النهر لتلتمس فيه الموت … ولا تكاد الفتاة تخلو إلى نفسها حتى تُقبِل عليها زوج أخيها تسأل عن زوجها، فتُنبِئها الفتاة بكل شيء، ويكون بينهما حوار يصوِّر اللوعة اليائسة في نفس الزوج والقسوة اليائسة في نفس الأخت، إحداهما مولهة لا تدري ماذا تصنع، ولا كيف تحتمل رُزْءَها، وهي تتجه إلى الله تسأله الرحمة

والمعونة، والأخرى يائسة من الأرض والسماء جميعًا، قد أزمعت أن تموت، ولكنها لا تريد أن تموت في النهر حيث مات أخوها الذي تبغضه، لأن أمها آثرته عليها، وحيث ماتت أمها التي لم ترحمها، ولم ترثِ لشبابها وآثرت أن تلحق بابنها الميت على أن تصحب بنتها الحية، وتستقبل معها السعادة والمتاع، وإنما تريد أن تموت شنقًا في غرفتها، وهي تترك زوج أخيها مولهةً مدلهة معولة تلتمس رحمة الله ومعونته، وإذا الخادم الشيخ يُقبِل على هذه الزوج البائسة، يحسبها قد دعته فإذا التمست منه المعونة والإشفاق أجابها بأول كلمة وآخِر كلمة نسمعها منه في القصة، وهي: «لا». وعلى هذه الكلمة الحاسمة يُسدَل الستار.

فأنت ترى أن القصة لم تبتكر شيئًا، وإنما صوَّرتْ تلك الأسطورة القديمة.

ولم تصوِّرها تصويرًا خالصًا للأدب، وإنما صوَّرتها تصويرًا توشك الفلسفة أن تستأثر به. ففيمَ وُجدت الأم وابنها وابنتها؟ وفيمَ ماتوا؟ وما غاية وجودهم؟ وما غاية موتهم؟ وهذه الأيِّم البائسة التي أقبلت مع زوجها ليستخلصا هاتين المرأتين من حياة الخشونة والضيق، فكانت عاقبة أمرهما موت هؤلاء الثلاثة في غير طائل ولا غناء. وهذا الخادم الصامت الذي لا ينطق بحرف إلا هذه الكلمة التي تصور اليأس ولا تصور شيئًا غير اليأس، مَن هو؟ ومَن عسى أن يكون؟ إنه القضاء الذي لا يحفل بالناس ولا بما يلقَون من لين الحياة وشدتها، بل لا يحفل لا بما يختلف عليهم من حياة أو موت، فقد أوجدهم لغير علة ولا غاية ... أوجدهم مُعرِضًا عنهم، ساخرًا منهم، غير مفكِّر إلا في نفسه، غير مُعرِب حتى عن تفكيره في نفسه.

وكذلك صور الكاتب مذهبه الفلسفي ذاك تصويرًا قد يكون حسنًا، ولكن التكلُّف فيه ظاهر يوشك أن نلمسه بأيدينا. فما هذه الحيلة التي ابتكرها الفتى ليفاجئ أمه وأخته بعد أن غاب عنهما عشرين عامًا؟ وما هذه المطاولة والمداورة المصنوعة بين هؤلاء الثلاثة الذين لم يُتِح الكاتب لهم أن يجتمعوا إلا ليقضي عليهم آخِر الأمر أن يتفرقوا، وأن يكون الموت هو الذي يفرِّق بينهم؟

وقد مُثِّلت هذه القصة في القاهرة على أحد المسارح الخاصة منذ أيام، وشهدتها بعد أن كنتُ قرأتها منذ أعوام، وأعترف بأني لم أجد أثناء شهودها — كما لم أجد أثناء قراءتها الأولى، ولا أثناء قراءتها الثانية التي فرغت منها اليوم — ما تعوَّدْتُ أن أجده من المتعة الأدبية. ولولا أن الممثلين والممثلات كانوا من البراعة في فنِّهم بحيث سحروا أعين النظَّارة وخدعوهم عن أنفسهم، لما تركت هذه القصة في قلوبهم أثرًا، ولما دفعت أيديهم إلى التصفيق.

وأكاد أقطع بأن النظَّارة إنما صفَّقوا للممثلين والممثلات، لا للقصة ولا لكاتبها. وأمثال هذه القصة التي تغلب عليها الفلسفة وتستأثر بها من دون الأدب، كثير في الأدب الفرنسي المعاصر، وكتَّابه الظاهرون هم هؤلاء الثلاثة: جان بول سارتر، وألبير كامو، وجبرائيل مارسيل، وإن كان ثالثهم يذهب بفلسفته الوجودية مذهبًا دينيًّا مسيحيًّا قد أعرض له في يوم من الأيام.

العَائِد

قصة للكاتب الألماني أرنست فيكرت

وتستطيع أن تفهم كلمة العائد هذه على وجهين مختلفين وإن تقاربا من بعض أنحائهما، تستطيع أن تفهم منها مَن عاد من سفره بعد غيبة طالت أو قصرت، وتستطيع أن تفهم منها مَن بُعِث بعد أن مات ومضت على موته الأعوام الطوال.

فقد أراد المؤلف هذين المعنين جميعًا، وفهمهما الناسُ عنه أول الأمر، ثم عرفوا وجه الحق كما ستعرفه آخِر الأمر.

وتستطيع كذلك أن تذكر الحديث الذي سقته إليك في الفصل الماضي عن ذلك الفتى الذي حمله قطار القضاء، وقطار الناس إلى موت محتوم كان ينتظره في ميدان من ميادين القتال، أو غير بعيد من هذا الميدان.

فسأحدِّثك اليوم عن فتًى آخَر نقله قطار القضاء، وحملته قدماه بسعيهما في الأرض العريضة إلى الحياة.

وتستطيع بعد هذا وذاك أن تذكر تلك المرأة التي أرادت أن تنقذ ذلك الفتى من موته ذاك الذي كان ينتظره، لأنها أحبته كما أحبها، فلم تزد على أن ألقت بنفسها معه، ومع غيره أيضًا، بين ذراعي ذلك الموت الذي لم يكن إلى الإفلات منه سبيل.

فسأحدِّثك اليوم عن امرأة أخرى أنقذت فتًى آخَر من موت لم يكن فيه شك، وردَّتْه إلى حياة ليس فيها شك أيضًا؛ لأنها أحبته كما أحبها هو، ولكن حبهما كان قويًّا وكان ضعيفًا في وقت واحد، ولأن كلمة القضاء هي العليا دائمًا.

والقصتان كما ترى لم تصدرا عن كاتب واحد، وإنما صدرتا عن كاتبين مختلفين أشد الاختلاف، لم يلتقيا في أكبر الظن، ولكنهما نظرا إلى الحياة وظروفها، وإلى الناس والخطوب التي تختلف عليهم؛ نظرتين متباينتين من جميع الوجوه، منتهيتين دائمًا إلى أن كلمة القضاء هي الأخيرة، سواء أكانت للإنسان إرادة قوية عاملة، أم كانت له إرادة ضعيفة مستسلمة.

والقصتان تقعان في ألمانيا، والحرب هي التي تثيرهما، وفيهما — على اختلافهما — عبرة للذين يريدون الاعتبار، وفقه للذين يريدون التفكير، وتعمق شئون الحياة.

وقصتنا اليوم تعرض علينا أول ما تعرض حياة امرأة فقدت زوجها في الحرب، وورثت عنه لنفسها وابنها أرضًا واسعة متباعدة الأرجاء، فيها الخصب الكثير الذي يغلُّ ثراء كثيرًا، وفيها الغابات الكثاف التي تغلُّ الثراء أيضًا، والتي يكثر فيها الصيد، وفيها البحيرة الرائقة التي تتيح منظرًا جميلًا، ويتهيأ شاطئها للنزهة الممتعة، وفيها الذين يعملون في الأرض والذين يعملون في الغابة، وهي بعيدة عن المدينة، ولكن بينها وبين المدينة من الصلة المنظمة ما يتيح لوجوهها أن يزوروا هذه السيدة بين حين وحين، وأن ينفقوا في قصرها ساعات حلوة هادئة يتحدثون فيها عمَّا يكون من الأحداث. وإلى جانب هذه الأرض الواسعة قرية تقوم منها غير بعيد، وتتصل بها اتصالًا يشبه ما يكون بين السادة النبلاء وبين ما يقوم قريبًا من قصورهم من القرى. وهذه المرأة تدبِّر ثراءها في حزم وعزم ومضاء، جعلت لها في نفوس الناس مَن قرُبَ منها ومَن بعُدَ عنها مهابةً وجلالًا.

فهم لا يذكرونها باسمها ولا باسم زوجها الفقيد، وإنما يذكرونها بالرتبة العسكرية التي كانت لزوجها؛ فقد كان من رجال الجيش. فالناس يدعونها بالسيدة الصاغة؛ لأن زوجها كان صاغًا، وكأنها أخذت من زوجها صفة الضابط الصارم، الذي لا يحب تهاونًا ولا تقصيرًا في أداء الواجب وطاعة ما يصدر من الأمر، والذي يُؤْثِر النظام في كل ما يأتي من الأمر، وفي كل ما يأتي الناس حوله من الأمر أيضًا على كل شيء، ويحرص عليه أشد الحرص؛ فأمور قصرها وأرضها تمضي في دقة دقيقة واستقامة لا عوج فيها ولا التواء، ولها عادات منظمة مطردة لا تنحرف عنها مهما تكن الظروف، ولا ينبغي للخدم ولا للعاملين في الأرض من حولها أن ينحرفوا عنها، وهي مع هذا كله قليلة الكلام تؤثر الإيجاز والصراحة على الإطالة والتأنُّق في القول. ومن عاداتها إذا تقدَّم النهار أن تخرج للنزهة والتفتيشِ على فرس لها يهيِّئه خادم لا عمل له إلا أن يهيئ الفرس، ويقدِّمه إليها لتركبه ويتلقى منها عنانه حين تعود، ويقوم على خيلها فيما بين ذلك.

قد وقف حياته على هذا واضطر إلى صمت ذاهل؛ لأنه وحيد عصفت الحرب بأسرته وأخويه، وهو في الوقت نفسه معذَّب أشد العذاب، ألقي في روعه أن أحد أخويه قد قُتِل بالعراء، فنفسه هائمة تلتمس قبرًا ولا تجد إليه سبيلًا، وهي تصيح باكية مستغيثة إذا كان الليل، والفتى يسمع صياحها وإعوالها فلا يذوق النوم إلا غرارًا، وهو من أجل ذلك محزون كاسف البال مفرَّق النفس، لا يتكلم في النهار إلا قليلًا، فإذا كان الليل أنفقه في السهاد، واللوعة والبكاء. وقد خرجت الصاغة ذات يوم حين أقبل المساء ومضت على فرسها، فطوفت في الأرض ما شاء الله لها أن تطوف، ومضت في الغابة حتى انتهت إلى البحيرة، فنظرت إليها وأطالت النظر مفكِّرة فيما يفكِّر فيه أمثالها من هذه الوحدة التي اضطرت إليها، ومِن فَقْدِ زوجها العزيز عليها، وغياب ابنها الذي يدرس في إحدى المدن الجامعية، ومن شئونها الكثيرة المختلفة وهي تهمُّ بالعودة، فقد انقضى النهار أو كاد ينقضي، وجعلت أشعة الشمس تنحسر قليلًا قليلًا عن الغابة، فتسلم ما تنحسر عنه إلى هذه الظلمة الشاحبة التي لا تلبث أن تتكاثف شيئًا فشيئًا. ولكنها ترى ظلًّا يتنقل في الطرف المضيء من أطراف الغابة، وهو يتنقل في أناة مستأنية، وحذر شديد كأنه يخشى أن يراه أحد، ويريد أن يدنو من هذه الأرض دون أن يشعر أحدٌ بمكانه، وهو لا يرى السيدة ولكنها تراه.

وقد أثار مرآه في نفسها شيئًا ليس بالخوف، وعسى أن يكون أدنى إلى الاستغراب وحب الاستطلاع. وهي تتردد قليلًا ثم تثبت في مكانها؛ لتعلم علم هذا الشخص الغريب. وهو يسعى في خطو متقارب متردد، ويطيل النظر فيما حوله ويطيل النظر أمامه، كأنه يريد أن يملأ عينيه مما يرى قبل أن يلقي الظلام أستاره الكثاف، وهو يبسط ذراعيه، وقد فرج بينهما ويرفعهما إلى السماء كأن شيئًا رائعًا قد ملك عليه نفسه، أو كأنه يريد أن يرفع إلى السماء دعاء، وهو يدنو وهي ترقبه، حتى إذا كان منها بمسمع الصوت أظهرت نفسها واضطرته إلى أن يقف، ثم إلى أن يدنو منها، ثم أخذت تسأله: مَن هو؟ ومن أين يأتي؟ وإلى أين يريد؟ فيجيبها في كلام غامض لا تكاد تفهم منه شيئًا، ولكنها استيقنت آخِر الأمر أنه غريب هائم في الطريق العامة لا مأوى له، وما ينبغي لها أن تخلي بينه وبين الهيام في الطريق العامة وقد أقبل الليل وجعل ينشر ظلمته، فهي تدعوه إلى أن يصحبها، وهو يستجيب لها ويمضي معها، وقد تتحدث إليه أثناء الطريق فيجيبها بما لا يغني عنها شيئًا. وقد انتهت آخِر الأمر إلى القصر ووجدت خادمها ذاك الذاهل ينتظرها ليتسلَّم منها عنان الفرس، وهو في شيء من القلق؛ لأن سيدته قد أبطأت بعودتها على غير ما ألفت،

وهي تدفع إليه العنان وتهدئ من قلقه، وتُنبِئه بأنها استصحبت ضيفًا، ثم تُدخِل ضيفَها القصرَ وتأمر وصيفتها أن تقوده إلى إحدى غرفاته ليستريح وينفض عنه غبار السفر، وتؤذنه بالعشاء حين يأتي موعده. وقد خلا الضيف إلى نفسه في غرفة ليست أنيقة ولا مترفة، ولكنها مريحة لعله لم يأوِ إلى مثلها قطُّ. ورأى الخدم هذا الضيف حين دخل القصر فرَاعَهم منظره الرث وزيُّه الغريب، ووجهه الذي هو إلى الإظلام والعبوس أدنى منه إلى الإشراق والابتسام. وهم ينكرون مكانه ويعجبون؛ لأن سيدتهم قد احتفلت به وضيَّفته، ويسألون مَن عسى أن يكون؟ وما عسى أن يكون وطنه الذي جاء منه؟ وجنسه الذي ينتمي إليه؟ وهم يفترضون في هذا كله الفروض، والخادم الذاهل صامت يسمع لهم ولا يقول شيئًا، فإذا اتجهت إليه أحاديثهم قال إنما هو ميكائليس بن فلان، ذلك الشيخ الذي يعمل في الضيعة.

ويسمع الخدم هذا فينكرونه أشد الإنكار فقد مات ميكائليس هذا؛ قتلته الحرب منذ عشرين سنة، وجاء بذلك النبأ الرسمي، ونُقِش اسمه على هذا النصب الذي يقوم غير بعيد من القصر، والذي أُقِيم لصرعى القرية في الحرب، ونُقِشت عليه أسماؤهم. ولكن الخادم الذاهل يعيد عليهم قوله في تصميم وثقة، فيضيفون قوله هذا إلى ما يعتريه من مظاهر الذهول وشرود البال.

وفي هؤلاء الخدم فتاة شغلها أمر هذا الضيف، فهي معنية به مشفقة منه، تودُّ لو علمت علمه وتخشى أن يصيبها منه مكروه.

أما الضيف فقد أوى إلى غرفته ونظر ما فيها من أدوات النظافة والراحة، فأنكر مكانه من هذا كله، وسأل نفسه ماذا يصنع في هذه الغرفة، أو ماذا يصنع بهذه الأدوات! فهو لا يستطيع أن يغيِّر من زيِّه الرث، ولا أن يستبدل به زيًّا يلائم هذا القصر ويلائم الجلوس مع هذه السيدة إلى مائدة العشاء، ولكنه أصلح من أمره بما استطاع أن يصلح، ووقف ينتظر أن يُدعَى إلى المائدة بعد أن نظر من النافذة فرأى، على بُعْدٍ، ذلك النصب الذي رأى كثيرًا من أمثاله فيما مرَّ به من المدن والقرى، وقد دُعِي إلى العشاء فشهده وحيدًا مع السيدة التي تلقته أحسن لقاء، وعنيت به كما تعوَّدتْ أن تعنى بضيفها من الأغنياء والمترفين، ثم قضت معه ساعة من الليل تحاول أن تعرف من أمره شيئًا، فلا تظفر منه بما يجدي أو يفيد. ثم ثاب إلى غرفته وثابت السيدة إلى غرفتها.

فأما هي فمفكرة مع كثير من الحزن في فقيدها، تستحضر مصرعه وتستحضر أوبته إليها جثة هامدة، وتستحضر الأعوام التي مرت عليها وهي وحيدة تدبَّر أمر هذه الأرض،

وتقوم على تربية ابنها وتنشيئه، وأما الضيف فقد خلا إلى نفسه مفكِّرًا في هذه الخطوب الكثيرة التي اختلفت منذ شارك في الحرب، فرأى الناس يموتون من حوله يسَّاقطون كما يسَّاقط الذباب، ورأى أخِلَّاءه وإخوانه يسبقونه إلى الموت بعضهم في إثر بعض، حتى هانت في نفسه قيمة الحياة. ثم رأى نفسه يُصرَع فيمَن كانوا يُصرَعون، واستيقن أنه قد لحق بمَن سبقه إلى الموت، ولكن الموت ينظر إليه ساخرًا منه، ثم ينأى عنه غير حافل به ويتركه جريحًا ينتظر الإسار. وقد أُسِر فطال أَسْره، وسُجِن فطال سجنه، ونظمت أعقاب الحرب وهو محسوب في الموتى لا يحفل به أحد ولا يذكره أحد إلا أبوه، ذاك الشيخ الذي جزع عليه وعلى مَن مات معه من إخوانه، ثم اطمأن إلى جزعه وأصبح يكتفي بذِكْره وذكرهم في صلاته، والنظر إلى اسمه وأسمائهم على ذلك النصب القائم غير بعيد من القصر، واستقر في نفوس أهل القرية أنه قد قضى نحبه مع مَن قضى نحبه من أبنائها في الميدان، وأصبح هذا النصب آية واضحة، وحجة قاطعة على أنهم جميعًا قد قُتِلوا فيمَن قُتِل من شباب ألمانيا وكهولها في سبيل مجد الوطن وعظمته، فهم يذكرونهم كلما مروا بالنصب، وكلما صلوا، ولكنهم يمضون في حياتهم غير حاسبين للموتى حسابًا، فما ينبغي للموتى أن يصدوا الأحياء عن سبيل الحياة.

ذلك إلى أن الأوراق الرسمية التي جاءت من وزارة الحرب واستقرت في مركز المدينة، قد أثبتت موت هذا الفتى فيمَن مات، ليس في ذلك شك ولا معنى للجدال فيه.

كل ذلك يديره الضيف في رأسه بعد أن خلا إلى نفسه، فهو ينكر مكانه من هذا القصر، بل ينكر مكانه في هذه الأرض التي تحيط بالقصر، بل هو لا يعدُّ نفسه بين الأحياء، وإنما يرى نفسه ظلًّا هائمًا ليست له أسرة ولا قرية ولا مدينة، وليس بينه وبين الأحياء من الناس صلة، فليس له إلا أن يهيم في الأرض تتقاذفه مدنها، وقراها، وغاباتها، وجبالها، وطرقها العامة. والخير له أن يجتنب الناس ما وجد إلى اجتنابهم سبيلًا، وأن يقوت نفسه مما يتاح له أثناء هيامه من هذا الرزق الذي يتاح للطير والحيوان المتوحش. ولم يكن يقدر أنه سيلقى هذه السيدة وسيأتي معها إلى هذا القصر، وسيلمُّ بهذه البيئة التي لم يَبْقَ له بها عهد، والتي نسيها أو كاد ينساها كما أنها هي قد نسيته، ولم تذكر منه إلَّا هذا الاسم المنقوش على هذا النصب.

أذاق النوم في تلك الليلة أم لم يذقه؟ مهما يكن من شيء فقد أخذ الفجر يرسل ضوءه الضئيل بعد ذلك الليل الطويل، ونهض الفتى من سريره ذاك ونظر من النافذة، فرأى النصب أمامه غير بعيد، وما دام الناس قد نسوه، وما دام هو أيضًا قد نسيهم أو

كاد ينساهم، فما بال اسمه هذا يظل منقوشًا يراه أهل القرية بين حين وحين فيذكرونه لحظة، ثم يسرعون إلى نسيانه، أو يسرع نسيانه إليهم! يجب أن يكون نسيانهم له كاملًا متصلًا، كما يتصل الزمن متكاثفًا، كما تتكاثف ظلمة الليل حين يتراكم السحاب وتُحجَب النجوم.

يجب أن يُمحَى هذا الاسم، لتقطع الصلة بينه وبين الأحياء من جميع الوجوه. وما بقاؤه في هذه الغرفة؟ وما لقاؤه لأهل هذا القصر؟ ثم لأهل هذه القرية حين يشرق وجه النهار؟ يجب عليه أن يخرج، ولكن أنَّى له الخروج وقد أُغلِقت من دونه أبواب القصر؟ وما له لا يثب من هذه النافذة ويرسل نفسه في الفضاء العريض؟

وقد فعل، وقد احتال حتى ظفر بأداة حادة، ثم عمد إلى النصب وجعل يمحو اسمه منه. وسمعت سيدة القصر حركة مريبة، ثم سمعت صوت هذه الأداة تعمل في الصخر فأنكرت ما سمعته، وانتظرت حتى آنَ لمثلها أن تخرج من غرفتها، ثم خرجت وفي نفسها ريب من أمر الفتى، ثم ذهبت إلى غرفته فطرقت بابها فلم يرجع عليها أحد جوابًا، فتدخل الغرفة فلا ترى أحدًا، وترى النافذة وقد فُتِحت على مصراعيها، فتعلن أن الفتى هو صاحب الحركة التي رابتها، وهو مصدر الصوت الذي سمعته، ولا تلبث أن تدير في نفسها كل ما أدار الفتى في نفسه من الخواطر.

أراد أن يمحو من القرية حتى أيسر ما بقي من ذكراه، فمحا اسمه من بين أسماء الموتى، ومضى لا يعرف أحدٌ إلى أين.

ولكنها تلتمسه حين يتقدم النهار فتجده في طرف من أطراف الغابة، كأنه قد أوى إليه حينًا قبل أن يأخذ في هيامه ذلك في الطريق العامة؛ فترفق به أشد الرفق وتتلطف له أعظم التلطف، وما تزال به حتى يأنس إليها شيئًا وقد عرفت أنه لا يريد أن يعاشر الناس، أو لا يستطيع أن يعاشر الناس، فتمضي به إلى بيت منعزل في جانب من جوانب الغابة قد هُيِّئ فيه أثاث ساذج يسير. فإذا دخلت معه أنبأته بأنها في حاجة شديدة إلى مَن يحرس لها الغابة وما فيها من صيد، وأنها تريد أن يكون حارس هذا الصيد، وأن يقيم في هذا البيت بعيدًا عن القرية وأهلها لا يرى أحدًا ولا يراه أحد، وتُنبِئه بأنها ستزوره في تروِّضها بين حين وحين، وقد ألقي في روعه شيء من الحب الخفي الغامض أشد الغموض لهذه السيدة الرفيقة السمحة، التي تظهر ما تظهر من رفق به يوشك أن يكون حنانًا؛ فيستجيب لها متحفظًا، وتطيل معه المكث حتى يأنس إلى البيت، ثم تنصرف عنه لتزوره — كما قالت — بين حين وحين. وقد أقام في هذا البيت يأتيه الطعام إذا تقدَّم النهار،

ويأتيه طعامه إذا تقدَّم الليل، وتزوره السيدة فتتحدث إليه بين ذلك، وهو يطمئن إلى هذه الحياة شيئًا، ولكنَّ في نفسه قلقًا ما يزال يساورها؛ فهو لا يرى لنفسه أربًا في الحياة، ولا يرى للناس نفعًا في حياته، فما بقاؤه! وما له لا يستأنف هيامه!

شيء واحد يمسكه في هذا البيت، هو هذه السيدة التي تزوره حين يُقبِل المساء من كل يوم، تُقبِل راكبة حتى إذا بلغت البيت ترجَّلَتْ عن جوادها، وألقت عنانه إلى خشبة من خشب السور الذي يحيط بالحديقة الصغيرة، ودخلت عليه مبتسمة فحملت إليه أنسًا وبشرًا، ثم انصرفت عنه على موعد. فهو يريد أن يأخذ طريقه، ولكن ما في نفسه من هذه السيدة يمسكه في بيتها هذا المنعزل.

ينعم بلقائها حين تلقاه، وينعم بانتظارها حين تنصرف عنه. والأيام تمضي وإذا حبه الذي كان خفيًّا غامضًا يتضح في نفسه شيئًا فشيئًا، وإذا هو يسأل نفسه: ما مقامه في هذا البيت! لا هو بالأنيس الذي يدنو ممَّن يحب، ولا هو بالغريب المجوال الذي لا يحفل به الناس، ومتى رأى الناس سيدة في منزلة هذه السيدة تلمُّ بحارس غابتها كل يوم، حفية به مؤنسة له، ثم تنصرف عنه كما جاءت، فهي دانية نائية، وهي مطعمة مؤنسة، أيمكن أن يكون في نفسها منه شيء، كما أن في نفسه منها شيئًا؟ وإذن فما بال الأمور تظل غامضة مسرفة في الغموض؟ أتراها تتكلف إيناسه ليألف الحياة، ولكنه لا أرب له في الحياة، أم تراها تود لو دنت منه أكثر مما تدنو، ولكن لها ما يشغلها عنه؟

فمثل هذه السيدة لا يمكن إلَّا أن يكون لها صاحب أو رفيق، وهذه الغيرة قد أخذت تعبث بنفسه قليلًا قليلًا، وإذا هو يضيق بمكانه من هذه الغابة ويكره حياته التي يحياها معلَّقًا لا هو بالغريب ولا هو بالبعيد. وقد شُغِلت السيدة عنه يومًا ويومًا فأزمع أن ينطلق، ولكنه كره أن يمضي دون أن يُنبِئها بما يريد، فيذهب إلى القصر، ولا تكاد السيدة تعلم بمكانه حتى تدعوه، وإذا هي مشغولة ببعض الضيف من سادة المدينة وأشرافها، فتقدِّمه إليهم وتخلطه بهم، وتجلسه معهم إلى الشاي، وتحدِّثه كما تتحدَّث إلى غيره من ضيوفها، حتى إذا همَّ أن ينصرف، وأراد أن يقول لها شيئًا آذنته بأنها ستزوره من غد.

فيعود أدراجه ولم ينفذ مما صمَّم عليه شيئًا. وقد تحدث الفتى إلى ذلك الخادم الذاهل شيئًا من حديث، وعرف قصة أخيه ذاك الذي قتلته الحرب بالعراء، والذي هامت نفسه تلتمس قبرًا وجعلت تعول إذا أقبل الليل، فيحاول الفتى أن يرد على هذا الذاهل شيئًا من عقله، وأن يبيِّن له أن ما يسمع إذا أقبل الليل ليس هو نفس أخيه الهائمة، وإنما هي بومة تنوح في مكان ما قريب من البحيرة، ثم يزمع أن يريح الفتى من هذا العويل الذي يؤرق عليه ليله، ويملأ قلبه خوفًا وفرقًا وحزنًا.

فقد جعل لنفسه إذَنْ أربًا في الحياة، وليس قليلًا أن يرد على هذا الفتى شيئًا من الراحة وأمن القلب وطمأنينة النفس، وقد جعل يرصد هذه البومة في كل ليلة حتى قتلها وانقطع عويلها، ورد إلى الفتى أمنه، ولكنه أزعج الناس الذين يقيمون قريبًا من ساحل البحيرة، فجعلوا يضيقون به ويشكون منه، وجعلت السيدة تلم به بين حين وحين حتى كثر الحديث عنهما في القرية، وحتى ساءت بهما الظنون، ولكن السيدة ماضية في سيرتها هذه حازمة مصمِّمة لا تحفل بالناس، ولا بما يُسِيئون بها من الظن، حتى إنها لتزور الفتى ذات يوم فتجده قد جلس في حديقته تلك إلى زجاجة من زجاجات الخمر، فتجلس معه وتأخذ في الشراب كما أخذ فيه، وتسرف في الشرب كما أسرف حتى تُلغَى الكلفة بين الفتى وبينها، ولكنها على ذلك محتفظة بما ينبغي لها من الوقار. في نفسها عطف على هذا الفتى ليس في ذلك شك، ولكنها وفِيَّة لزوجها الفقيد، ووفِيَّة لابنها ذاك الذي يتعلم في إحدى المدن الجامعية، وضنينة بنفسها آخِر الأمر على ما لا يليق بالمرأة الكريمة.

وقد أقبل ابنها ومعه خطيبته، فأقام في القصر يومًا وبعض يوم، وخرج مع خطيبته للتروُّض، فمضى بسيارته في الغابة حتى إذا دنا من بيت الحارس ورآه فجعل ينظر إليه شزرًا، وغاظ الحارس ما رأى، فأطلق النار على السيارة حتى أزعج الفتى وخطيبته، فعادا مسرعَيْن وأنبأا السيدة بما رأَيَا، وساء ظن الفتى بأمه كما ساء بها ظن غيرها من الناس، ولكنها لم تحفل بشيء من ذلك، وأمرت ابنها أن يعود إلى المدينة الجامعية من غده، ومضت تتقرب إلى الحارس حتى أقرت في نفسه أنه قد أصبح لها إلفًا. وجاء موسم الحرث، وأخذ الفلَّاحون يعملون في إعداد الأرض، والفتى يراهم فيضيق بما يرى لأنه فلاح مثلهم؛ فما أمسكه في هذه الغابة في غير عمل ينظر إلى العاملين وهو متبطل؟ لمَ لا يشاركهم فيما يعملون؟ إنهم لا يألفونه، ولا يجرءون على أن يدنوا منه، وهو لا يألفهم، ولكنه يحسدهم على العمل، ويود لو شاركهم فيه، وقد أنست السيدة منه كل هذا وحاولت أن تعد أباه الشيخ لاستقباله، فذهبت إليه وجعلت تحدِّثه في رفق وأناة عن ابنه، وعن أن من الممكن أن يعود هذا الفتى بعد هذه الغيبة الطويلة. ولكن الشيخ يسمع لها هادئًا أول الأمر، ثم يشقُّ عليه ما يسمع حتى يخرجه عن طوره، فهو لم يعرف قطُّ أن الموتى بُعِثوا من قبورهم في هذه الحياة، فإذا أَلَحَّتْ عليه في ذلك خرج الشيخ عن طوره ومسه طائف من جنون، فأسرف في العبث والفساد واضطر أهل القرية إلى أن ينقلوه إلى المستشفى. وتُقبِل السيدة ذات يوم على حارسها فتتحدث إليه ساعة من نهار، حتى إذا كاد الليل أن يغشى زعمت له أنها تريد أن تجرب نفسها في حرث الأرض، وطلبت إليه أن يعينها على

ذلك فيمضي معها، وهو يظن أن هذا عبث من العبث، ولكنها تأخذ في العمل فيشق عليه ما يرى، وتثوب إليه فجاءة نفسه القديمة التي كانت قد شردت عنه منذ زمن بعيد؛ وإذا هو يقول للسيدة: ليس هذا إليك يا سيدتي، إنما هو عملي أنا. ثم يأخذ مكانها ويمضي في الحرث كأحسن ما يحرث الفلاحون، وكعهده قبل أن تخطف الحرب منه نفسه الأولى، وقد عمل فأحسن العمل وعاد كعهده الأول القديم.

والسيدة تشهد عمله من قريب، وتملك ما يثور في نفسها من عواطف عنيفة مضطربة، حتى إذا بلغ الفتى من العمل أربه قالت له: فهذا إذن نصيبك من الأرض تتولى حرثه وزرعه. ثم أمرته أن يتبعها فتبعها، فتنحرف به عن الغابة إلى القرية وتمضي به حتى تبلغ منزل أبيه الشيخ، ثم تدخل معه هذا المنزل، ثم تقول له: هذه دارك فأوِ إليها، وتلك أرضك فاعمل فيها، واستأنف حياتك تلك التي كنتَ تحياها.

والفتى يسمع هذا كله واجمًا أول الأمر، ثم ثائبًا إلى نفسه بعد ذلك معجبًا بهذه السيدة التي عرفت كيف ترد إليه نفسه بعد أن شردت عنه عشرين عامًا، تتألفه حتى تنقذه لا من الغربة والهيام معًا، بل من الموت أيضًا؛ فقد سعت في صمت وهدوء حتى أثبتت في الجهات الرسمية شخصية هذا الفتى، وأنه لم يَمُتْ وإنما حُسِب مع الموتى خطأً.

نجحت هذه السيدة في رد هذا الفتى إلى عهده بحياته الأولى، لا بشيء إلا بأنها عرفت كيف تتألفه، وكيف تدعو نفسه الشاردة من غربتها الطويلة حتى ثابت إليه.

وفي الوقت الذي ثابت إلى الفتى نفسه، وعاد كما كان رجلًا من رجال القرية يسكن دار أسرته، ويعمل في الأرض التي عمل فيها أبوه وإخوته؛ عادت السيدة إلى قصرها راضيةً مطمئنةَ النفس مقتنعةً بأنها لم تصنع شيئًا ذا خطر، وإنما أدَّتْ واجبًا يسيرًا من واجبات الحياة.

مضى القِطار في مَوْعِده

قصة للكاتب الألماني هنرايخ بول

قرأت ترجمتها الفرنسية مفرَّقة في مجلة العصور الحديثة، وعسى أن تكون قد ظهرت الآن مجتمعة في كتاب، كما ظهر أصلها الألماني، ولستُ أخفي أنني احتجت إلى قراءتها مرتين، لا لأن فيها شيئًا من غموض أو التواء، بل لأنها راقتني، ومن الأدب ما يروقك فتقرؤه مرة ومرة، وقد تقرؤه مرات كثيرة، دون أن تقضي العجب من قراءته، أو دون أن تبلغ حاجتك إلى هذه القراءة المتكررة. وأنا بعدُ لم أقرأ هذه القصة في أصلها الألماني، وإنما قرأتها وقد نُقِلت إلى لغة أخرى، وفقدَتْ غير قليل من جمالها الأصيل، وما أشك في أن الذين سيقرءونها كما صدرت عن صاحبها سيرضون عنها أكثر مما رضيت، وسيذوقون فيها من الجمال والفن أكثر مما ذقْتُ.

والقصة لا تروع بغرابة الأحداث، فليس فيها حدث واحد غريب، بل ليس فيها فكرة واحدة تقفك عندها للتأمل والتعمق، وإنما هي تجري على نسق يسير مطرد لا اضطراب فيه ولا أَمْت.

هي أشبه شيء بحديث يقصه صديق على صديق في غير تكلُّف، ولا تأنُّق، ولا التماس للأطراف أو إثارة العجب، وهي بالطبع لم ترقش بجمال اللفظ، وروعة الأسلوب ... وهذه الخصال الأدبية المعروفة التي تسحر القارئ، وتملك عليه هواه.

فأنا كما قلتُ لم أقرأها في أصلها الألماني، وإنما قرأتها في ترجمة فرنسية، كل جمالها يأتيها من السذاجة، ويُسْر المذهب، واستقامة الأسلوب، وصواب التعبير وملاءمته لأصول

اللغة الفرنسية حين يكتبها أصحابها ميسرين غير معسرين، ومتوخين صدق التعبير والإصابة فيه، وأكبر الظن أن أصلها الألماني يقارب ترجمتها الفرنسية في هذه الخصال؛ فالترجمة الصحيحة الصادقة لا تخلو من أصداء صادقة متقاربة لما نُقِلت عنه.

فليست هذه القصة إذن طرفة فنية بالمعنى الدقيق المألوف لهذه الكلمة في اصطلاح الأدباء والنقَّاد، وإنما هي صورة يسيرة صادقة ساذجة للون من ألوان الحياة التي يحياها الشباب حين تفجؤهم الحرب، وتأخذ عليهم الحياة من جميع أقطارها، وتفرض عليهم التفكير في أحداثها وخطوبها، وفي أخطارها وكوارثها، وحين تُوئسهم من النجاة، وتمثِّل لهم صورة الموت بشعة رهيبة مروعة يملؤها الهول، فتملك عليهم تفكيرهم كله وشعورهم كله وحياتهم كلها، وتحول بينهم وبين الاستمتاع بما يمكن أن يعرض لهم من لذة أو نعمة فيما بقي لهم من الحياة، وتجعل أعمالهم كلها، وخواطرهم كلها موسومة بِسِمَة واحدة، هي سمة الخوف اليائس أو اليأس الخائف الذي يصد عن كل شيء إلا نفسه.

فهذا الشاب الذي لا نعرف من أمره إلا أن اسمه أندريه، وأنه من أسرة متوسطة، وأنه فقد أبويه، وأنه نشأ نشأةَ أترابِه معتمدًا على نفسه، يريد أن يسلك طريقه في الحياة كما يسلكها أمثاله من الشباب حين تستقيم لهم الأمور في السلم، فيجاهدون ويكافحون ويظفرون آخِر الأمر بما يتاح لهم من المنازل الاجتماعية.

هذا الشاب الذي نيَّفَ على العشرين، ولم يبلغ الثلاثين، بل لم يَزَلْ بينه وبينها شيء من أمد، تدركه الحرب فتقطع عليه طريقه إلى الحياة، كما تصوَّرها وكما أرادها، وتنحرف به إلى طريق آخَر قد استقر في روعه أنها منتهية به إلى الموت، سواء قصرت هذه الطريق أم طالت، وهو قد ذهب في هذه الحرب مذاهب، وشهد منها مشاهد، فلم ير إلا هولًا وبؤسًا وشقاءً وموتًا، يحاول أن ينسى ذكره، فيتمثل له بكل سبيل كما كانت ليلى تتمثَّل لشاعرنا العربي القديم الذي يقول:

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلِ

وقد أتيحت لهذا الشاب إجازة قصيرة قضاها في مدينته تلك التي لم تُسَمَّ لنا على ضفة الرين، فلما انقضت إجازته مضى إلى القطار الذي سيحمله إلى الميدان من وراء الحدود الألمانية في بولندا، وصحبه إلى القطار صديق له قسيس في مثل سنه، وقد انتهى الفتيان إلى المحطة وسلكا بعض أنفاقها إلى الرصيف، وهما يسمعان أثناء سلوكهما لهذا النفق الدعاء إلى القطار الذي سيسافر في موعده بعد دقائق لا يتأخر عنه قليلًا ولا كثيرًا،

وهما يسرعان إلى القطار حتى إذا بلغاه لم يصعد الشاب إلى مكانه، وإنما وقف يتحدث إلى صديقه متمهِّلًا متلكئًا، كأنه لم يأتِ لسفر، وإذا صديقه يسأله متعجلًا له منكرًا تباطؤه: «ما بالك لا تصعد إلى القطار؟ إنه يوشك أن يفوتك، أَلَمْ تسمع أنه سيمضي في موعده؟ أَلَا ترى أنه يتهيأ للانطلاق؟» فيجيبه الفتى ساخرًا: «وما عليك إن يفوتني القطار، إذا كنتُ أوثر الهرب، وإذا كنتُ أكره أن أموت؟» ثم تثوب إلى الفتى نفسه فيقول لصاحبه: «لا عليك، سأصعد إلى القطار، فادعُ لي!» ثم يصعد متلكئًا متكرهًا فيلتمس مكانه، حتى إذا ظفر به جعل ينظر إلى صديقه الواقف على الرصيف، وقد أخذ القطار يمضي أمامه، وشخص الصديق يصغر في عينيه شيئًا فشيئًا حتى يستخفي.

وينظر الفتى من حوله في القطار فيرى رجالًا ونساء، ويرى جندًا، ولكنه لا يكاد يلتفت إلى أحد ممَّن يرى؛ لأن شخصًا واحدًا قد ملأ عليه نفسه كلها وهو الموت.

وقد سقط في سمعه حوار قصير بين جماعة يتحدثون في القطار، وهم منه غير بعيد، يقول أحدهم لأصحابه: أما الحرب فقد ربحنا فيها النصر ما في ذلك شك، بل يكفي أن نعلن الحرب لنثق بأننا منتصرون …

فيقع هذا الكلام من نفس الفتى موقع رجع الصدى الذي يأتي من بعيد، ولا يجد في نفسه ردًّا على ما سمع إلا أن الألمان انتصروا، فسينتصرون دون أن يشاركهم في الانتصار؛ لأنه ميت ما في ذلك شك، ثم يفكر في المسافة التي تفصل بينه وبين الميدان، فيقدرها ويحققها ويعدُّ ساعاتها ويقطع بأن هذه الساعات هي كل ما أتيح له من الحياة. والحزن يملأ نفسه وهو حزن خائف مخيف يملؤه اليأس والأسى، فهو في أول حياته وقد كانت له آمال طوال عراض مشرقة رائعة، ولكنها تُقطَع فجأةً، وهو يريد أن يحقق هذا الموت الذي ينتظره، والذي يحمله القطار إليه في غير تردُّد ولا إبطاء، فأيسر حركة يتحركها القطار تقرِّبه من الموت وتباعِد بينه وبين الحياة، وهو يذكر الأعوام القليلة التي أُتِيح له أن يحياها شاعرًا بنفسه، عاقلًا لأمره منذ أن أتيح له العقل، ويذكر اللَّذات القليلة التي أُتِيحت له، ثم صُرِفت عنه إلى غير رجعة، واللَّذات الكثيرة التي كان يرجو أن ينالها، ثم قطعَتْ بينه وبينها الأسبابُ، فالموت ينتظره هناك من وراء الحدود باسطًا له ذراعيه ليضمه إليه في عنف، أو في رفق، لا يدري!

والقطار يمضي به حازمًا مسرعًا ليسلمه إلى هاتين الذراعين، وهو يذكر أوقاتًا قصارًا قضاها في فرنسا حين حملته الحرب إليها، ولَذَّاتٍ خاطفة أُتِيحت له هناك، فقد تتيح الحرب للجند بعض اللَّذات الخاطفة حين تحملهم إلى هذا المكان أو ذاك، ولكنها

في هذه المرة لن تتيح له لذة خاطفة أو غير خاطفة؛ لأنه سيصل إلى الميدان في ساعة بعينها، وسيتلقاه الموت إثر وصوله لا يمهله ولا ينتظر به لذة أو ألمًا.

والفتى يثوب إلى نفسه بين حين وحين، ويلومها أعنف اللوم لا لأنها تفكِّر في الموت، بل لأنها أثناء تفكيرها في الموت لا تتأهب له بالصلاة والدعاء، وإنما تنفق وقتها القليل في استحضار ذكريات لا سبيل إلى أن تعود، وليس يغني استحضارها عنه شيئًا، ولا ينفعه قليلًا أو كثيرًا.

ما أضعف النفس وما أسخفها، وما أحرصها على أن تضيع وقتها فيما لا ينفع ولا يفيد! إنه لا يحتاج إلى شيء، كما يحتاج إلى الصلاة والدعاء؛ يتهيأ بهما لِلَقاء هذا الموت الذي ينتظره هناك ليتلقَّاه إثر نزوله من القطار، وهو هنا يشغل نفسه عن الصلاة والدعاء بهذه الفتاة التي لقيها في فرنسا فأحبها وكَلِف بها، وكان حبه لها أول عهده بالحب.

ما شأنه بالحب الآن! إن الحب نعمة تغمر النفس وتملأ القلب حياةً وأملًا، ولا سيما حين يتاح للفتيان في طور الشباب الذي يتسع للحياة والأمل ولذَّاتهما، ولكن شبابه هو ليس كغيره من الشباب، فهو لا يتسع لحياة ولا لأمل ولا للذة؛ لأنه شباب ضيق لا يتسع إلا بمقدار ما يتسع هذا القطار، أو هذا المكان الذي يشغله من القطار، ولا يطول إلا بمقدار هذه المسافة التي تقصر في كل لحظة بمقدار ما تتحرك عجلات القطار. فَلْيعمد إلى الصلاة والدعاء؛ إذن يملأ بهما هذا الشباب الضيق القصير، ولكنه لا يشقى بنفسه هذه التي تشغله بذكرياتها فحسب، وإنما يشقى بجسمه أيضًا؛ إنه يحس الجوع ولم يَبْقَ إلا أن يشغله جسمه عن الصلاة والدعاء بحاجته الملحَّة إلى الطعام، فَلْيُرِحْ جسمه، وَلْيكفَّه عن هذا النداء المُلِحِّ، وَلْيتناولْ شيئًا من الطعام، وَلْيفرغْ بعد ذلك من جسمه ونفسه من ذكريات هذه وجوع ذاك، وَلْيقصر ما بقي من وقته على الصلاة.

والفتى يعمد إلى الطعام الذي أعده له صاحبه القسيس فيصيب منه شيئًا، ولكن ماذا! إنه يجد للطعام لذة ترغِّبه في الاستزادة منه، أيمكن أن يجد الإنسان لذة الطعام وهو يعلم أنه ميت بعد قليل من غير شك؟ إن أمر الحياة لا يخلو من عجب، فهي لا تفرِّق بين الجد والهزل، ولا بين المهم والسخيف. موت قريبٌ محقق وجوع مع ذلك، وشهوة إلى الطعام ورغبة في الاستزادة منه. فَلْيقطع هذه الشهوة إذن، وَلْيصب من الطعام حظًّا آخَر، وَلْيشرب شيئًا من نبيذ. إنه لنبيذ عذب المذاق، حسن الموقع في الجوف، إنه ليشيع في الجسم حرارة ودفئًا، وإنه ليشيع في القلب سرورًا ونشوة. إن شيئًا من هذا لا ينسيه

الموت ولا يشغله عنه، ولكنه يخفف من حزنه ومن مرارة يأسه؛ فَلْيستزِدْ من هذا الشراب كما استزاد من ذلك الطعام، وَلْيفرغ بعد ذلك كله لما ينبغي أن يفرغ له من الصلاة والدعاء، حتى لا يلقى الموت بنفس مجدبة قاسية.

وقد فرغ الفتى من طعامه وشرابه، ولكنه لم يفرغ لصلاة ولا لدعاء، فقد كان النوم يرقبه من قريب جدًّا، فلم يكد يفرغ من طعامه وشرابه حتى مسَّه بجناحه مسًّا رفيقًا فأنساه نفسه، وأنساه الصلاة والدعاء، وأنساه الموت أيضًا. أَعَرَضَ له الموت في أحلامه أم انتظر به حتى يفيق من نومه؟ لا يدري؛ لأنه لم يكد يفيق من نومه حتى رأى الموت ماثلًا أمامه، بل مستأثرًا بنفسه وقلبه، فهو لا يدري أَنَامَ أم لم يَنَمْ؟ وإنما يعلم أنه ما زال مصاحبًا للموت دائمًا. ولكنه يرى رفيقين في القطار لا يذكر أنه رآهما حين صعدا إليه، ولعلهما صعَدَا إلى القطار أثناء نومه ذاك اليقظ، أو يقظته تلك النائمة. وهما جنديان مثله، وهما يلتمسان الأسباب للتحدث إليه، وما أسرع ما يتصل بينه وبينهما من الحديث، وإذا هما يذهبان إلى نفس الميدان الذي يذهب إليه، ولكن الغريب أن الفتى لا يقدر أن الموت ينتظرهما كما ينتظره، إنما الموت ينتظره هو وحده، فأما غيره فليس يعلم من أمره شيئًا، ولا يعنيه أن يعلم من أمر غيره شيئًا، وهو لا يعرف اسم رفيقَيْه ولا يعنيه أن يعرف اسمهما، فَلْيكونوا رفاق سفر حتى إذا بلغوا الميدان فرَّق الموت بينهم، فاستأثر به وصنعت الأحداث بصاحبَيْه ما لا حاجة به إلى أن يعلمه. وهم ينفقون الوقت في حديث ولعب بالورق، وفي طعام وشراب يُشرِك كلٌّ منهم صاحبَيْه فيما عنده، فقد أَلَّف بينهم السفرُ وأَلَّفت بينهم الحرب وجعلتهم رِفَاقًا مخلصين في الخير والشر، لا يستأثر أحدٌ منهم بشيء من دون صاحبَيْه.

والقطار يبلغ غايته بعد ليلة كاملة وبعد جزء من النهار، ولكنه ينتهي بهم إلى مدينة قريبة من الميدان، ثم يتركهم فيها ليأخذوا إلى الميدان قطارًا آخَر لا يعرفون موعده، ولا يلبثون أن يتبيَّنوا أن قد مُدَّتْ إجازتهم بقية يومهم ذاك، فلن يبلغوا الميدان إلا في الساعة السادسة من صباح الغد، وليس بينهم وبين الميدان مع ذلك إلا أمد قصير، فَلْينفقوا يومهم إذن وادعين في هذه المدينة، وقد أخذوا في ذلك فأصلحوا من شأنهم وغيروا ملابسهم، واستردوا هيئاتهم كما تكون في أيام الإقامة، وإذا هم فتيان أقوياء عليهم وسامة ولهم شارة، وأحدهم ضابط رشيق كريم موفور يريد أن يمتِّع صاحبَيْه بشيء من نعمة البال قبل أن يذهبوا إلى الميدان، فهو يدعوهما إلى مطعم فخم يتناولون فيه غذاء مترفًا، وهو يذهب بصاحبَيْه بعد ذلك إلى دار من دور الإثم، وقد أسرفوا

على أنفسهم في الطعام والشراب. وماذا يصنع الجند الفارهون الذين تنتظرهم الحرب بأهوالها من الغد، وقد طعموا وشربوا فأكثروا؟ وهم قد ذهبوا إلى هذه الدار واختار الضابط لنفسه ولصاحبَيْه، وخلا كلٌّ منهم إلى صاحبته. ولكن فتانا لم يَنْسَ الموت حين طعم، وحين شرب، وحين أوى إلى هذه الدار الآثمة، فقد دخل الموت معه في ثيابه واستقرت صورته في عقله وقلبه جميعًا، واشتد استئثارها به بمقدار ما قرب الأمد في الزمان والمكان بين الفتى وبين الميدان. وهو يلقى صاحبته باسمًا لها، ولكنه لا يريد إلا أن تبقى معه في غرفته، هو لا يبتغي إثمًا ولا لذَّة، وإنما يبتغي فرارًا من الوحدة، فرارًا من نفسه، وفرارًا من صورة الموت، وصاحبته ضيقة بذلك أول الأمر، ولكنها لا تلبث أن تطمئن إليه؛ فضرورات الحرب وقسوة الحياة وطلب العيش هي التي اضطرتها إلى هذه المهنة البغيضة. ولا تكاد الفتاة تتحدث إلى الفتى حتى يعلم أنها محاربة، وأنها تتجسس لمواطنيها الثائرين بالعدو المحتل. قالت ذلك للفتى حين أمنته واطمأنت إليه، وهي في أول أمرها وفي أيام السلم كانت تتهيَّأ لصناعة الموسيقى، والفتى مشوق إلى الموسيقى، مشوق إليها أي شوق! ومَن يدري، لعل الموسيقى ترده إلى هذه الصلاة التي لم يفرغ لها إلى الآن! وهو لا يكاد يسمع عزف الفتاة حتى يحبها أعمق الحب وأقواه، وهي أيضًا قد أحبته والفتى كلف بالفتاة إلى أقصى غايات الكلف، ولكنه على ذلك لا يريد إلا صحبتها، وإلا صحبتها التي تتصل حتى تسلمه إلى الموت، صحبتها التي تسليه عن الموت ما امتدَّ الليل، وتسلمه إلى الموت حين يسفر الصبح. وهما يطعمان ويشربان ويتحدثان، ولكن الباب يطرق، وإذا صاحبة الدار تدعو الفتاة لأن القائد يريدها، والفتى يأبى أشد الإباء ويمسك الفتاة معه، وينفق كل ما عنده من نقد، وينزل حتى عن بعض ملابسه وعن حذائه لتبقى معه الفتاة، وما يمنعه أن يلقى الموت غير كامل الزي، وأن يلقى الموت حافيًا؟ وما يصنع الموت بزيِّه وحذائه؟ إنما يريد الموت مهجته وحدها.

وقد بقيت معه الفتاة ورقَّتْ له وأقسمَتْ لتنجينَّه من الموت؛ فستأتي سيارة القائد في آخِر الليل لتحمل إليه الفتاة، وسائق السيارة بولندي مثلها وهو عدو مثلها للألمان، فستصطحب الفتى معها في السيارة وستنحرف السيارة بهما قليلًا، وسيفران إلى قرية تعرفها الفتاة في شِعْب من شِعَاب الجبل، والفتى لا يكره ذلك ولكنه يطمئن بشرط أن يصطحب رفيقَيْه، وما يمنع أن يفروا جميعًا إلى ثِنْي من أثناء الجبل، فيعيشون فيه حتى تضع الحرب أوزارها؟ وقد مضت بهم السيارة مع الصبح، وهم جميعًا فيها يحاولون أمرًا، وقد دبَّر القضاء أمرًا آخَر؛ فقد نظر فتانا أندريه في ساعته، فإذا هو يقرأ الساعة

السادسة، ولا يكاد يحول عينه عن ساعته حتى تنشق السيارة نصفين؛ سقطت عليها قنبلة فجعلتها ومن فيها حطامًا. ويفكر الفتى: أين هو؟ وأين يداه ورجلاه؟ وينظر في سكرة من سكرات الفجاءة، فيرى يدًا قد خرجت من حطام السيارة هي يد صاحبته تلك التي أقسمت له لتذهبن به إلى حيث يلقى الحياة الناعمة.

أي القطارين كان دقيقًا في المحافظة على موعده أعظم الدقة وأشدها؟ أهو ذلك القطار الذي حمل الفتى ورفاقه إلى الميدان، أم هو قطار آخَر هيَّأه القضاء ليحمل الناس من الحياة إلى الموت!

الرَّبْوة المنْسِيَّة

قصة للكاتب الجزائري مولود معمري

صاحب هذا الكتاب أخ لنا من أهل الجزائر لا أعرفه، ولا أكاد أحقِّق اسمه الذي يحمله كتابه هذا مكتوبًا باللغة الفرنسية.

ولو قد كان من أصل عربي لأمكن أن يرد اسمه من التحريف الفرنسي إلى طبيعته العربية الأولى، ولكنه نشأ في قبيلة من قبائل البربر، فتأثَّر اسمه بلغته الأولى، وكُتِب بالأحرف الفرنسية مولود ماميري، وعسى أن يكون أصله مولود معمري. وتعيش الفصيلة التي ينتمي إليها الكاتب على ربوة تقوم من دونها جبال شاهقة تحول بينها، وبين السهل الذي يسكنه العرب.

وهي كغيرها من الفصائل تتخذ الإسلام دينًا، ولكنه على تأصُّله فيها، وبعد عهدها به منذ القرون الطويلة، قد انحرف إلى شيء من الوثنية التي يسرع بها الجهل المتصل بكثير من طبقات الدهماء؛ فأفرادها يقدِّسون الأولياء تقديسًا يوشك أن يبلغ العبادة، وهم يقربون إليهم الضحايا في أيام بعينها من العام، ويحملون إليهم الهدايا، ويتوسلون إليهم بفنون من الدعاء، ويتخذونهم وسطاء بينهم وبين الله، وهم وسطاء أقوياء يملكون دفع الأذى وكشف الضر، كما يملكون تحقيق الآمال وإجابة المطالب، وقبورهم مشهودة دائمًا قد وُضِعت مراسم لزيارتها في بيوتها التي قامت من حولها، كما وُضِعت مراسم للانصراف عنها بعد الزيارة وبعد رفع الحاجات إليها.

وفي عبادتها أو التقرب إليها من طريق الذِّكْر أمور أقل ما توصف به أنها تنافي المألوف من أمور الدين حتى في البيئات الشرقية الجاهلة … فتدخين الحشيش — مثلًا —

مقدمة من مقدمات الذِّكْر، والذِّكْر نفسه رقص أو شيء يشبه الرقص، وعلى هذا اللون من ألوان الدين والاعتقاد قامت لهؤلاء الناس عادات وسنن تأثَّروا بها في تصوُّرهم للأشياء، وحكمهم عليها وتفكيرهم فيها وتقديرهم لها. وهم على ذلك يؤدون الصلوات لأوقاتها، ويصومون حين يُظلهم شهر الصوم، ويقرِّون في أعماق نفوسهم ما يقر المسلمون من أصول الإسلام الصحيح، ثم هم بعد هذا كله ينظرون إلى الطبيعة من حولهم نظرةً خاصةً، ويبثون فيها شيئًا من الحياة، ويضيفون إليها شيئًا من الإرادة أيضًا، ويجرون بين عناصرها ضروبًا من الصلاة تذكِّر بالوثنية في بعض البيئات القديمة.

والربوة التي تعيش عليها هذه الفصيلة من فصائل البربر قليلة الصلة بغيرها من الناس، تكاد تعيش في عزلة لولا أن ضرورة الحياة تفرض عليها الشعور بأنها تخضع لسلطان بعيد مختلط، هو سلطان الحكومة التي تأتلف من الفرنسيين الذين يسودون ويدبِّرون الأمر، ومن القادة المواطنين الذين يتوسَّطون بين هؤلاء السادة ورعاياهم وساطة فيها كثير من الاستعلاء، وفيها كثير من الفساد أيضًا. هم في قصورهم أو دورهم أشبه بالأولياء في قبورهم؛ للأولياء الوساطة بين الناس وبين الله، وللقادة الوساطة بين الناس وبين السادة الفرنسيين.

يُقدَّم القربان إلى أولئك كما يُقدَّم إلى هؤلاء، وتُرفَع الحاجات والمطالب والمظالم إلى أولئك كما تُرفَع إلى هؤلاء، ويُتَّقَى الشر ويُرجَى الخير من أولئك ومن هؤلاء. وكذلك تجري أمور هؤلاء الناس في شيء من الطمأنينة الغريبة التي يمازجها كثير من الخوف، وكثير من الحب والبغض؛ فهم يخافون الأولياء والقادة جميعًا، ولكنهم يحبون الأولياء ويبغضون القادة، وهم يذعنون للفرنسيين كما يذعن الإنسان للقضاء المحتوم الذي لا حيلة له فيه، لا يعرفون كيف جاءوا إليهم، ولا يعرفون كيف يخلصون منهم، فهم راضون لأنهم لا يملكون إلا الرضى. هذه هي البيئة التي نشأ فيها الكاتب، والتي صوَّرها في كتابه أجمل تصوير وأروعه، وهو يكتب باللغة الفرنسية، وكتابه رائع أشد الروعة وأقصاها بحيث يمكن أن يُعَدَّ من خير ما أخرج في الأدب الفرنسي أثناء هذه الأعوام الأخيرة، وإنْ كنتُ لا أعرف أنه ظفر بجائزة من هذه الجوائز الكثيرة التي تُمنَح في فرنسا لكتب لا ترقى إلى منزلة هذا الكتاب روعة وجمالًا.

والكاتب معلم في إحدى المدارس الفرنسية بمدينة الجزائر، وأكبر الظن أنه لا يحسن العربية ولا يكتب بها، وآية ذلك رسالته تلك التي قدَّم بها كتابه إليَّ منذ شهور.

وإن مما يؤلم حقًّا أن يصدر مثل هذا الكتاب الرائع الممتاز في بلد كالجزائر، للعربية فيه المنزلة الأولى بالقياس إلى أهله، ولكني لم أتلَقَّ من هذا البلد كتابًا بلغة أهله يقارب

هذا الكتاب جودةً وإتقانًا وامتيازًا. وأكاد أعتقد أن اللغة العربية في الجزائر لم يُتَحْ لها بعدُ أن تكون لغة الأدب بالقياس إلى الذين يتكلَّمونها؛ لأن العناية بها لا تكاد تُذكَر، وهذا أقل ما يُنتظَر من الاستعمار، وإن كان الفرنسيون يرون استعمارهم للجزائر نعمةً لم يحسن الجزائريون شكرها إلى الآن، وما أحسب أنهم سيحسنون شكرها في يوم من الأيام.

وكيف السبيل إلى أن تشكر نعمةً تعلِّم الناسَ لغةً غير لغتهم حتى يمتازوا فيها، ويتصرفوا بها خيرًا من تصرُّف كثير من أهلها، وتجهلهم لغة آبائهم وأمهاتهم حتى لا يكتبوا بها أيسر الرسائل وأهونها شأنًا!

ولكن أنسيت أني أكتب اليوم في الأدب لا في السياسة، فَلْأَعُدْ إلى هذا الكتاب الذي سمَّاه صاحبه «الربوة المنسية»، ولو كان أمر تَسْمِيَته إليَّ لَسَمَّيْتُه «خطيبة الليل»؛ لما سترى بعد حين.

وفي الكتاب خصلتان كل واحدة منهما تكفي لتبلغ بالكتاب منزلة ممتازة من الجودة والإتقان، فكيف وقد اجتمعتا أحسن اجتماع، والتأمتا أدق التئام، وائتلفت منهما موسيقى حلوة مرة ترضي القلب والذوق معًا.

فالكتاب دراسة اجتماعية عميقة دقيقة مفصَّلة مستقصاة تصوِّر أهل هذه الربوة في عزلتهم تلك، وقد فرغوا لأنفسهم واعتمدوا عليها، فلم يكادوا يذكرون أحدًا غيرهم من الناس، وهم يجهلون ما وراء الجبال التي تقوم دونهم، لا يعرفونهم إلا حين يضطرون إلى ذلك اضطرارًا، وما أقل ما يضطرون إليه، وهم لا يشعرون بالحكومة إلا حين تجبي منهم الضرائب على ما تثمر لهم الأرض، وما يكسبون من المال، وحين تدفعهم الحاجة الملحة إلى أن يؤدوا إلى القائد البعيد شيئًا من الرشوة لقضاء مأرب من المآرب، والعروض التجارية التي يحتاجون إليها، وهي قليلة تأتيهم من وراء الجبل، وربما سعى بعضهم إليها ليجلبها، ولكنهم لا يحفلون بذلك ولا يلتفتون إليه، إنما هم فارغون لما تعوَّدوا أن يفرغوا له من حياتهم تلك التي تشبه الإقطاع الهين السهل.

جماعة من الأغنياء يملكون الأرض أو أكثرها، وآخَرون من الفقراء يعملون لهم في هذه الأرض ويرعون لهم قطعانهم، وأولئك وهؤلاء إخوة متحابون ليس فيهم تسلُّط ولا كبرياء، وإنما هو التعاون الرفيق في ظل هذا العُرْف المقرَّر الذي قسم بينهم حظوظهم قسمة جرى بها القضاء كما يجري بكثير من الأشياء، فما ينبغي أن ينكره أحد أو يعترض عليه إلا بمقدار ما يكون من الضيق بالعاصفة حين تثور، أو البرد حين يسقط

على الأرض ويتكاثف، ويضطر الناس إلى أن يلزموا دورهم أيامًا تقصر أو تطول، أو القيظ حين يشتد اتقاده، حتى يجعل بعض ساعات النهار قاسية لا تطاق. وهم في حياتهم هذه الوادعة المطمئنة لا يشقون إلا بما يعرض للناس من الشقاء حين تلمُّ العلة أو يطرق الموت. ولا يكادون ينكرون من أمرهم إلا هذا الخلاف اليسير الذي يكون بين الشيوخ المحافظين، الذين ألفوا حياتهم الموروثة وعُرْفهم المحفوظ. وهؤلاء الشباب الذين اختلفوا إلى المدارس الفرنسية فالتوت ألسنتهم برطانة يعرفونها ولا يحبونها، وجعلوا يأخذون عن معلميهم وأساتذتهم وبيئتهم تلك المدرسية بعضَ التقاليد الأجنبية التي تفسد عليهم شيئًا غير قليل من تفكيرهم وتقديرهم، وتغيِّر آراءَهم في بعض العادات والمقدَّسات، ومع ذلك فقد أذعن الشيوخ لما ليس بدٌّ من الإذعان له، فقبلوا الشباب على علاتهم، واضطر الشباب أيضًا إلى شيء من الإذعان فخضعوا للعادات والعُرْف ينكرونها في قلوبهم، ويعرفونها في سيرتهم، ولا يحاولون تغييرها إلا في كثير جدًّا من التردد والاستحياء، ثم هم مع ذلك لا يبلغون من محاولاتهم هذه أو لا يكادون يبلغون منها شيئًا.

حياة تمضي مطردة يسيرة لا أَمْت فيها ولا عوج، لولا أن القضاء يفجأ الناس بين حين وحين بما لا يقدرون، فهذه نذر الحرب لا تكاد تبلغهم وتدعوهم إلى شيء من الرويَّة والتفكير والاحتياط، حتى تتبعها أنباء الحرب مسرِعة، وإذا الخوف يستقر في قلوبهم، وإذا القلق يسيطر على سيرتهم كلها، ثم لا يلبث البريد أن يُمطِر الدورَ بوابلٍ من الرسائل موجَّهة كلها إلى الشباب تأمرهم أن يسرعوا إلى أماكنهم من الجيش.

فصوِّرْ لنفسك وَقْع هذه الرسائل في نفوس الآباء والأمهات، هؤلاء الذين يُكرَهون على فراق أبنائهم في غير حاجة منهم إلى هذا الفراق، وما شأنهم هم بهذه الحرب التي يثيرها الروم فيما بينهم — والروم عندهم هم الأوروبيون — لا يستشيرونهم ولا يستأمرونهم، وليس لهم فيها أرب قريب أو بعيد! ثم هم يصلون نارها، وأي نار! يصلاها أبناؤهم هيِّنَة أول الأمر حين يذهبون إلى مواقفهم من الجيش، فينفقون وقتًا ما في التدريب، ثم يُقذَف بهم بعد ذلك إلى ما وراء البحر هناك، حيث لا يستطيع أحد أن يعرف من أمرهم ولا من مصيرهم شيئًا، وإنما هي صور الموت المنكرة بشعة متوثبة قد فغرت أفواهها، وبسطت أيديها الطوال القوية لتخطف الشباب، وتزدردهم ازدرادًا في غير رفق ولا لين.

وهؤلاء الآباء والأمهات لا يجهرون بشيء من هذا، وإنما يجمجمون به ويردِّدونه في ضمائرهم ترديدًا ملِحًّا أليمًا، وهم على ذلك يتجلَّدون تجمُّلًا وتكرُّمًا فيما بينهم،

ويتجلدون حبًّا لأبنائهم ورعايةً لهم، كذلك يكظمون الغيظ ويحبسون العَبَرات، حتى إذا خلوا إلى أنفسهم ساعة من نهار أو ليل أرسلوها على سجاياها، فشكوا وألحُّوا في الشكاة، وبكى النساء وأمعنَّ في البكاء، ثم خرجوا بعد ذلك كرامًا لا يظهر عليهم إلَّا حزن وقور.

والشباب قد عرفوا من شئون الحرب الماضية القريبة ما يبغض إليهم هذه الحرب الجديدة، وينفرهم منها نفورًا شديدًا. في نفوسهم القلق، وفي نفوس كثير منهم اليأس، ولكنهم كآبائهم يتجلدون؛ يرفقون بهؤلاء الشيوخ من جهة، ويكرهون أن يظهر عليهم الفَرَق والضعف من جهة أخرى، فقد ينبغي أن يكونوا رجالًا وأن يكبروا في نفوس رفاقهم، وفيما بينهم وبين ضمائرهم أيضًا.

الشباب إذن يتأهَّبون للسفر، والشيوخ يهيِّئون لهم أسبابه، ثم تأتي الليلة التي سيسافرون من غدها، فسَلْ عن القلوب الواجفة والنفوس الخائفة، وعن الحسرات المكظومة والعبرات المكتومة، وهذه الليلة تقصر حتى كأنها ساعة، وتطول حتى كأنها ليالٍ طويلة يقصِّرها الحرص على البقاء بين الأهل والصديق، وفي ظلال الوطن الحبيب، ويطوِّلها توقُّع الهول الذي ستنكشف عنه ساعات الفراق، ثم تأتي هذه الساعة قبل أن تشرق الشمس، فيخرج الشباب في غير فرح ولا مرح، تشيعهم صيحات الأمهات والأخوات والزوجات، ودعوات الآباء الذين يعرفون كيف يحتفظون بالأناة والجد، ويدَّخِرون لأنفسهم كنوز الحزن والقلق والخوف. والحرب لا تأخذ من هؤلاء الناس أبناءهم وحدهم، وإنما تأخذ معهم الدعة والأمل والرضى، وهي لا تجلب لهم الخوف والحزن وحدهما، وإنما تجلب لهم معهما مصاعب الحياة من كل لون. فما أكثر ما تستولي الحكومة على بعض ما يملكون من أداة وحيوان، وما تخرج لهم الأرض من ثمرات! وما أقل ما يُجلَب إليهم من حاجاتهم! وما تكاد الحرب تنفق الأسابيع الأولى من حياتها المنكرة، حتى يكون الغلاء الذي يجعل حياة الفقراء وأوساط الناس عسرًا كلها وضيقًا.

غير أن الحرب في أول أطوارها لا تصيب الناس بشرِّها كله، فما تلبث الهزيمة أن تلم بالفرنسيين وتستقر في بلادهم، وتظهر آثارها في الجزائر وقد سُرِّح الجيش وعاد كثير من هؤلاء الشباب إلى أهلهم وأوطانهم موفورين، واستأنفوا حياتهم كما كانوا يحيونها من قبلُ، ولكن فيها ضيقًا وعسرًا وضروبًا من المصاعب، وألوانًا من الشدائد الثقال.

والشيوخ راضون بعودة أبنائهم إليهم، والشباب راضون باستئناف حياتهم على ما فيها من عسر وضيق، ولكن الحرب تستأنف بعد شيء من الوقت؛ فهؤلاء الأمريكيون قد احتلوا الجزائر وأخذوا في طرد الألمان من شمال أفريقيا، والفرنسيون يريدون أن

يشاركوا في الحرب والانتصار، فيُدعَى هؤلاء الشباب إلى مواطنهم من الجيش مرة أخرى، ويستأنفون حياتهم تلك القاسية المرة التي ذاقوها منذ حين.

هذه هي الصورة الاجتماعية التي يصوِّرها لنا الكاتب في كتابه، وقد أوجزتها إيجازًا شديدًا وتركت خير ما فيها مما يسخط ويرضي، ومما يحزن ويسر، فإني لا أفصِّل الكتاب وإنما أُلخِّصه وأترك لمَن شاء واستطاع من القرَّاء أن يقرأه كاملًا. وأنا بعدُ لم ألمَّ إلا بالخصلة الاجتماعية لهذا الكتاب، وقد قلت إن في الكتاب خصلة أخرى رائعة أشد الروعة، وهي هذه التي تتصل بحياة جماعة من الفتيان، فيما بينهم من جهة، وفيما بينهم وبين أنفسهم من جهة أخرى، وهم فتية تختلف حظوظهم من الغنى والفقر، ولكنهم على ذلك متقاربون أشد التقارب تجمع بينهم قبيلتهم، وتجمع بينهم سنهم، ويجمع بينهم اشتراكهم في جد الشباب ولعبه. هم ينسون ما بينهم من الفروق حين يلتقون ليلعبوا أو يسمروا، أو يأخذوا فيما شاء الله أن يأخذوا فيه من فنون الشباب حين يُتَاح لهم الفراغ، وهم جميعًا ينعمون بالحب حين يكون في نفوسهم أملٌ يداعبونه ويجدون اللذة في مداعبته، والتحدُّث فيه، وينعمون كذلك حين تتاح لهم بعض لذَّاته النقية البريئة يختطفونها اختطافًا، فتكون لهم متاعًا وذخرًا، ثم هم جميعًا يشقون بالحب حين تتحول آماله إلى يأس مهلك لا راحة منه، ولا سبيل إلى إتقائه، أو حين تحقق آماله فتملأ القلوب رضى وغبطة، وتملأ الحياة سعادة وهناءة وإشراقًا، ثم لا يلبث الحرمان أن يمسَّها بجناحه البغيض، فتتحول يأسًا مظلمًا ينتهي بأصحابه إلى الموت.

هذا قد أحب صاحبته أشد الحب، ولم يشك في أن حبه هذا منتهٍ إلى غايته من اجتماع الشمل وتحقُّق الأمل، ولكن أسرة الفتاة يغرُّها غنى فتًى آخَر، فتؤثر الإصهار إليه وترضاه لابنتها زوجًا، والفتاة تحب صاحبها القديم، ولكنها خاضعة لعُرْف القبيلة وتقاليدها، فهي تكظم حبها وتكتم شقاءها به وتمنح زوجها من الوفاء والإخلاص، والنصح والصدق في العشرة، وحسن الرعاية لحقوقه ومصالحه ما ينبغي للمرأة الحرة الكريمة أن تختص به زوجها.

ولكن القلوب ليست بأيدي أصحابها يصرفونها كما يحبون، وإنما هي بأيدي هذه العواطف الثائرة الجامحة التي تملك عليها أمرها كله وتدبرها كما تشاء.

فلا أقل من أن تملك هذه المرأة أمر نفسها في قوة وحزم ومضاء، فلا تفرط في حق زوجها، ولا تستجيب لهذه العواطف الجامحة حين تدعوها إلى بعض ما تريد. فَلْتظهِر سعادة وأمنًا ورضًى، وَلْتضمِر شقاءً وخوفًا وحزنًا، وَلْتُخْفِ ما تضمر على الناس جميعًا،

وعلى هذا المحب القديم خاصةً؛ فما ينبغي أن يظهر منها على ضعف، ولا أن يجد إلى الطمع فيها سبيلًا، وهي تراه مولهًا مدلهًا مفتونًا قد أخرجه الحب عن طوره ودفعه إلى ألوان من التصرف الغريب، وهي تبتهج بما ترى وتُظهِر مع ذلك قسوةً لا حدَّ لها.

وهذا فتًى آخَر يحب صاحبته، ويكلف بها أشد الكلف، يفطن لحبه قبل أن تفطن له صاحبته؛ فهي مشغولة عنه وعن الرفاق جميعًا بمحب لها آخَر شديد الأثرة، شديد الغيرة، يريد أن تكون له وحده لا يشاركه فيها شريك من قرب ولا من بُعْد، وهذا المحب الأَثِر الغيران الذي لا يحب هذه الفتاة وحدها، وإنما يحب معها فتيات أخريات كثيرات قد بسط عليهن سلطانًا قاسيًا صارمًا، فهن خالصات له لا ينبغي أن يشغلهن شاغل. وهذا المحب القاسي هو الليل، الليل الذي ألف عشيقاته من فتيات الأنهار والغابات يسعين إليه مصطحبات منذ تجنح الشمس إلى الغروب حتى تئوب إلى مشرقها مع الصبح، وصاحبتنا تسعى معهن إلى الليل وتخلص له معهن من كل شيء ومن كل إنسان، فإذا أقبل النهار عادت إلى رفاقها تشاركهم فيما يأخذون فيه من لعب أو حديث. وقد أتيح لهذا الفتى أن يستخلص حبيبته من عاشقها ذلك الغريب المخيف، وأن يتخذها لنفسه زوجًا، فهو ناعم سعيد، وهي ليست أقل منه سعادة ونعيمًا لولا هذه الحرب التي تفرِّق بينهما مرتين، ولولا أم الفتى هذه التي لم تزوِّج ابنها لتسعد بنعيمه ورضاه، وإنما زوَّجته لينجب لها الولد الذي يحفظ اسم الأسرة من الضياع، ويحفظ ثروة الأسرة من أن تنتقل إلى الغرباء.

والأم تنتظر الولد فيطول انتظارها، حتى إذا أدركها اليأس ضاقت بهذه الزوجة السعيدة وأرادت أن يطلقها ابنها، وأن يتخذ مكانها زوجة وولدًا، ولكن الفتى يأبى ويمعن في الإباء، والأم تلحُّ وتمعن في الإلحاح، والفتى يلتمس الحيل على اختلافها ليتاح له الولد، وإذا هو ينسى ما تعلَّم في المدارس والجامعة، ويطلب الولد عند القديسين كما يطلبه من عجائز القبيلة دون أن يبلغ شيئًا. والزوجة الشابة محزونة قد استحالت سعادتها شقاءً، وأمنها خوفًا وإشفاقًا، والوالد الشيخ حائر بين زوجه تلك التي تلحُّ، وابنه الذي يحب، ولكنه ينتهز غيبة ابنه فيحمل الزوجة الشابة إلى أهلها، ويضطر الفتى إلى فراقها. والفتى من أجل ذلك يمضي إلى الحرب حين يُدعَى إليها في المرة الثانية، مطمئنًا إليها، قد كره الحياة وأنكر كل شيء فيها. وهو يشارك في بعض المواقع ويحسن البلاء، ويعود مع بعض رفاقه في إجازة قصيرة ليرى القرية ومَن فيها، وليلم بزوجته تلك التي أُكرِه على فراقها، وقد تلقَّى منها كتابًا تتحدث فيه عن حبها اليائس وبؤسها

المقيم، وتذكر له فيما تذكر أنها لم تكد تبلغ أهلها حتى أحست الحمل، فهي تنتظر الولد إذن بعد حين.

وقد سلك الفتية طريقهم إلى قريتهم في يوم عاصف يسقط فيه الثلج فيكسو قمم الجبال، ثم ينحدر فيغطي السفوح. وما تكاد السيارة تسلك طريقها بالفتية إلى القرية حتى يتبيَّنوا أن العاصفة قد أخذت عليهم طريقهم بما ألقت فيها من ثلج، وبما صدعت من صخور الجبال، فيعودون أدراجهم ينتظرون هدوء العاصفة، إلا الفتى هذا المشغوف بلقاء زوجته تلك المطلَّقة بغير حق، فهو يخالف رفاقه ويزمع أن يبلغ القرية ماشيًا وأن يقتحم الهول في سبيل ذلك، وهو يلمح زوجته تلك خطيبة الليل تتراءى له من بعيد تدعوه دعاء المحب مرة، وتزجره زجر اللائمة مرة أخرى، وهو يستجيب لها ويمضي أمامه يغالب العاصفة والبرد والثلج والجبل، ويُخَيَّل إليه أنه من قريته غير بعيد، ولكنه لا يجد القوة على المضي أمامه، قد أنهكه هذا الصراع المر، فيجلس ليأخذ نصيبًا من راحة ولكنها جلسة لا يقوم منها؛ فقد انتهى به الإعياء إلى أقصاه، وكان الموت ينتظره في ذلك العطف من أعطاف الجبل، فتلقَّاه رفيقًا به عطوفًا عليه.

وفتية آخرون وشيوخ آخرون أيضًا يصوِّر لنا الكاتب حياتهم على هذا النحو من التصوير الدقيق، الذي يصدر عن شعور صادق وحس رقيق وعواطف قوية قد تبلغ القوة بها طورًا من الحدة في كثير من الأحيان، ولكنها حدة لا تلبث أن تثوب إلى شيء من الهدوء والاعتدال. والحرمان المتصل أو الحرمان الطارئ هو الفكرة المصاحبة للكتاب منذ يبدأ إلى أن ينتهي، وهو حرمان يتصل بالنفوس في أكثر الأحيان، ولكنه ربما يتصل بالمال أيضًا، فينغص حياة سعيدة كانت خليقة أن تمضي في سعادتها، وأن تتيح لأهلها النعيم وتنشئ مَن رزقوا من الولد في ثراء وخفض، ولكن الحرب قد جاءت فيما جاءت به بكثير من الكوارث التي تفقر بعض الأغنياء، وتغني بعض الفقراء، وتقلب حياة بعض الأسر ظهرًا لبطن، فيشقى بذلك قوم كانوا خليقين أن ينعموا، ويسرف قوم آخرون في سعادة كان يمكن أن ينعموا بها في شيء من التوسُّط والقصد والاعتدال.

وفي الكتاب كآبة هادئة تصحبه كما يصحبه الحرمان، ليست كآبة يأس وسخط وثورة، وإنما هي كآبة رضى بالقضاء، وإذعان للخطوب، وانتظار لما يمكن أن يأتي بما يُخرِج هذه الربوة من هذا النسيان الذي يغمرها، ومن هذا الإهمال الذي يعرِّضها لكثير من الخطوب، ولعل الزمان أن يتيح لهم حياة يشاركون فيها مؤثرين لا متأثرين فحسب، وعاملين منتجين لا مذعنين خاضعين لما يلمُّ بهم من الصروف.

ما أشد إعجابي بهذا الكتاب الذي لا أنكر من أمره شيئًا إلا أنه لم يُكتَب بالعربية! وكان خليقًا أن يُكتَب بها، ولكن هذا عيب لا يُؤخَذ به الكاتب، وإنما يُؤخَذ به الاستعمار، وما أكثر ما يُؤخَذ به الاستعمار من العيوب والذنوب!

القَرْيَة الظالِمَة

فلسفة وأدب ... للدكتور محمد كامل حسين

وأخيرًا أتيح لنا كتاب نقرؤه بعقولنا في أناة ومهل، وفي تدبُّر وتفكُّر، وفي كثير من المراجعة وكثير من الوقوف عند هذا الفصل أو ذاك من فصوله، لا نمر به مرَّ السحاب، ولا تلتهمه الأبصار والآذان في أقصر وقت ممكن، ولا تكرُّه الألسنة كرًّا.

أتيح لنا كتاب لا نقرؤه لقطع الوقت، ولا نقرؤه لندعو بقراءته النوم حين يمتنع علينا، وإنما نقرؤه لنفهم عن كاتبه ما أراد أن يسوق إلينا من حديث، ولنرى بعد ذلك أنقبل حديثه أم نزورُّ عنه؟ أَنُقبِل على معانيه إقبال المشوق الوامق، أم ننفر نفورًا شديدًا؟ كتاب لم يُرِحْ كاتبَه ولن يريح قارئه، وأكبر الظن أن كاتبه قد أهدى إلينا فيه خلاصة حياته وصفوة تجاربه، ونتيجة جهوده المتصلة التي أنفقها دارسًا للطب والجراحة، معالجًا للمرضى، مبتليًا أخبار الناس وأسرارهم، ممتحنًا ما يكون من سيرتهم أفرادًا وجماعات، وما يكون من تجاوب بين هؤلاء الأفراد والجماعات حين يعرف بعضهم بعضًا، وحين ينكسر بعضهم بعضًا، وحين يمكر بعضهم ببعض، وحين يسعى بعضهم إلى بعض بالخير والمعروف.

وأهدى إلينا فيه كذلك خلاصة حياته قارئًا هذه القراءة المتصلة التي يستريح إليها إذا فرغ من طبه ومرضاه، ومن اتصاله بالناس، سعيدًا بهذا الاتصال حينًا، وشقيًّا به أحيانًا.

فصاحب هذا الكتاب من أشد الناس حبًّا للقراءة، وأعظمهم بها كلفًا، وأكثرهم عليها إقبالًا. لا يكاد يستريح من جهده إلا إليها، ولا يكاد يفرغ من العمل والناس

إلا لها، وقراءته متنوعة أشد التنوع، فهو يقرأ في الطب والجراحة كما تفرض عليه صناعته، ويقرأ في العلم والفلسفة كما يفرض عليه عقله وطبيعته، ويقرأ في الأدب القديم والحديث، العربي والأجنبي، كما يفرض عليه مزاجه، وهو لا يقرأ بقلبه وحده، ولا يقرأ بعقله وحده، وإنما يقرأ بهما جميعًا. وأبغض شيء إليه هذه القراءة السريعة اليسيرة التي يغرق الناس فيها من حوله إلى أذقانهم، أو إلى آذانهم في هذه الأيام. ثم هو لا يفرغ من قراءة إلا ليستبقي منها شيئًا يدَّخِره في زاوية من زوايا نفسه قبل أن يأخذ في قراءة أخرى.

كذلك عرفته منذ زمن طويل جدًّا، ولذلك ألفته وأحببته منذ عرفته، ولذلك اطمأننت إلى حديثه وشغفت بمجلسه؛ لأن حديثه صورة لعقله، وصورة لقلبه أيضًا، وخير حديث الناس ما أنبأ عن العقول والقلوب، ولا سيما حين تكون العقول ناضجةً والقلوب حيةً دائمًا يقظة دائمًا؛ ومن أجل ذلك لم أكد أتلقَّى كتابه هذا حتى انصرفت عن كل شيء، وأقبلت عليه من دون كل شيء، فلم أَدَعْه حتى فرغت من قراءته الآن، وما أرى إلا أني سأعود إلى قراءته مرة أخرى.

وما أرى إلا أني سأعود إلى بعض فصوله بين حين وحين بعد هذه القراءة الثانية، فقراءته لا تمل كما أن حديثه لا يمل.

وأريد بعد ذلك أن أشخِّص هذا الكتاب لا أن ألخِّصه؛ فتلخيصه عسير أعظم العسر، يوشك أن لا يكون إليه سبيل، وكل فصل من فصوله محتاج إلى مقال خاص يناقش ما جاء فيه من الخواطر والآراء. وأنا بعدُ لا أريد إلا أن أدل القارئ عليه وأدعوه إلى قراءته إن كان من الذين يألفون الصبر على الفلسفة الحية، والغوص في أعماق الحياة الاجتماعية والفردية في هذه الأيام التي إن امتازت بشيء فإنما تمتاز باختلاط القيم فيها، وقصور الناس عن أن يفقهوا حقائقها، ويتعمقوا أسرارها؛ لأنها تعجلهم عن ذلك وتصرفهم عنه صرفًا. والكتاب في ظاهره قصة أو قصص كثيرة تدور حول موضوع بعينه يجعل منها وحدة واضحة لا اختلاف فيها ولا اضطراب. وقد حُدِّد زمان هذه القصص وحُدِّد مكانها أيضًا، فأما الزمان فقصير جدًّا لا يكاد يتجاوز يومًا وليلة، وهو الوقت الذي امتحن فيه المسيح حين تألب عليه بنو إسرائيل وأرادوا به الكيد. وأما المكان فهو أورشليم، وربما تجاوز هذه المدينة إلى هذه الناحية أو تلك من نواحي فلسطين.

وشخص المسيح فيها لا يُرَى ولا يُسمَع، وإنما هو موضوع الحديث فيها كلها نسمع عنه، وتُنقَل إلينا عنه الأحاديث، ولكننا لا نراه ولا نحس شخصه، وهو مع ذلك

ماثل في قلوبنا وعقولنا لا يبرحها منذ نبدأ في قراءة الكتاب إلى أن نفرغ منها. ومع ذلك فهذا الزمان الذي حُدِّد بيوم واحد ممتد إلى غير مدى، وهذا المكان الذي حُدِّد بمدينة واحدة ممتد يسع الأرض كلها في جميع عصورها، وفي جميع أطوارها منذ عاش فيها الناس.

وأشخاص القصص محدودون أيضًا، فأكثرهم من بني إسرائيل يضاف إليهم نفر من الرومان، ورجل واحد أثيني، ورجل آخَر لا نعرف من أين هو، وإنما تحدِّثنا الأنباء بأنه جاء من أقصى الأرض مع آخرين يهديهم النجم ليحيُّوا المسيح بعد مولده.

ولكن أشخاص القصة على ذلك لا يُحصَون، وليس إلى إحصائهم سبيل لأنهم الناس جميعًا في كل زمان ومكان. فحديث المسيح في هذا الكتاب ليس إلا رمزًا لحديث الناس في كل عصر وفي كل بيئة حين تعرض لهم الأحداث، وحين تلم بهم الخطوب، وحين تمتحن عقولهم وقلوبهم وضمائرهم. وتستطيع أن تقول إن موضوع الكتاب في حقيقة الأمر، إنما هو هذا الصراع المتصل بين القوى الثلاث التي تأتلف منها حياة الإنسان، وهي: قوة الحياة الغريزية، وقوة العقل، وقوة الضمير. فليس في حياة الناس شيء خطير أو ضئيل إلا وهو مردود إلى الصراع بين هذه القوى التي ليس منها كلها بدٌّ ليكون الإنسان إنسانًا.

ولكني لا أحب لك أن تخدع نفسك وأن تُقبِل على الكتاب على أنه قصة أو طائفة من القصص، فلن يلبث هذا الخداع أن يزول لمجرد النظر فيه؛ فالقصص في هذا الكتاب وسيلة لا غاية، وقد اكتفى الكاتب من هذه الوسيلة بأيسرها وأهونها ليقدِّم إليك الأشخاص الذين يحاور بعضهم بعضًا بين يديك في هذا الموضوع أو ذاك من موضوعات الحياة الإنسانية. بالضبط كما يفعل أفلاطون حين يقدِّم لك أشخاص كُتُبه الذين يحاور بعضهم بعضًا، أو الذين يحاورهم سقراط، ولا يريد أفلاطون أن يقص عليك قصة، وإنما يريد أن يحضرك مجلسًا من مجالس الحوار، والحوار عنده ليس غاية، وإنما هو وسيلة إلى فن من فنون الفلسفة السياسية، أو الطبيعية، أو الخلقية، أو ما شئتَ من موضوعات الفلسفة.

وكذلك يعمد كاتبنا إلى القصص والحوار ليخوض بك فيما شاء الله أن يخوض فيه من فلسفة الحياة الإنسانية حين يلقى الناس بعضهم بعضًا، وحين يخلو أحدهم إلى نفسه فيما يعرض له من الأمر، وما يلم به من الخطب، وما يثور أمامه من المشكلات.

فهذا الفتى الوسيم ذو المكانة الرقيقة والثراء العظيم، لا ينبغي أن يخدعك عن نفسه حين يتحدث إلى زوجه الشابة الجميلة التي ملكت عليه قلبه، والتي أحبَّتْه أشد

الحب وكلفت به أعظم الكلف، وحين يتحدث إليها في يوم عيدها. فالكاتب لا يعنى من أمر هذا الفتى ولا من أمر زوجه بشيء، بل هو لا يعنى بحبهما نفسه، وإنما يريد أن يصوِّر لك أن خطبًا عظيمًا ألمَّ ببني إسرائيل، وأنهم يحاكمون المسيح ويريدون أن يبطشوا به، وأن الفتى هو صاحب الاتهام، وهو مشغول بهذه القضية الضخمة لا يستطيع أن يفرغ لزوجه في يوم عيدها، وهي ضائقة بذلك، ثم كارهة له، ثم منصرفة عن زوجها وعن حبها وعن عيدها؛ لأنها قد شُغِلت عن هذا كله بالمسيح، وبهذا الظلم الذي يُصَبُّ عليه صبًّا. وزوجها نفسه لا يكاد يتركها محزونًا لما أصابها من الضيق حتى يُشغَل عنها وعن حبها وعن عيدها وعن حزنها؛ لأنه رأى ما أفسد عليه تحمسه في مخاصمة المسيح، وفي دعاء بني إسرائيل إلى أن يصبُّوا عليه الظلم صبًّا.

وهذه الفتاة الأخرى المجدلية التي أفسدت الكبرياء عليها وعلى أهلها وقريتها أمرهم كله، حتى كان منهم القتلى، وحتى عظم بينهم الشر، وحتى اضطرت إلى أن تفارق قريتها وإلى أن تقارف الإثم. هذه الفتاة في نفسها ليست إلا وسيلة إلى شيء آخَر، هو تصوير الظلم الذي يراد بالمسيح، وتصوير ما يثيره هذا الظلم في بعض النفوس من إيقاظ الضمير، وتطهير الناس من آثام الحياة ونقائصها ومن غرورها وباطلها، حتى يندفعوا إلى الإيمان اندفاعًا يرفعهم إلى منازل القديسين.

وقُلْ مثل ذلك بالقياس إلى جميع الأشخاص الذين تلقاهم في هذا الكتاب، ليسوا جميعًا إلا وسائل لما يريد الكاتب أن يسوق إليك من أحاديثه في فلسفة الحياة الفردية والاجتماعية.

وأكاد أعتقد أن كاتبنا لم يُرِدْ أن يصوِّر قصة المسيح، ولا ظلم بني إسرائيل له ليصل إلى غاية من هذه الغايات الدينية التي يقصد إليها الكاتبون حين يعرضون لهذه القصة، أو ما يشبهها من القصص، وإنما أراد إلى غاية أخرى كان يمكنه أن يصل إليها بتصوير أي شخص آخَر مخلص صادق يريد الخير للناس فصُبَّ عليه الشر، ودُبِّر له الكيد من الذين أراد إصلاحهم. ولو عرض كاتبنا لقصة سقراط مثلًا لاستطاع أن يتخذها وسيلة إلى ما أراد، لولا أنه صدر في حديثه بعض المعجزات، وأن سقراط لم يصنع معجزة، أو شيئًا يشبه المعجزة كما يفهمها الذين يتحدثون في شئون الدين.

وما أريد أن أدخل في هذا الحوار السخيف الذي يحب الناس أن يخوضوا فيه في هذه الأيام حول طبيعة هذا الكتاب: أقصةٌ هو لأنه يحدثنا عن أشخاص، وعن أحداث عرضت لهم وخطوب ألمَّتْ بهم في زمانٍ بعينه ومكان بعينه؟ أم هو شيء آخَر غير القصة

لأنه لم يستوفِ الشروط التي يشترطها المتكلفون من النقاد لهذا الفن؟ بل أنا لا أريد أن أخوض في حوار آخَر حول هذا الكتاب: أأدب هو بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، أم فلسفة؟ وإلى أي لون من ألوان الفلسفة يمكن أن يضاف؟

كل هذا كلام لا يعنيك ولا يعنيني؛ لأنه لا يغني عنك ولا عني شيئًا، وإنما الشيء الذي يعنيك ويعنيني، هو أن الكتاب ممتع بأوسع معاني هذه الكلمة وأدقها وأصدقها.

ممتع بموضوعه وممتع بما يثار فيه من مشكلات الحياة الإنسانية، ومن وجوه الصراع بين العقل والضمير وبين الحياة العملية التي تملؤها التجارب وتفعمها الخطوب، وبين الدين الذي يدعو إلى الطهر والنقاء، وإلى الدعة والسلم والعافية بين الناس، وإلى الخير الشامل الذي لا يشوبه الشر من أي وجه من وجوهه.

وممتع بعد ذلك بلفظه العذب وأسلوبه السمح، وصرامته التي لا تحول بينه وبين اليسر، ووضوحه الذي لا يهبط به إلى ما نألف في هذه الأيام من هذا الوضوح البغيض الذي يزهد في القراءة ويصد عنها، كأنه يتجه إلى آذان القارئين وأبصارهم وألسنتهم دون أن يتجه إلى عقولهم وقلوبهم، أو كأن الكتاب حين يكتبونه يضعون قرَّاءهم في منزلة من الغباء والسذاجة، لا يستطيعون معها أن يفقهوا أو يذوقوا إلا إذا جليت لهم الأشياء تجلية لا يحتاجون معها إلى جهد أو عناء.

والكتاب على يسره ووضوحه وصفائه لا سبيل إلى قراءته إلا بالعقل كما ذكرت في أول هذا الحديث؛ لأنه موجَّه إلى العقل وحده، وإلى العقل الذي يفلسف الأشياء ويتعمقها، ولا يطمئن إلَّا إلى ما يفهم حق الفهم، ولا يكتفي بالجمل الغامضة ولا بالعبارات المبهمة التي يشيع فيها اللبس.

وليس في الكتاب فصل إلا وأنت تقرؤه فتجد فيه ما يلذك ويمتعك، ويدعوك إلى التفكير الطويل ويثيرك في أكثر الأحيان إلى الجدل والخصومة، وربما وقفك من الكاتب موقف المخالِف له والمنكِر لما يقول في هذه المشكلة أو تلك، ولكنك تخالف الكاتب خلاف المحب له، المستأنس إليه، الذي لا يعنف بك فيما يهدي إليك من رأي، فلا يتعرض لأَنْ تعنف به فيما يهدي إليه من رد عليه.

وفي الكتاب بعد هذا كله — أو مع هذا كله — آراء تفجأ قرَّاءنا في هذه الأيام، وتقفهم موقف الحيرة وتخرجهم عن أطوارهم أحيانًا، ولكنهم حين يفكِّرون في أناة ومهل يثوبون إلى الكاتب راضين عنه مرة، ومخالفين له في ابتسام رفيق مرة أخرى.

انظر إليه حين يحاول أن يلقي في روعك أن الضمير خاصة من خصائص الفرد، يأمره بالخير وينهاه عن الشر ويصده عن الظلم والأذى، وأن الجماعة لا ضمير لها؛ فهي

مدفوعة إلى ما تدفع إليه في غير روية ولا تدبُّر ولا شعور بعواقب ما تأتي من الأمر أو تدع، كأن كل فرد من أفرادها ينسى ضميره حين يلقى نظراءه، وكأن شيئًا آخَر غير ما رُكب في الأفراد المجتمعين من مَلَكة العقل والضمير هو الذي يسيِّرهم ويسيطر عليهم في كل ما يُقدِمون عليه.

أحقٌّ هذا؟ أم الحقُّ شيء آخَر هو أن للجماعات — كما يقول بعض الاجتماعيين — ضميرًا اجتماعيًّا له طبيعة أخرى غير طبيعة الضمير الفردي، بل للجماعة نفس أخرى غير نفس الفرد. ولأمر ما حاوَلَ علماء النفس أن يضعوا علمًا خاصًّا لسيكولوجية الجماعات، هو الذي يسمونه علم النفس الاجتماعي؟ أم الحق هو أن ضمير الفرد يخرج عن طوره في الجماعة، وينتقل منه إلى طور آخَر ويتشكل بشكل آخَر يفرضه وجوده مع نظرائه؟ فالفرد من غير شك ينسى أكثر فرديته حين يختلط بأمثاله، ولا يستبقي من هذه الشخصية إلا أقلها وأيسرها وأعجزها عن المقاومة. قُلْ ما شئتَ، ولكن الذي ليس فيه شك هو أن الجماعة ليست مجردة من الضمير، وإنما هي مجردة من الضمير الفردي تتأثر بضمير آخَر مشترك يقدِّر الخير والشر، والخطأ والصواب على نحوٍ يخالف النحو الذي يقدِّر به الضمير الاجتماعي هذه الأشياء.

وأنت تستطيع أن تقبل من الكاتب رأيه في أن الضمير مقصور على الفرد، وأن الجماعة لا ضمير لها، أو أن تجادله فيه، ولكن الشيء المحقَّق هو أن خلافك معه لن يتجاوز الرفق الباسم.

وانظر إليه حين يجري على لسان بعض بني إسرائيل هذه النظرية الرائعة المريحة التي تضحك أكثر مما تقنع، وتصور مذاهب بعض الفقهاء في الحيل، وهي أن الإثم الذي تقترفه الجماعة لا عقاب عليه لأنه موزَّع بين أفرادها، أو لأن تبعته شائعة لا سبيل إلى أن يُلزَم بها فرد دون فرد، فهي أجدر أن تسقط ويُلغَى حسابها، وكذلك تستطيع الجماعة أن تقترف كبائر الإثم دون أن يتعرض فرد من أفرادها لعقاب أو حساب.

ونظرية أخرى ليست أقل من هذه النظرية إثارةً للعجب المبتسم، يجريها الكاتب أو يديرها الكاتب في نفس الحبر الأكبر لليهود، فهو ينكر سخط المسيح على الفريسيين وما يصطنعون من النفاق والرياء في الدين، ويرى أن الرياء في الدين ينفع ولا يضر، ينفع الجماعات لأنه قد يدعوها إلى الإيمان، وقد يغريها بالخير. ولا على الجماعات التي ترى مظاهر هذا الدين الذي يتكلفه أصحابه رئاء الناس أن يكون هؤلاء المتكلفون مخلصين أو منافقين، فإن حسابهم على ذلك إلى الله، إن يشأ يعذبهم أو يتوب عليهم.

وواضحٌ ما في هذه النظرية من الخطر؛ لأنها تغري كل الناس بأن يتخذوا النفاق وسيلةً إلى الإصلاح، ومَن يدري! عسى أن يتاح لهذا النفاق أن يبلغ من الإصلاح في نفوس كثير أو قليل من الناس ما يريد أصحابه، وأن يشفع لهم ذلك عند الله فيغفر لهم نفاقهم لأنهم أصلحوا به نفوس الناس وإن أفسدوا به ذات نفوسهم. وكذلك يصبح المبدأ المشهور: «الغاية تبرر الوسيلة» سائغًا في الدين نفسه. ولست أدري: أَدارت هذه الفكرة في رأس الحبر الأعظم لليهود حقًّا؟ أم أدارها الكاتب في رأسه ذاك؟ فكل الشخصية التي صوَّرها الكاتب لهذا الحبر الأعظم غريبة حقًّا؛ فهو لم يكن مطمئنًا إلى اتهام المسيح، ولا إلى ما يراد أن يُصَبَّ عليه من الظلم، وإنما كان ضميره مضطربًا أشد الاضطراب، يُقدِم على هذا الإثم العظيم غير مقتنع به، وإنما هو مضطر إليه اضطرارًا؛ لأن جماعات الشعب تريد اقترافه، وليس لجماعات الشعب كما رأينا آنفًا ضمير يحاسبها أو تحاسبه، وهذا الاضطراب في الحكم ليس مقصورًا على الحبر الأعظم، ولكنه يوشك أن يكون شائعًا بين أحبار بني إسرائيل جميعًا؛ فمفتي بني إسرائيل غير مقتنع بهذا الظلم ولا راضٍ عنه، وكثير من أحبارهم يُقدِم كارهًا على هذا الإثم لأن الشعب يريده، وما ينبغي لقادة الشعب أن يخالفوا عن إرادته، فيضطرهم ذلك إلى التضحية بمكانهم من قيادته والتسلُّط عليه.

وكذلك يُكرَه الأحبار على التورُّط في هذا الظلم، والشعب هو الذي يُكرِههم عليه. ولست أدري إلى أي حد نستطيع أن نطمئن إلى هذه الصورة التي يعرضها الكاتب للصلة بين أحبار بني إسرائيل وبين الشعب؟ فالذي نعرفه مما وصل إلينا من الروايات والأنباء، أن الخصومة إنما كانت بين المسيح وبين الأحبار أكثر مما كانت بينه وبين عامة الشعب، وأن الأحبار هم الذين ضلَّلوا الشعب وحبَّبوا إليه هذا الإثم وزيَّنوه في قلوبهم؛ لأن المسيح كان خليقًا أن يضيع عليهم منزلتهم وسلطانهم وتأثيرهم في النفوس، وأن يصرف عنهم الشعب بما كان يذيع من التعاليم اليسيرة السهلة القريبة من نفوس الناس والملائمة لسذاجتهم، ولأنه كان يغيِّر كثيرًا من القوانين التي كان الأحبار والعلماء يعيشون عليها. ولكن كاتبنا موكل بالجماعات يلقي عليها أعظم التبعات لأنها غافلة لا ضمير لها، وهو مكبر لضمير الفرد مُعظِّمٌ لسلطانه على أصحابه، حريص إنْ استطاع على أن يُبرِئه من كل شائبة ويعصمه من التورط في الإثم، وهو من أجل ذلك يعطينا من أشخاص هؤلاء العلماء من بني إسرائيل صورًا أقل ما تُوصَف به أنها تلائم مذهب الكاتب في الضمير الفردي والاجتماعي، أكثر مما تلائم الحقائق الواقعة التي نشهدها في كل يوم، وأكثر مما

تلائم ما نقلت إلينا الأنباء والروايات من سيرة هؤلاء الأحبار مع المسيح ومع مَن جاء قبله من الأنبياء.

وكاتبنا ظالم للجماعات يحمل عليها من التبعات أكثر مما ينبغي أن تحمل، والذي نعلمه أن القادة والسادة هم الذين يضلِّلون الجماعات، ويورِّطونها في الخطأ، ويدفعونها إلى كثير من الآثام. وإذا لم يكن بد من إكبار هذا الضمير الفردي وإعظامه، فلا أقل من أن نحمِّله تبعاته ونسأله عمَّا يدفع إليه الفرد والجماعات من الشر العظيم في كثير من الأحيان.

وللكاتب آراء أخرى ليست أقل خطرًا وإثارةً للمناقشة والجدل من هذه الآراء، وكثير من آرائه جديدة بالقياس إلى جماعات من قرَّائنا، وإنْ كانت في نفسها مألوفة شائعة في جماعات العالم الغربي الحديث، وهي قديمة مع ذلك قدم الدين نفسه. فرأي الكاتب في الوطنية — مثلًا — جديد بالنسبة إلى كثير من قرَّائنا العرب، مألوف بالنسبة إلى المثقفين منهم وإلى جماعات ضخمة من العالم الحديث في الغرب.

فالوطنية بدع من البدع دُفِعت إليه الأمم في طور من أطوار حياتها الحديثة، فأغراها بكثير من الشر، ودفعها إلى كثير من الخير أيضًا. وفكرة الإنسانية أعم وأشمل وأصدق وأقرب من الحق إلى فكرة الوطنية، والمسيحية والإسلام يتجهان إلى الناس كافة، ويرونهم إخوة مهما تختلف أوطانهم، ومهما تختلف بيئاتهم ومنازلهم، وهما يدعوان الناس جميعًا إلى الخير والحب والمودة، والتعاون على البر والتقوى والمعروف، لا يفرقان بين وطن ووطن، ولا بين شعب وشعب، ولا بين طبقة وطبقة، وإنما المنافع والمطامع هي التي أنشأت الوطنية، وهي التي أنشأت الطبقات، وهي التي أثارت ما يثار بين الأوطان والطبقات من الحروب وألوان الخصومات. كل هذا مألوف يكثر من الخوض فيه الفلاسفة والمثقفون وفقهاء الدين منذ العصور القديمة، ولكنه جديد بالقياس إلى الأجيال التي نشأت على فكرة الوطنية، ولم تتعمق ثقافةً ولا فلسفةً ولا فقهًا، لا فرق في ذلك بين أجيال الشرقيين والغربيين. وإنكار الحرب كذلك مألوف منذ أقدم العصور، يكلف الفلاسفة والمصلحون بالخوض فيه، ويخوض فيه الساسة فيسرفون، يخلص أولئك ويتكلف هؤلاء، وأولئك يعجزون عن أن يبغضوا الحرب إلى الناس، وهؤلاء ينجحون في إقناع الناس بأن الحرب شر لا بدَّ منه.

وكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الكاتب يثير أمام قارئه ضروبًا كثيرة من المشكلات الفردية والاجتماعية، التي تدعو إلى التأمُّل والتدبُّر وتعمُّق التفكير، وتُخرِج

القارئ وقتًا ما من هذه الحياة الفاترة المطردة المملة التي نحياها في هذا العصر الحديث، وتشعره بأن له عقلًا حيًّا يستطيع أن يفكِّر وأن يتدبر، وأن يقول بعد التفكير والتدبُّر وإطالة الروية: نعم أو لا. وليس هذا بالشيء القليل.

وأنا بعد هذا كله أخشى أن أكون ظالمًا للكاتب مسرفًا عليه حين زعمت أن كتابه ليس قصة، وليس فيه شيء من القصص، وأن هذه الصورة القصصية إنما هي وسيلة عمد إليها ليسوق إلينا آراءه هذه المختلفة المثيرة في كثير من الأحيان، فقد يكون رأيه هذا صحيحًا بالقياس إلى أكثر الكتاب، ولكن في الكتاب قصة متقنة رائعة حقًّا يمكن أن تستقل بنفسها، وأن تقف على قدميها إن صح أن تقف القصة على أقدامها، وما أرى إلا أن الكاتب قد دُفِع إليها عن غير تكلُّف منه لها، فوُفِّق إلى الإتقان حقًّا، وهي قصة المجدلية وصاحبها الفتى الروماني، فهذه الفتاة التي عرفت من شأنها ما عرفت آنفًا، والتي آمنت بالمسيح بعد أن تورطت في الإثم العظيم، وانتهى أمرها إلى أعمق الإيمان وأقواه، قد عرفت فيمَن عرفت أثناء مقارفتها للإثم جنديًّا رومانيًّا أحبَّها وأحبَّتْه، فلما أقبلَتْ على دينها الجديد تبعتها نفس الفتى، فما زال يبحث عنها حتى اهتدى إليها في بيئتها الجديدة المؤمنة، ثم سعى إليها فأحسنت لقاءه، وما أسرع ما هدته إلى الدين الذي اهتدت إليه! وما أسرع ما استحال حبهما ذاك الذي كان يشوبه الإثم إلى إخاء صادق رفيع في الدين!

وهذا الفتى تعرض له بعد ذلك خطوب يصوِّرها الكاتب تصويرًا رائعًا حقًّا، فإيمانه بالدين الجديد يبغض إليه الحرب ويلغي من نفسه فكرة العداء للناس، ويعطف قلبه على أعداء روما، فيحسن إليهم ويبرهم أثناء الحرب، وينشأ عن هذا الإحسان والبر انهزام روما، ويُرفَع أمره إلى القائد فيحاكمه في نفس اليوم الذي حُوكِم فيه المسيح، ويدافع الجندي عن نفسه دفاعًا رائعًا فيه شجاعة لا عهد للناس بها، وفيه ارتفاع إلى منزلة من الصفاء والنقاء والطهر لم يألفها الرومان. ويقضي الموت على هذا الفتى، ولكنه موت منكر بشع يضطرب له عقل القاضي القائد بعد أن يراه، كما اضطربت نفس الحاكم الروماني للقضاء على المسيح.

وكذلك يتدرج الإنسان من الإثم البشع إلى الإيمان الصادق، ثم إلى أرفع منازل الشهداء والصدِّيقين في ثبات وثقة وإيثار لا تألفها إلَّا قلوب المؤمنين حقًّا، وإنْ كنتُ أسأل نفسي: أَلَا يمكن أن يكون الكاتب قد انحرف قليلًا عمَّا نعرف من نُظُم الرومان الذين لم يكونوا يقضون بمثل هذا الموت المخزي على المذنبين من أبناء روما، وإنما كانوا

يضربون أعناقهم ويحتفظون بالموت المنكر لغير الرومانيين من العدو والرعايا والرقيق؟ وقد أطلت ولكني لم ألَخِّص الكتاب لأني لم أُرِدْ تلخيصه، ولم أشخِّصه كما كنتُ أريد؛ لأنه أوسع وأدق وأكثر تشعُّبًا من أن يُشخَّص في حديث مثل هذا الحديث. وإذا لم يكن بدٌّ من أن أعطي عن هذا الكتاب فكرة جامعة إلى حدٍّ ما، فقد أستطيع أن أقول غير مسرف: إنه كتاب يصوِّر طموحًا رائعًا كأروع ما يكون الطموح إلى المثل الأعلى في حياة الأفراد والجماعات، إلى هذا المثل الأعلى الذي يعتدل فيه المزاج بين القوة الحيوية التي تدفع إلى النشاط والعمل، والقوة العاقلة التي تهدي إلى المعرفة والعلم، وقوة الضمير التي تدفع إلى الخير وتردع عن الشر. والمثل الأعلى كما تعلمون شيء نطمح إليه، ولكننا لا نبلغه لأنه بطبعه لا يُنال، فالذين لا يكتفون بالسعي إليه ويأبون إلا أن يبلغوه، إنما يطمعون في غير مطمع وقد يضطرهم ذلك إلى الشك، وأخشى أن يكون هذا الشك هو الذي دفع إليه الكاتب بطموحه هذا الغالي إلى المثل الأعلى، وما أجدر الذين يريدون كل شيء بألَّا يبلغوا شيئًا!

كم أحب أن يقرأ شبابنا هذا الكتاب ليشعروا أن الحياة ليست يُسْرًا كلها، وليست لعبًا كلها، وبأن فيها كثيرًا من الجد الذي ينبغي لهم أن يفكروا فيه وأن يتعمقوه.

الصِّراع

أريد أن أمسَّ في هذا الحديث من بعدُ كتابًا رائعًا إلى أقصى غايات الروعة للكاتب الفرنسي النابه: جان جيونو.

وهو لا يُعرَف بهذا العنوان، وإنما عنوانه الدقيق «الفارس فوق السقوف» Les Hussards sur les toits.

وهو عنوان غريب كما ترى، ولكنه يصوِّر حقيقة من الحقائق الرائعة التي عرضها المؤلف في كتابه؛ فبطل القصة فارس إيطالي لم يبلغ الثلاثين بعدُ، وقد بلغ مرتبة الكولونيل في جيش من جيوش الثورة التي جاهدت في استخلاص شمال إيطاليا من احتلال النمسا في النصف الأول من القرن الماضي.

وهو قد فارق وطنه فارًّا إلى فرنسا؛ إشفاقًا من العتاب على خطأ تورَّط فيه وتعرَّض للسجن والمحاكمة، فآثَر الفرار المؤقت محتفظًا بنفسه لاستئناف الجهاد في سبيل تحرير وطنه …

ولكنه يبلغ فرنسا في ذلك العام المنكر الذي اجتاحها فيه وباء الكوليرا الخطير، الذي وقع سنة ١٨٣٨ وأذاق الفرنسيين في الجنوب أهوالًا مروعة حقًّا.

والكاتب يصور لنا ما كان من صراع هذا الفتى للموت الذي تعرَّض له مرات لا تُحصَى أثناء إقامته في جنوب فرنسا، وهذه المحاولات التي لا تُحصَى للفرار من هذا الوباء، فهو قد فرَّ من وطنه ليتجنب المحاكمة والسجن، فأصاب في منفاه الاختياري ما هو أشد خطرًا وأروع روعًا من السجن ومن العقاب الذي كان يتعرَّض له لو أقام في وطنه. في ذلك الوقت لم يكن العلم قد استكشف ما يُعرَف الآن من ضروب العلاج لهذا الوباء، ولم تكن النُّظُم الصحية الفردية والاجتماعية قد بلغت ما بلغته من الدقة والتقدم في هذه الأيام؛ فكان الوباء إذن منكرًا مروعًا ساحقًا ماحقًا بأدق معاني هذه الكلمات

وأوسعها وأبعدها مدًى، وكان كل ما استطاعته الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت، هو عزل المصابين والاحتياط لمحاصرة المدن والقرى الموبوءة حتى لا يطرأ عليها الأصحاء، ولمحاصرة المدن والقرى التي لم يبلغها الوباء حتى لا يلم بها الموبوءون فيحملوا إليها الوباء. وفي ذلك الوقت لم تكن وسائل المواصلات قد نظمت على هذا النحو المعروف من اليسر، وإنما كان الناس ينتقلون من مكان إلى مكان على ظهور الدواب، أو في تلك العربات التي كانت تجرها الدواب، ولم يكن الطب الوقائي قد تجاوز أيسر ما كان الناس يعرفونه من تلك المحاولات الساذجة لوقاية الأجسام مما كان يمكن أن تتعرَّض له من آفات.

فكان الوباء إذا ألمَّ بإقليم من الأقاليم حصد أهله حصدًا، وأذاقهم ألوانًا من الوبال والنكال والهول. وليس من اليسير أن أفصِّل لك هذه القصة الرائعة، ولا أن ألخِّصها تلخيصًا متقاربًا، وأنا لا أملي هذا الحديث لأحاول فيه شيئًا من ذلك، فهو غير يسير لأن التفصيلات في هذا الكتاب أكثر من أن تحصى، وأعسر من أن يحاول محاول تلخيصها فضلًا عن استقصائها. بل الغريب من أمر هذا الكتاب، هو أن مؤلفه قد نسي نفسه ونسي قارئه، ولم يذكر إلا فنَّه الخالص الذي غرق فيه إلى أذنيه، وأمعن في العناية به وفي تجويده وإتقانه، حتى إن أول أثر من آثار قراءته المباشرة إنما هو هذا الملل الذي يأخذ القارئ قبل أن يبلغ الخمسين من صفحاته، ويوشك أن يصرفه عن المضي في القراءة إذا لم يأخذ نفسه بالصبر والمطاولة، فإذا حمل القارئ نفسه على ما تكره، وأخذها بالمضيِّ في القراءة على كثرة ما يصدُّه عنها ويزهده فيها، لم يلبث أن ينسى نفسه وينسى صاحب الكتاب، وأن يفنى في الفن كما فني فيه الكاتبُ نفسُه، وإذا هو ملِحٌّ في القراءة ماضٍ فيها لا يلوي على شيء، لا يبلغ حدثًا مروعًا من الأحداث التي تعرض فيه حتى يشعر بالشوق الشديد إلى استقصائه، وإلى الانتقال إلى غيره من الأحداث الأخرى التي تليه. وما يزال كذلك متنقلًا من حدث مروع إلى حدث آخَر أشد منه ترويعًا، حتى يألف الروع والهول ولا يعدل بهما شيئًا، وأغرب ما في هذا الكتاب أنه يخدع القارئ عن نفسه حتى يوشك أن يحبِّب إليه هذه الأهوال التي لا تُحتمَل ولا تُطاق، وإذا هو يبلغ آخِر الكتاب فيشعر بشيء من الأسف غير قليل لأنه قد فرغ من القراءة، وفارق هذه الأهوال الشداد، وهو محتاج بعد ذلك إلى وقت طويل، إلى قراءات مختلفة شديدة التنوع لينسى هذا الكتاب، ولا يضطر إلى لزوم التفكير فيه، والوقوف الطويل عند هذا الحديث أو ذاك من أحداثه الثقال.

والكتاب بعد هذا كله آيةٌ في تصوير خصلتين متناقضتين من خصال الحياة الإنسانية الاجتماعية، هما: خصلة التنافر، والتدابر من جهة أخرى.

فالناس متنافرون متدابرون في هذا الكتاب ما داموا أصحاء لم يبلغوا الوباء، كلٌّ منهم حريص أشد الحرص وأقواه على أن يفر بنفسه من الكارثة قبل أن تصيبه، فهو أَثِر إلى أبعد غايات الأثرة، لا يحب أن يرى غيره ولا أن يدنو منه غيره، ولا يحب أن يشاركه أحد من الناس في أي مرفق من مرافق الحياة، فهو فردي تنتهي به الفردية إلى غايتها، وهو مستوحش آبد كهذه الوحش الآبدة في أعماق الصحارى، وفي شِعاب الجبل وعلى قممها الشاهقة، فهو يعمد إلى سلاحه ليرد به عن نفسه كل إنسان يريد أن يقربه. وهذه الظاهرة الفردية تشيع في الأصحاء، وتستقر في نفوسهم، وتسيطر على عقولهم وجوارحهم حتى تصبح ظاهرة اجتماعية مزعجة حقًّا. فإذا ألمَّ الوباء بمدينة أو قرية ظهرت الخصلة الأخرى، خصلة التضامن والتعاون والتآلف والمشاركة في احتمال المكروه ومحاولة دفعه إن أتيح للناس أن يدفعوه، ومحاولة الصبر عليه وتجرُّع كأسه إلى ثمالتها إذا لم يكن من ذلك بدٌّ. ويمعن الكاتب في تصوير هاتين الخصلتين المتناقضتين حتى يظهر لك الإنسان شيطانًا ماردًا أحيانًا حين تملكه الأَثَرة، ومَلَكًا مطهرًا أحيانًا أخرى حين يسيطر عليه الإنسان؛ فيعطيك بذلك صورة كأوضح ما تكون الصور من هذا الإنسان الغريب، الذي يقسو حتى تبلغ به القسوة أقصى ما يستطيع أن تبلغ، ويرفق حتى يبلغ به الرفق مرتبة القدِّيسين الأبرار.

وفي هذا الكتاب ظواهر كثيرة كلها يحتاج أن نقف عنده فنطيل الوقوف، منها: ظاهرة المغامرة التي تستأثر ببعض الناس فتوجِّههم إلى الخير الخالص، حتى تنتهي بهم إلى البطولةِ، والمغامرةُ التي تستأثر ببعضهم الآخَر، فتدفعهم إلى الشر الخالص، حتى يصبحوا مَرَدة لا يقدرون شيئًا ولا يحفلون بشيء، ولا يقفون عند خُلُق أو دين، ولا يرجون لشيء أو لأحد وقارًا.

فهذا مغامر خير يريد أن ينجد الملهوف، وينقذ المكروب، ويسعف المحروب، ويعين المحتاجين إلى المعونة ويواسي الذين لا يملك لهم معونة ولا إنقاذًا، فيمضي في ذلك منغمسًا في الوباء إلى أذنيه لا يخاف الموت، ولا يحفل به ولا يحسب له حسابًا، وإنما يُسعِف وينقذ ويواسي ويعين حتى يدركه القضاء المحتوم، فيسقط صريعًا شهيدًا بين صرعى الوباء وشهدائه.

وهذا مغامر آخَر لا يفكِّر في الناس ولا في حاجتهم إلى المعونة والبر والإحسان، وإنما يفكر في نفسه وفي طموحه إلى الثروة والغنى والكسب من كل طريق، فهو لص

فاتك وهو مارد لا يحفل بالحق، ولا بالعدل، ولا بالقانون، ولا يحسب للسلطان حسابًا قد برئ قلبه من كل رحمة، وبرئت نفسه من عواطف الخير كلها، فهو ينعم بشقاء الأشقياء، ويسعد ببؤس البائسين، ويثري من فقر الفقراء، ويوشك أن يحيا من موت الذين يتخطَّفهم الموت، وربما اجتمعت الظاهرتان في شخص واحد، ولكن في شيء من الاعتدال والانسجام كما اجتمعتا في هذا الفتى الإيطالي الذي نراه مرة مواسيًا منقذًا ممعنًا في هذا كله غير حافل بالوباء، ولا حاسب لنتائجه أي حساب، وإنما ينغمس فيه مع تلك الراهبة الشيخة إلى قمة رأسه، فهو يُعِين المرضى الذين يسقطون في الطريق، يغسل عنهم آثار القيء والإسهال، وهو يغسل الموتى ويعين على نقلهم إلى حيث تُحرَق جثثهم، وهو ينسى نفسه في هذا كله نسيًا تامًّا. وتراه مرة أخرى مشفقًا من الوباء إلى أقصى آماد الإشفاق، حتى إنه ليلزم سقوف الدور يكره أن يخالط أهل المدينة الموبوئين، أو أن تكون بينه وبينهم صلة قريبة أو بعيدة، ويحتال أغرب الاحتيال في التماس أيسر ما يقيم الأود من الطعام والشراب يتبلَّغ بهما في هذه العزلة المخيفة. ونراه مرةً وقد أعياه التماس القوت وسُدَّت عليه طرق الحيلة، فأخذ يناجي نفسه بالسرقة لا ليكسب غنى أو ثراء ولكن ليقيم أوده، وإذا هو ينحدر متلصِّصًا مترفقًا إلى إحدى الدور في أعماق الليل لعله أن يصيب فيها قطعة من خبز أو شربة من ماء، وهو ينحدر وينحدر يظن أن أحدًا لا يشعر به، فإذا بلغ آخِر السلم الذي انحدر فيه، رأى نورًا يظهر فجأةً وفتاة لم تتقدم بها السن، رائعة الجمال، بارعة الحسن، تسأله: مَن هو؟ وماذا يريد؟

فيضطر إلى أن يجيبها بالحق، فتتلطف في شيء من الغلظة والاحتياط والتحفُّظ إنْ صحَّ هذا التعبير.

وتئويه إلى إحدى الحجرات وتقدِّم له بعض الطعام والشراب، وقد عرف أنها وحدها في هذه الدار الكبيرة، فينكر أمرها ويسألها أليست خائفة منه؟ فتُظهِر له سلاحها الذي تستطيع أن ترد به عن نفسها الغوائل، حتى إذا طعم وشرب عاد إلى سقفه الذي أوى إليه وترك هذه الفتاة آمنة موفورة، وفي نفسه ما فيها من الإعجاب بها والإكبار لها، وشيء آخَر أكثر من الإعجاب والإكبار.

ونراه مرةً ثالثة وقد احتال حتى سرق فرسًا واعتلى صهوته، ومضى به مصعدًا في الجبل متَّخذًا طريقه كما يستطيع؛ ليتَّقِي الوباء من جهةٍ وليبلغ الحدود ويعود سالمًا إلى وطنه ليستأنف جهاده في تحرير إيطاليا إن استطاع الإفلات من هذا الوباء.

وهو يمضي في طريقه متنكبًا كل قرية أو مدينة أو بيئة يكثر فيها الناس، لا يكاد يمضي أيامًا حتى يلقى فارسًا آخَر يمضي في نفس الطريق، وما هي إلا أن يبصرا بالجند

يحاصرون قرية أو مدينة، ويردُّون عنها الطارئين عليها فيفران ثم يتفارقان، وإذا هو يرى في هذا الفارس تلك الفتاة التي آوته وأطعمته وسقته منذ ليالٍ، غير خائفة منه ولا معنية بغير إسعافه، وهي قد فرَّتْ من دارها تريد أن تعود إلى قصرها ذلك البعيد في عِطف من أعطاف الجبل لم يبلغه الوباء، وقد أصبحا رفيقَيْ سفر يتعاونان على احتمال ما يعرض لهما من الأخطار. ومنذ ذلك الوقت تنشأ في القصة الرائعة قصة أخرى أشد روعةً، وهي قصة هذه المرافقة التي تخلص من جميع الشوائب، والتي ترتفع فيها المودة إلى أعلى درجة من الطهر والعفة والنقاء والإيثار، وما أكثر ما يلقى الرفيقان من المصاعب! وما أكثر ما يعترضهما من الخطوب! وما أكثر ما يلمُّ بهما من حلو التجارب ومرِّها، ومن جد الحياة الصارم وهزلها المر! فهما يتعرضان للجند ويتعرضان للصوص، ويُؤخَذان أسيرين إلى حيث يُلقَيان في معزل من هذه المعازل التي يُلقَى فيها الأصحاء حتى يتخطفهم الموت. وهما يفران من هذا المعزل بعد خطوب، ويخلصان آخِر الأمر حتى يوشكا أن يبلغا مأمنهما في ذلك القصر الذي تيممه تلك الفتاة، ولكنهما لا يكادان يشرفان من بُعْد على مأمنهما ذاك، حتى يلمُّ الوباء بالفتاة فيأخذها القيء وتسقط على الأرض مبهورة، وما أسرع ما ينحيها الفتى إلى أعماق الغابة من الغابات! وهنالك يقوم على تمريضها كما يستطيع نافيًا عنها الأذى، ملتمسًا لها الدفء، ساقيًا لها ما يستطيع أن يسقيها من دواء حتى يأخذه الإعياء آخِر الليل، فيغفو إغفاءة ثم يحس شيئًا فيفيق، وإذا الفتاة تلقي عليه معطفها تريد أن تقيه به من البرد. وقد برئت الفتاة وارتفعت بينهما الكلفة آخِر الأمر، فهي توجِّه إليه الحديث بلغة المخاطب الفرد، كما تتحدث الفتاة إلى أخيها أو زوجها. قد ألغى الوباء ما كان قد بقي بينهما من كلفة، ولكن حبهما ظل نقيًّا طاهرًا كما يكون الحب بين الأخوين.

وهو يُبلغ الفتاة مأمنها ويقيم في قصرها يومًا أو يومين ريثما يشتري جوادًا أصيلًا، ثم يستأنف السير إلى وطنه ليعود إلى الجهاد، وما يمنعه من ذلك وهو لا يكاد يطلع من وراء هذا الجبل حتى يرى أعلام إيطاليا.

وما أكثر ما أهملتُ من الظواهر الفنية في هذا الكتاب! ولكن ظاهرة واحدة لا أحب أن أهملها؛ لأن الكاتب قد صوَّرها أروع تصوير وأبرعه، وهي هذه التي تصوِّر لنا الطير ولا سيما جوارحها، وقد أَنِسَتْ إلى الموت واعتادت العكوف على هذه الجثث الكثيرة المتناثرة، كما يصوِّر لنا شعراؤنا القدماء عكوف الطير على جثث القتلى في ميادين الحرب بعد انتهاء المواقع. وربما استوحشت بعض الطير المستأنسة فعادت سباعًا تعيش على

لحم هذه الجثث الإنسانية، وهي قد ألفت ذلك حتى إنها ستدنو من الأحياء تظن أن الموت منهم قريب، وأن جثثهم ستصبح كلها مرتعًا بعد قليل، حتى خاف الإنسان من الطير وحتى استخفت الطير بالإنسان، فلم تشفق منه ولم تستوحش من قربه، وإنما اتخذته لنفسها مطمعًا.

وبعدُ، فهل صوَّر الكاتب هذا الصراع بين هذا الفتى وبين الوباء فحسب؟ أم هل تجاوزه من حيث يدري، أو من حيث لا يدري إلى تصوير صراع آخَر أقوى وأبقى من صراع الإنسان لوباء من الأوبئة، وهو تصوير الصراع الذي يكون بين كل إنسان وبين الموت، سواء كان وباءً أم لم يكن؟

فهل حياة الإنسان مقيمًا أو ظاعنًا، مطمئنًا أو قلقًا، موسرًا أو معسرًا، سعيدًا أو شقيًّا، إلا صراع بينه وبين الموت الذي يكمن له في كل حركة من حركاته، ومن حركات الأحياء والأشياء من حوله، وفي كل ثني من أثناء طريقه، وفي كل ما يعرض له من الخطوب ما دقَّ منها وما جلَّ؟ وأكبر الظن أن الكاتب لم يُرِد إلى هذا النحو من الفلسفة العليا، ولكن كتابه يوحي به إيحاءً. وهذا عندي أوضح دليل على أن الكتاب رائع حقًّا، وعلى أنه من أبرع الصور الفنية التي أنتجها الأدب الفرنسي المعاصر في هذه الأيام.

مِنْ أدَبنا الحَديث

بين أجيالنا الأدبية المعاصرة شيء من الجفوة طال عليه الزمان، وكثر فيه القول حينًا وكاد ينتهي إلى شيء من القطيعة بين الشباب والشيوخ من الأدباء.

يشكو الشباب من أن شيوخ الأدباء لا يحفلون بهم، ولا يلتفتون إليهم، ولا يمهدون لهم طرق النجح، ولا يعرفونهم إلى القرَّاء، كأنهم يؤثرون أنفسهم بما أتيح لهم من ارتفاع المنزلة وبُعْد الصوت. ويشكو الشيوخ من الشباب أنهم يُكبرون أنفسهم ويسرفون في الاعتداد بها، ولا يكادون يقدرون ما لقي الشيوخ من عناء، وما احتلوا من مشقة، وما ذللوا من عقاب.

وهذا الخلاف بين الأجيال طبيعي لا غرابة فيه، ولكنه يوشك في مصر أن يتجاوز الحد الذي ينبغي له؛ فهناك تضامن بين الأجيال يجب أن يرعى، وحقوق للأبناء على الآباء يجب أن تُؤدَّى، والآباء بطبعهم قد قطعوا أكثر الشوط فيجب أن يُعِينوا أبناءهم على أن يخلفوهم فيحسنوا خلافتهم، ويحققوا من الأمر ما لم يجدوا إلى تحقيقه سبيلًا.

وهناك حقوق للآباء على الأبناء يجب أن تُؤدَّى في شيء من البر والرفق والتلطُّف، وألَّا يحول الغرور والطموح دون تأديتها، والآباء معلمون والشباب متعلمون، ولا ينبغي أن تنقطع الصلة بين أولئك وهؤلاء.

وأريد أن أخصِّص طائفة من هذه الأحاديث لأدب الشباب الذين لم ينصفهم النقد ولم يعلمهم أيضًا، وقد شبع الشيوخ نقدًا وتعلُّمًا، وعلَّمَتْهم التجاربُ أكثر مما علَّمهم النقد، فليس كثيرًا أن ينفعوا أبناءهم ببعض ما انتفعوا به من التجارب والخطوب التي تعرضوا لها على اختلاف الليل والنهار، وتتابُع الأحداث والخطوب.

وبين يدي طائفة من الكتب كثيرة، ليس من الممكن أن أتحدَّث عنها في فصل واحد، ولا بد من أن أختار أحدها لأتحدَّث عنه اليوم.

فَلْيكن الحديث إذن عن هذه القصة الضخمة التي كتبها الأستاذ يوسف السباعي وسمَّاها «إني راحلة»، وهي قصة ممتعة حقًّا أخذت في قراءتها فلم أَدَعْها حتى أتممتها، ولم أفعل ذلك متكلفًا له أو صابرًا نفسي عليه، وإنما القصة هي التي اضطرتني إليه اضطرارًا، وحملتني على أن أفرغ لها وأترك ما بين يدي من عمل لم يكن تركه يسيرًا.

والأستاذ يوسف السباعي يحدِّثنا في مقدمة كتابه بأنه لم يألف كتابة القصة الطويلة حتى دعاه إلى ذلك المازني — رحمه الله — فأقبل عليه ذات صيف، ولم ينصرف عنه حتى أتم قصته هذه التي تتجاوز صفحاتها المئات الأربع، وأتمها في عشرين يومًا. ومعنى ذلك أن فنَّه واتاه، وأن خياله أمده، وأن لغته لم ترهقه من أمره عسرًا. وإذا كان هو قد كتب قصته في عشرين يومًا، فإني قرأتها في أربعة أيام لم أجد أثناء قراءتها سأمًا، أو شيئًا يشبه السأم، وإنما وجدتُ رغبةً وإقبالًا وحرصًا على أن أفرغ منها، بل على أن أنتهي إلى غايتها.

والقصة يسيرة من جهة وعسيرة من جهة أخرى؛ يسيرة لأنها تحدِّثنا عن أمر الحب بين فتيين، وما أكثر ما يتحدث الناس عن الحب، وعن الحب بين فتى وفتاة! ولكنه أثناء حديثه عن هذا الحب وقف في غير استطراد عند أشياء كثيرة صوَّرها فأحسن تصويرها، وعند أشياء أخرى حلَّلها فأجاد تحليلها. فتاة كانت تنظر إلى ابن خالتها في كثير من التجهم والإعراض أثناء الصبا، وكان يلقاها بمثل ذلك حتى شبَّ كلاهما، والتقيا ذات مساء، فوقع كلٌّ منهما في نفس صاحبه، وأكبر الظن أن هذا التجهم والإعراض لم يكن في حقيقة الأمر إلا مظهرًا لحب دفين كشف عن نفسه حين أتاحت له الظروف أن يكشف عن نفسه، حين أصبحت الفتاة ناهدًا يمكن أن تحقِّق معنى الحب، وحين أصبح الفتى ضابطًا وسيم الطلعة يمكن أن يصبو وأن تصبو إليه القلوب.

وقد دار هذا الحب بهذين الشابين ألوانًا مختلفة من الدوران، أنكر نفسه أول الأمر مع أنه لها عارف وبها مؤمن، ثم جعل يخلص قليلًا قليلًا من هذا الإنكار ويكف عن هذه المداورة، حتى صرح عن نفسه ذات مساء ولم يترك للعاشقين سبيلًا إلى جحوده أو الشك فيه.

أزال من طريقه إذن تلك المصاعب الخاصة التي كانت في نفس هذين العاشقَيْن، والتي ترجع أكثر ما ترجع إلى بعض هذه العُقَد النفسية التي تعرض للصبية والشباب، ولم يكد يخلص من هذه المصاعب حتى ثارت في سبيله مصاعب أخرى جاءت من أسرة الفتاة؛ فأبوها رجل من كبار الباشوات له مطامع لا تنتهي، وهو على ذلك من طراز الآباء

الذين لا يعرفون لبناتهم حقًّا في الحرية أو الاختيار، وإنما يأخذونهن بالشدة والعنف والطاعة في غير جمجمة ولا اعتراض، وهو من أجل ذلك يرد خطبة الفتى ويقدِّم ابنته ضحية لمطامعه، فيزوِّجها كارهةً من فتًى سخيفٍ لا خطر له إلا أنه من أبناء رجل عظيم من رؤساء الوزارة السابقين، والذين يمكن أن تعود إليهم رياسة الوزارة، والفتاة يائسة ولكنها صابرة، والفتى يائس ولكن فيه شيئًا من إباء، وقد زُفَّتِ الفتاة إلى زوجها البغيض ولم ينتظر عشيقها هذا الزفاف فتزوَّج من فتاة أخرى لا يحبها ولا يهواها. ولا يكاد الزمن يتقدَّم حتى تستكشف هذه الفتاة الخيانة من زوجها ومن رفاقه المترفين، فتفر من بيتها بعد خطوب، وينتهي بها التطواف إلى تلك الساقية القديمة التي ظهر فيها حبها لذلك الفتى، وظهر فيها حب ذلك الفتى لها في صراحة لا تحتمل جدالًا، وفي عنف لا يقبل مقاومة، وتريد الأقدار التي يدبِّرها الكاتب كما يحب هو أن تلقى الفتاة عند هذه الساقية عاشقَها القديم، وما هي إلا أن يفرَّا إلى الإسكندرية هاربين بحبهما، مرضيين لحاجتهما من هذا الحب في عشٍّ بعيد على ساحل البحر، ولكنهما لا يعودان من هذا الفرار، وإنما يستأثر بهما الموت.

ولم أُلخِّص القصة، فليس من اليسير أن تُلخَّص قصة بهذا الطول في مثل هذا الحديث، وإنما أشرت إلى سياقها إشارةً هي إلى اللمح أقرب منها إلى أي شيء آخَر. وقد ذكرت أن القصة أخَّاذة مشوقة تبدأ قراءتها فلا تستطيع عنها انصرافًا حتى تتمها، وهي مع ذلك قد كُتِبت في لغة عربية فصيحة رائقة على هنات تلقاها هنا وهناك.

وما أحب أن أخفي على صاحب القصة أني لم أرضَ عن كثير مما اضطره إليه فنُّه اضطرارًا، ولن أذكر له ذاك في إطالة، وإنما أشير إليه كما أشرتُ إلى سائر القصة.

هناك أشياء تنكرها كتمزيق الخيط، وتمزيق الشعر، وتذكير المؤنث، وتثنية ما حقه أن يكون جمعًا. وهناك أشياء لا يسيغها الذوق، وما أكثر ما يتورط الشباب من كتَّابنا فيما لا يسيغه الذوق.

فهذان العاشقان يتحدثان في موطن من مواطن الحب العنيف الذي يريد أن يُخفِي نفسه فلا يستطيع، وإذا هما ينتهيان في بعض حديثهما هذا، الذي كان يجب أن يخلص من المادة، عن المسطردة والعدس والكوشري والدقة، وأسخف ما يمكن أن يتحدَّث عنه أصحاب الشره والنهم في موطن من مواطن الجوع والازدراد والالتهام.

وهناك أشياء لا يسيغها الفن نفسه، وإنما هي متكلَّفَة مصطنَعة قد شُدَّتْ من شعرها كما يقول الفرنسيون، فهذه الزوج البائسة اليائسة التي فقدت أملها واستكشفت

خيانة زوجها وكرهت حياة المترفين وحياة الناس، وكادت تقضي على نفسها بالموت، وانتهت آخِر الأمر إلى ساقيتها تلك القديمة تذكر حبَّها الضائع وأملها الخائب، وإنها لفي ذلك وإذا عاشقها القديم يُقبِل عليها كأنما كانا على ميعاد، وهو لا يُقبِل عليها زوجًا بائسًا يائسًا مثلها، وإنما يُقبِل عليها حرًّا طليقًا قد ماتت زوجته لأن القصة أرادت أن تموت.

وهناك عيب في القصة يوشك أن يفسدها لولا أنه يقع في آخِرها، حين تنتهي من قراءتها، فالفتاة هي التي تكتب القصة، وهي التي تُنبِئنا منذ السطر الأول بأنها ستموت بحيث ننتظر موتها كلما دنونا من آخِر الكتاب، فإذا بلغنا موتها رأيناه منكرًا غريبًا نابيًا لا يسيغه الفن المتقن.

المطوَّلة ... رُدَّ قلبي

هذه هي القصة التي أهداها إليَّ الأستاذ يوسف السباعي منذ أسابيع، والتي أنفقتُ في قراءتها وقتًا ليس أقل منها طولًا. فهي لا تُقرَأ في يومين ولا في أيام قليلة، وإنما تُقرَأ في الأيام الكثيرة وفي الليالي الكثيرة أيضًا؛ لأنها أطول من شهر الصوم الذي انقضى أخيرًا، ومن عرقوب تلك الفتاة الذي شبَّهَه الشاعر القديم بشهر الصوم في بيته المشهور:

نُـبِّـئْـتُ أَنَّ فَـتَـاةً كُـنْـتُ أَخْـطُـبُـهَـا عُرْقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطُّولِ

ولا أشبهها بليالي الشتاء؛ ففي ليالي الشتاء طول مملٌّ، وليس في قصة الأستاذ السباعي على إغراقها في الطول ما يمل أو يغري بالملل، ولكنها تمضي في طريقها هادئة حينًا، وعنيفة حينًا آخَر، فلا يكاد هدوءُها يغريك بالملل حتى تعنف فجأةً وترد عنك الملل ردًّا، وتشغلك بأحداثها وأوصافها وتغريك بالقراءة والإمعان فيها حتى تبلغ من العلم بهذه الأحداث والأوصاف ما تريد، ثم تردك مرة أخرى إلى الهدوء.

وهي لا تكاد تمضي مستقيمة مطردة حتى تلتوى بك إلى اليمين مرة، وإلى الشمال مرة أخرى، فتريحك من هذه الاستقامة التي كادت تشق عليك، ثم تردك إليها بعد أن كاد الالتواء يرهقك من أمرك عسرًا.

والفرنسيون يسمون مثل هذه القصة قصةً نهرًا، يجعلون النهر لها صفةً ولا يضيفونها إليه؛ لأنهم يشبِّهونها بالنهر في طوله، وفي كثرة ما يلتوي به مجراه، وفي كثرة ما يعترض مجراه كذلك من العقبات والصخور التي تُخرِجه عن هدوئه واطراده واستقامته، وتضطره إلى شيء من العنف والثورة والالتواء ليشق لنفسه طريقه إلى مصبه القريب أو البعيد. ولست أخفي أني إنما سميتها المطوَّلة؛ رجوعًا بالذاكرة إلى

ذلك الكتاب الذي كنَّا نعرفه أيام الطلب في الأزهر، والذي كان شيوخنا يحدِّثوننا عنه ولا يقرءونه لإغراقه في الطول، وهو كتاب من كتب البلاغة.

ويكفي أن نعلم أن صفحات القصة تتجاوز الألف، ثم تتجاوز المائتين بعد الألف، وأنها تُقَدَّم إليك مرةً واحدةً لا مرات يتبع بعضها بعضًا. فإذا رأيت أمامك هذين المجلدين الضخمين أخذك شيء من الروع ... ثم لم تلبث أن تحس شيئًا من فتور الهمة والإشفاق من أن تبدأها ثم تصرفك الصوارف عن إتمامها. وأشهد أني رضيت عن نفسي حين رأيتني أفرغ من قراءة الصفحة الحادية عشرة بعد المئتين والألف، وكنتُ أقدِّر أنني لن أبلغها.

وأشهد كذلك أن الأستاذ السباعي نفسه قد أخذه شيء من الدهش حين أنبأته بأني قرأتُ قصته هذه إلى آخِرها، كما أن بعض الصديق أصابهم مثل هذا الدهش، واعترفوا بأنهم حين رأوا القصة لم يحاولوا الأخذ في قراءتها لأنهم يئسوا من إتمام هذه القراءة.

وأنا بعد ذلك لا آسي على ما أنفقت في قراءتها من الأيام والليالي، بعد أن سعدت بهذه القراءة كل السعادة، واغتبطت بها أعظم الاغتباط.

فالقصة جديرة أن تقرأ حقًّا، وأن تقرأ في أناة ومهل لا في سرعة وعجل، وعسى أن تكون من خير ما أهدى الأستاذ السباعي إلى قرَّائه إن لم تكن خير ما أُهدِي إليهم، لولا هنات سيكون الإلمام بها بعد حين.

فأنت واجد في هذه القصة حين تقرؤها ألوانًا كثيرة مختلفة من تصوير الحياة المصرية في ربع القرن الأخير، تجد فيها السياسة، وتجد فيها الإسراف في البؤس، والإسراف في الثراء، والإسراف في هذا التفاوت، لا بين أبناء الوطن الواحد ولا بين أبناء المدينة الواحدة، بل بين أبناء الحي الواحد أو الجزء الضئيل من هذا الحي. فهذا القصر الضخم الفخم الذي تسرف الأيام على أهله بما تتيح لهم من النعيم، وهذا البيت الصغير الحقير الذي تسرف الأيام على أهله بما تصبُّ عليهم من الفقر والشقاء والحرمان، وبما تذكي في قلوبهم على رغم ذلك من الأمل والطموح، هذا القصر الضخم وهذا المنزل الضئيل متجاوران ليس بينهما إلا خطوات يمكن إحصاؤها. وأنت واجد في القصة إلى جانب التصوير للحياة السياسية والاجتماعية تصويرًا آخَر أعمق منه عمقًا، وأروع منه روعةً، وأشد منه إمعانًا في الجدة والطرافة والغرابة جميعًا، وأريد به الحب الذي يلغي الفروق ويمحو الآماد، ولا يحفل بالسياسة ولا يحفل بالحياة الاجتماعية، وإنما يمضي في طريقه كما تمضي القصة، يهدأ حينًا ويعنف حينًا آخَر، ويستقيم مرة ويلتوي مرة

أخرى، حتى ينتهي إلى غاية بعد خطوب أي خطوب، وبعد عبث بالقلوب وتعذيب للنفوس وإرهاق للأعصاب وامتحان لقدرة الإنسان على الصبر والمطاولة، وعلى الجهاد والكفاح، وعلى النفوذ من المشكلات والتغلب على الخطوب حين يركب بعضها بعضًا، وحين تجعل حياة الناس جحيمًا لا يطاق. وأنت واجد بعد هذا كله فنونًا من تحليل النفس الإنسانية وأهوائها وعواطفها وآلامها وآمالها ودخائلها الملتوية المعقَّدَة، وأسرارها التي تكاد تخفي حتى الضمير نفسه، والتي تدفع الناس إلى أن يعملوا ويأملوا دون أن يعرفوا لمَ يأملون ويعملون؟ ثم أنت متنقل أثناء هذه القراءة بين بيئات مختلفة متفاوتة أشد التفاوت، فأنت في هذه الضيعة بين القصر الشامخ الضخم والبيت المتواضع الفقير، ثم أنت في بيئة أخرى تخالفها أشد المخالفة، بيئة المدرسة الحربية على ما لأساتذتها وطلابها وضباطها من تقاليد وعادات. وأنت في القاهرة، ثم أنت في الإسكندرية، ثم أنت على ساحل البحر مما يلي الصحراء، ثم أنت في أعماق الصحراء قد بعدت أشد البعد عن النهر والبحر جميعًا، وعشت في خيام لا يرى أهلها إلا رمال الصحراء وشمس السماء ونجومها، فقدِّر أنت ما يكون لاختلاف هذه البيئات وتفاوت الحياة فيها، والمعاشرة لأهلها من الأثر في نفسك حين ينقلك الكاتب بينها في أناة ورفق مرةً وفي سرع وعنف مرة أخرى، وليس هذا كل ما تجد في هذه القصة، بل أنت واجد فيها ألوانًا من العلم قلَّما تعرض عليك في كتابٍ؛ فحياة الجند في ثكناتهم منذ يصبحون إلى أن يظلهم الليل، ومنذ يمسون إلى أن يسفر عنهم الصبح، والصلة بينهم وبين الضباط، والصلة بين بعض الضباط وبعض على اختلاف مراتبهم ومنازلهم في نظامهم ذاك العسكري.

كل هذا تجده مفصَّلًا في القصة تفصيلًا يرضي حاجتك إلى المعرفة والاستطلاع.

ولولا أن كاتب القصة قد بَلَا حياةَ الطالب في المدرسة الحربية، وحياة الضابط منذ يتخرج من هذه المدرسة إلى أن يبلغ المرتبة التي بلغها من مراتب الجيش، لما أتيح له أن يعرض عليك هذه الفنون من المعرفة في هذه الدقة التي أشهد أنها تروق وتشوق.

وأشياء كثيرة أخرى تجدها في قراءة هذه القصة. ولست أريد أن أمضي في الحديث عنها لأني لا أريد أن أطيل كما أطال الأستاذ السباعي، ولو حاولت لما رضي قرَّاء هذه الفصول؛ فهم إلى وقتهم أشد حاجةً، وهم عليه أعظم حرصًا من إضاعته في قراءة الأحاديث المطولة، وخير لهم أن ينفقوه في قراءة القصة نفسها، فسيجدون فيها من المتعة ما هو أقوى وأقوم مما يجدونه حين يقرءون هذا الحديث.

والقصة على طولها واختلافها بين الهدوء والعنف، وبين الاستقامة والالتواء يسيرة التلخيص، أو قُلْ إن ما يمتع منها ويروق يسير التلخيص؛ فنحن في قصر شاهق أنيق

من قصور الأمراء السابقين، وصاحب القصر يمشي في بستانه متفقدًا شجره وزهره وزينته، والبستاني عبد الواحد يسعى بين يديه يجيبه حين يسأل، ويطيعه حين يأمر، ويتملقه في الاستجابة والطاعة جميعًا، ولهذا البستاني غلامان لم يتجاوزا صباهما بعدُ، صحبا أباهما إلى البستان في ذلك اليوم واستخفيا حين ظهر الأمير، وإن الأمير لماضٍ في تفقُّد بستانه، يرضى حينًا ويسخط أحيانًا، ويرفق مرة ويعنف مرة أخرى، وإذا صيحة مخيفة تخرجه عما هو فيه، فإذا تبيَّن مصدرها عرف أن ابنته الصبية «إنجي» قد خالفت عن أمر أبيها، وركبت عربة من عربات النقل الخفيفة على قضبان هُيِّئَتْ لها في البستان، وانحدرت العربة بها مسرعة لا تلوي على شيء، فعرَّضتها لخطر لا شك فيه حين تبلغ غاية القضبان، والمربية تصيح مرتاعةً والأمير ينظر وليس أقل منها ارتياعًا، ولكن العربة تقف فجأةً لأن جسمًا ممتدًا على هذه القضبان قد اعترضها، فأنقذ الأميرة الصبية من الموت، فإذا حاول الأمير أن يعرف هذا الجسم الذي أنقذ ابنته، راعه أنه ليس إلا عليًّا ابن البستاني وأكبر صبيته سنًّا.

ومنذ ذلك الوقت شغفت الصبية بالصبي لأنه أنقذ حياتها، وشغف الصبي بهذه الأميرة الناشئة لأنه أنقذ حياتها أيضًا، والأميرة مدينة لهذا الصبي، ترى أن له عليها حقوقًا يجب أن تُؤدَّى إليه، والصبي مستخزٍ من مكانه ذاك ومن ظهور الأمير عليه في بستان القصر الذي لا ينبغي أن يلم به إلا السادة والخدم الذين يعملون فيه، وهو مستخزٍ كذلك من ثيابه الرثَّة وبنطلونه المرقع الذي يكره أن يرى مكان الرقعة منه. ومهما يكن من شيء فقد اتصل قلْبَا الصبيين وكان لهذا الاتصال ما بعده.

والصبي ينمو ذكي القلب، حاد الذهن، رقيق الشعور، دقيق الحس، منطويًا على نفسه، متقدِّمًا في الدراسة حتى يتاح له النجاح في كل ما يؤدي من امتحاناته. والقصة كلها تدور حول هذين الصبيين اللذين التقيا في ذلك الموقف، فلم يَنْسَ أحدٌ منهما صاحبه، وإنما استقر في قلب كل واحد منهما حبٌّ لصاحبه جعل ينمو ويشتد ويزداد قوةً على مر الأيام، حتى انتهى إلى ما لم يكن بدٌّ من أن ينتهي إليه. فابن البستاني يحب الأميرة هائبًا لها يائسًا منها، والأميرة تحب ابن البستاني رفيقة به عطوفًا عليه يائسة منه، وليس بدٌّ للحب من أن يلغي هذا الفرق الهائل بين المحبين، فلا بد من أن تنزل الأميرة إلى ابن البستاني، أو يرقى ابن البستاني إلى الأميرة، وكلا العاشقين يؤدِّي إلى الحب دَيْنه كأحسن ما يُؤدَّى الدَّيْن، فابن البستاني قد أصبح طالبًا في المدرسة الحربية بعد خطوب كثيرة ملتوية معقَّدة، والأميرة تنزل عن كبريائها، والمصادفة تهيِّئ لهما اللقاء بين حين

وحين، وقد أصبح ابن البستاني ضابطًا في الجيش، وأصبح جديرًا إنْ رأته حبيبته ألَّا تقتحمه عينها، وهي سعيدة بتدرُّج الفتى في هذا الرقي، ترى في ذلك تقريبًا لما بينهما من أمد بعيد، والمتاعب تكثر والمشكلات تتعقد بين العاشقين؛ يدنوان ليبعدا ويبعدان ليدنوا، وليس بدٌّ من الثورة لتريح العاشقين من شقائهما المتصل، ولتلغي ما كان بينهما من فروق، ولتتيح لهما أن يخلصا كلٌّ منهما لصاحبه، ولكن بعد أهوال أي أهوال.

وقصة الثورة وتاريخ الأحداث التي مهَّدت لها، والظروف التي اقتضتها وما نشأ عنها من تغيُّر في حياة السادة والمسودين، وفي النظم السياسية والاجتماعية، كلُّ هذا هو الذي أطال القصة وأمعن بها في هذا الطول. ولا بدَّ من الاعتراف بأن هذه القصة تنقسم في حقيقة الأمر إلى أقسام ثلاثة: أحدها قصة الثورة وما كان قبلها وما كان بعدها من الخطوب، وهذا القسم على طوله لا يعطي القارئ شيئًا جديدًا ولا يقفه موقفًا طريفًا، وإنما هو التاريخ السياسي لمصر منذ وليَ فاروقٌ إلى أن أقصته الثورة عن مصر، وهو التاريخ السياسي كما قرأه الناس في الصحف قبل الثورة، وكما قرءوه بعد الثورة، هو التاريخ السياسي الرسمي الذي يعرفه الناس الآن، ليس فيه جديد، وعسى أن ينقصه كثير جدًّا من التحقيق والتعمق. والقسم الثاني قيِّم حقًّا، ولكنه ينفع العقل أكثر مما يمس القلب، وهو القسم الذي تُصوَّر فيه حياة الضابط المصري في بيئته العسكرية بين زملائه وبين الجند مع تفصيل مطوَّل، ولكنه نافع ممتع؛ لأنه يُظهِر مثلَك ومثلي من الذين لا يعرفون شئون الجيش ولا حياة الضابط، على حقائق من الخير لهم أن يعرفوها.

أما القسم الثالث فهو أقوم هذه الأقسام كلها وأعظمها حظًّا من الإمتاع للقلب والعقل والذوق جميعًا، وهو تصوير هذا الحب بين هذين الصبيين، وكيف نما، وكيف تطوَّر، وكيف عبث به البُعْد والقرب جميعًا، وكيف أثَّر فيه اختلاف الطبقة وتفاوت المنزلة، وكيف أتيح له آخِر الأمر أن ينتصر ويفوز.

في هذا القسم استطاع الأستاذ السباعي أن يكون كاتبًا ماهرًا حقًّا، فهو قد عرف كيف يحلِّل نفوس طائفة من الناس يتفاوتون في الطبقة والمنزلة، وفي الذكاء والغباء، وفي العلم والجهل، وفي التواضع والكبرياء، وفي الثقة بالنفس والشك فيها، وفي الإيمان بالله والشك فيه أيضًا، وفيه أتقن الأستاذ السباعي أيضًا تصوير الطموح الذي يستأثر بنفوس الطبقات الفقيرة، ويدفعها إلى الجد والكد، ويعرضها للإخفاق مرة وللنجاح مرة أخرى، ويُخرِجها على كل حال من طورها الضئيل المتواضع إلى طور الطبقة الوسطى التي لا حدَّ لمطامعها.

وفيه كذلك صوَّر الأستاذ السباعي أدقَّ تصوير وأصدقه عبثَ الشباب وافتتانهم بما يتعرضون له من المغريات، ومضيَّ هذا العبث إلى غايته مرة، وتحوُّله مرة أخرى إلى الحب القويِّ العنيف الذي يذهل صاحبه عن كل شيء.

ولو شئتُ لمضيتُ في تصوير ما تمتاز به قصة الحب والمحبين، وما يحيط بها ويكتنفها من المشكلات والخطوب، ولكن هذا القسم الثالث وحده جدير أن يكلفك قراءة القصة على طولها وعلى إسرافها في إنبائك بما تعرفه عن أنباء السياسة وخطوبها. وأنا أعترف بأني كنت أتعرَّض للملل في قراءة هذا التاريخ السياسي الطويل؛ لأني لا أجد فيه جديدًا، فلا ينقذني من الملل إلا مهارة الكاتب في الرجوع بنا إلى قصة الحب قبل أن يصرفنا الملل عن القراءة.

وليس لي بعد ذلك إلا ملاحظتان اثنتان كنتُ أتمنى ألَّا أضطر إليهما، فأما أولاهما فتتصل باللغة وهي لا تخلو من طرافة، فقد خُيِّلَ إليَّ حين أخذتُ في قراءة القصة أن الكاتب قد عاد إلى الحق ورجع إلى الصواب، وآمَن باللغة العربية الفصحى وإعرابها، ولكني لم أَكَدْ أمضي في قراءة القصة مائتي صفحة حتى راعني ما فيها من استخفاف بالفصحى، وازدراء للإعراب، وإعراض عن أيسر أوَّلِيَّاته، وتورُّط في فنون من الهجن لا تخطر لكاتب ولا لقارئ على بال، وكأن القصة طالت على الكاتب نفسه، فعني باللغة في أولها ثم أدركه السأم فأرسل قلمه بغير حساب، وكأنه قد اطمأن إلى أن مثلي من الذين يتحرجون في اللغة لن يقرءوا هذه القصة إلى آخِرها، فأطلق نفسه على سجيتها وكتب غير حافل بخطأ أو صواب، وربما لم يحفل هو بمثل هذه الملاحظة لأنه لا يهتم للإعراب، ويريد أن يشاركه الناس في الإعراض عنه والازدراء له، ولكني أؤكد له ناصحًا أن هذا الإهمال يشين قصته حقًّا، ويسيء إليها في غير استحقاق منها لهذه الإساءة.

أما الملاحظة الثانية فتتصل بآخِر القصة الذي هو جدير بفيلم من أفلام السينما كما نعرف الأفلام السينمائية في مصر؛ فهذه الأحداث الكثيرة العنيفة التي يتبع بعضها بعضًا في سرعة خاطفة، وهذا الدم الذي يُسفَك، وهذا العاشق الذي يُجرَح في ظهره، والعاشقة التي تُجرَح في قدمها، والرصاص الذي ينطلق بحسابٍ أو بغير حسابٍ، كل هذا يهبط بالقصة من منزلةٍ كانت رفيعة إلى منزلة لا أحبها لكاتب مجيد كالأستاذ السباعي.

فمتى يتاح لكتَّابنا أن يراقبوا أقلامهم، وأن يمتلكوا أنفسهم، وألَّا يستجيبوا لهذه الدعوة الخطيرة التي تدعوهم إليها السينما والتمثيل الرخيص؟

هذه قصة بدأت كأحسن ما تبدأ القصص، وانتهت كأسوأ ما تنتهي، واضطربت بين بدايتها ونهايتها في ألوان من الإجادة الرائعة والتهافت المؤلم.

ولو راقب الكاتب نفسه أولًا، وقلمه ثانيًا، لأهدى إلى قرَّائه قصةً من خير ما يُهدَى إلى القرَّاء في هذه الأيام.

مِنْ أدَبنا الحَديث

أريد اليوم أن أتحدث عن كتابين من كتب شبابنا القصاص، هما: «يوم الثلاثاء» و«أرض الخطايا» للأستاذ أمين يوسف غراب.

وأحب قبل كل شيء أن أسجِّل اغتباطي بأني أستكشف في آثار الشباب أدبًا خليقًا بالعناية والرعاية حقًّا، لست أدري: أأهمَلَه غيري من الشيوخ كما أهملْتُه أنا، أم انفردت أنا بهذا الإهمال المعيب؟ فقد صُرِفت عن هذا الأدب الخصب الرائع إلى الأعمال العامة أحيانًا، وإلى الأدب القديم أحيانًا أخرى، وإلى الأدب الأوروبي والأمريكي طورًا ثالثًا، ثم إلى أدب الأتراب والنظراء مرةً أخرى، وأهملتُ ما كان الحق يقضي بأن أمنحه من الوقت والجهد ما هو أهل له.

وأكاد أعترف لهؤلاء الشباب بأن من حقهم أن يغضبوا وأن يعتبوا، بل أن يلوموا ويثقلوا في اللوم، فهم يكدُّون ويجدُّون وينتجون فيحسنون الإنتاج، ثم لا يجدون صدى لجهدهم وكدِّهم وإنتاجهم، إلا ما يكون من هذا الصدى الخفي الذي يتردَّد في نفوس القرَّاء حين يقرءون فيرضون أو يسخطون، ثم لا يعربون عمَّا يجدون من الرضى والسخط؛ لأنهم ليسوا نقَّادًا ولا كتَّابًا، وإنما هم قرَّاء يأخذون ما يُقدَّم إليهم، فإذا فرغوا منه انصرفوا إلى غيره، وانصرفوا إلى أعمالهم، ونسَوا ما قرءوا كما ينسون ما يأكلون ويشربون.

وأحب بعد ذلك أن أهدي إلى الأستاذ أمين يوسف غراب أصدق الشكر وأخلصه وأجمله؛ لأني قرأت كتابَيْه فلم ترهقني قراءتهما من أمري عسرًا، ولم أتكلَّف فيهما ما أتكلَّفه من قراءة غيرهما من الكتب التي يكثر فيها التخفف من إجادة اللفظ، وإتقان

التعبير، وتخيُّر الأسلوب والمحافظة على منزلة متوسطة بين الغريب الذي لا يساغ والمبتذل الذي لا يطاق.

فالأستاذ أمين يوسف غراب كاتب يعرف لغته حق المعرفة، ويحسن التصرف فيها غير متكلِّف ولا متصنِّع، لا يخرج عن ذلك إلا حين يضطره الفن إلى هذا الخروج حين يروي نكتة عامية، أو يدير الحوار بين رجلين أو امرأتين، أو رجل وامرأة من أهل الريف، فأما حين يعرب عن ذات نفسه فهو يؤدي ما يريد في لغة نقية وأسلوب صفو، ولفظ يتخيَّره فيحسن تخيُّره، وهو يرتفع في كثير من الأحيان إلى ألوان من التشبيه الرقيق الدقيق الذي يبعد في غرابته حتى يفاجِئَ القارئَ فُجاءة حلوة، ويقع من نفسه أحسن موقع، ويترك فيه أحسن الآثار، والكاتب على ذلك لم يتخرج في الجامعة ولا في الأزهر، ولم يختلف إلى المدارس ولم يجلس إلى الأساتذة والمؤدِّبين، وإنما علَّم نفسه فأحسن تعليمها، وأخذها بفنون من العنف حتى انقادت له فأحسنت الانقياد، وقرأ ما أرادها على أن تقرأه، فعرفت كيف تقرأ وكيف تفهم، وكيف تسيغ ما تقرأ وما تفهم، وكيف تتمثله ثم ترده بعد ذلك أدبًا طريفًا فيه كثير من روعة، وفيه كثير من جمال؛ لأنها أضافت إليه من خلاصة طبعها ما أسبغ عليه سذاجة حلوة، وأجرى فيه روحًا مصريًّا عذبة.

وهو قد قرأ أدب المعاصرين من بني وطنه، ثم قرأ أدب القدماء فأكثر قراءته، ثم هو لم يتعلم لغةً أجنبيةً، ولكنه رغم ذلك قد تأثَّر بما قرأ وبما نقل عن اللغات الأجنبية، لم يَكَدْ يترك منه شيئًا، وأتيح له من هذه القراءة المختلفة المتنوعة فنٌّ من الأدب لا شك في أصالته، وفي طابعه المصري الخالص، ولا شك مع ذلك في أنه متصل بالحياة العامة التي يحياها الناس على اختلاف أجناسهم ولغاتهم في هذا العصر الحديث.

ولست أزعم أن الأستاذ أمين يوسف غراب قد وصل إلى أرفع منزلة من الأدب، فبينه وبين هذه المنزلة أمد لا يزال بعيدًا، وأي الناس يصل إلى هذه المنزلة حتى حين يتاح له ما لم تتح لهذا الكاتب الأديب من وسائل الإجادة والإتقان، وإنما أزعم أنه دليل أي دليل على أن في النفس المصرية من الخصب، وجودة الطبع، وصفاء الذوق، واعتدال المزاج، ما يتيح لها أن تشارك في الأدب الرفيع فتحسن المشاركة.

والأستاذ أمين يوسف غراب قاصٌّ مقصر إلى الآن، لم يحاول أن يطيل القصص فيما أعلم، وأكبر الظن أن الوقت لم يتح له كما لم يتح له فراغ البال، وأنه إنما يكتب هذا القصص القصير مستجلبًا لفنه من ناحية، ولضرورات الإنتاج السريع المنتظم من ناحية أخرى.

وأحسب أنه لو فرغ لفنِّه وقُدِّر له أن يجنب ما تفرضه الحياة اليومية من العسر، لأُتِيحَ له إنتاجٌ أكثر إمتاعًا وأغزر مادةً وأقدر على طول البقاء. وهو يشتق أحاديثه هذه القصار من حياتنا المصرية اليومية فيحسن اشتقاقها، ويرفعها من طور الواقع المبتذل إلى حيث يجعلها أدبًا فيه عبرة وعظة، وفيه إثارة لعواطف الرضى والسخط والسرور والحزن والأمل واليأس، وفيه ميل شديد إلى التشاؤم، فهو يجيد أكثر ما يجيد تصوير الآمال الخائبة والظنون الكاذبة والأوهام التي تدفع أصحابها إلى التورُّطِ في الخطأ الذي لا سبيل إلى إصلاحه، واقترافِ الإثم الذي لا أمل في استدراكه، فهذا الفتى يضطرب بين البؤس البائس والأمل المختلط النزق حتى يقترف جريمة القتل والسرقة، ثم لا يلبث أن يستكشف أنه لم يسرق إلا وهمًا؛ لأن النقد الذي سرقه وقتل في سبيله نقد أجنبي لا يغني عنه شيئًا إلا أنه يسلِّمه إلى السلطان ليقتصَّ منه، وهو مع ذلك قد اضطر إلى الإثم اضطرارًا، وقاوم الإثم ما استطاع أن يقاومه. وهذا الرجل الذي يقرأ كُتُبًا فيرى فيها حبًّا آثِمًا قد تورَّطت فيه امرأته، فيُخرِجه الغضب عن طوره وتسيطر الحفيظة على أمره كله، ويستيقن أن امرأته تلك التي تلد في المستشفى إنما تلد نتيجة الإثم والفجور، فلا يكاد يردها ويرد معها الصبي إلى داره حتى تنتهي الغيرة إلى خنق هذا الصبي البريء، ثم لا يلبث أن يتبيَّن أنه لم يقتل إلا ابنه؛ لأن تلك الكتب الآثِمة لم تكن موجَّهة إلى امرأته، وإنما كانت موجَّهة إلى الخادم التي طُرِدت من الدار حين استكشفت سيدتها هذا الإثم.

وهذا الرجل الساذج من أهل الريف كان يرعى الغنم على عمدة القرية، فزوَّجه العمدة من ابنة خادم تعمل في داره، وهو محب لزوجه محسود على أنه قد تزوَّجها، ولكنه يسمع تعريضًا بأن امرأته أثيرة عند العمدة فيقتلها، ثم يستكشف بعد دقائق بأنها لم تكن أثيرة العمدة إلا لأنها كانت ابنته من خادمه.

والكاتب لا ينتهي بقصصه دائمًا إلى الإثم المقطع المبهظ الذي تسيل فيه الدماء وتزهق فيه النفوس، ولكنه ينتهي في كثير من الأحيان إلى خيبة من الآمال ليست أقل شنعًا وبشاعةً من ذلك الإثم، وأسلوبه في تصوير خيبة الأمل هذه يشبه كثيرًا ما تألفه عند الكاتب الفرنسي موباسان، فأكبر الظن أنه قرأ ما تُرجِم إلى العربية من هذا الكتاب، وقرأ كاتبنا العظيم محمود تيمور فأحسن الانتفاع بما قرأ.

وهو من أبرع الناس في تصوير البؤس والشقاء والحرمان، سواء أكان مصدر هذه الخصال هو سوء النظام الاجتماعي، أم هو الانحراف عن جادة الفضيلة وطريق الخُلُق القويم. على أن من الإسراف أن يقال إن كاتبنا يجيد دائمًا، ويُوفَّق دائمًا إلى ما

يحب؛ فما أكثر ما يخطئه التوفيق فينتهي إلى غير غاية، وما أكثر ما يضطر أحيانًا إلى التزيد والإغراق في الوصف، ولا سيما حين يصف الترف والمترفين! وما أكثر ما يتورَّط في عيب آخَر يشارك فيه كثيرًا من أترابه الكتَّاب الشباب، هو الإسراف في وصف جسم المرأة وجماله وفتنته المغرية! وأحسبه وأحسب أمثاله من الكتَّاب يتملقون بهذا الإغراق استجابةَ الناس للغرائز، وإيثارَهم لكل ما من شأنه أن يثير فيهم هذه الاستجابة، وينسَون أن الأدباء إنما يكتبون لتأديب الشعب وتهذيبه لا لتملُّقه وإغرائه.

وكاتبنا من أقل الكتَّاب كلفًا بالابتذال في اللفظ، ولكني مع ذلك أحب له ألَّا يغلو في وصف الطعام على هذا النحو المتهالك الفج، الذي يجب أن يشير إليه الأدب دون أن يمعن فيه.

أما بعدُ، فإني أهنِّئ كاتبنا بأدبه هذا الخصب الرائق، وما أشك في أنه إذا أمعن في القراءة وأحسن اختيار ما يقرأ، وراقب نفسه حين يكتب، واشتَدَّ في مراقبتها؛ سينتهي بأدبه إلى غاية بعيدة من الإجادة والإحسان والارتفاع.

مِنْ أدَبنا الحَديث

أريد اليوم أن أحدِّثك عن كتاب رائع بأدق معاني هذه الكلمة وأصدقها للأستاذ نجيب محفوظ، وهو كاتب «زقاق المدق».

وقد يثقل هذا العنوان على لسان الناطق وأذن السامع، ولكنك لا تكاد تسمعه وتنطق به حتى تتبيَّن أنك مُقبِل على كتاب يصوِّر جوًّا شعبيًّا قاهريًّا خالصًا؛ فهذا العنوان يوشك أن يحدِّد موضوع القصة وبيئتها، وقد ذكرتُ القصةَ ومن قبل ذلك ذكرتُ الكتاب؛ لأن لهذا السِّفْر قيمتين خطيرتين حقًّا، إحداهما أنه قصة متقنة رائقة لا تكاد تأخذ في قراءتها حتى تستأثر بك استئثارًا كاملًا، وتشغلك عن كل شيء غيرها، ثم تمضي فيها حتى إذا فرغت منها لم تستطع الإعراض عنها كما تعرض عن كثير من الكتب والقصص بعد أن تفرغ من القراءة، وإنما أنت ذاكر للقصة مفكِّر في كثير من أحداثها وأشخاصها، حريص على أن تستزيد من مصاحبة الكاتب والنظر فيما أظهر من كتب أو قصص أخرى، قد أحببتَ الكاتبَ واستعذبتَ روحه، وشقَّ عليك أن تفارقه أو أن تُشغَل عنه بغيره من الكتَّاب.

أما القيمة الثانية الخطيرة لهذا السفر الضخم فهي أنه بحث اجتماعي متقن كأحسن ما يبحث أصحاب الاجتماع عن بعض البيئات، يصوِّرونها تصويرًا دقيقًا، ويستقصون أمورها من جميع نواحيها، وما أكثر ما خطر لي وأنا أقرأ هذا الكتاب أنه لم يُوجَّه إلى الكثرة من القرَّاء ليجدوا فيه ما يطلبون من المتعة الفنية الخالصة التي تشوق وتروق، وإنما وُجِّه أيضًا إلى الباحثين الاجتماعيين الذين يبحثون ليعلموا، وإلى الباحثين الاجتماعيين الذين يبحثون ليصلحوا. ولا أكاد أعرف كتابًا أجدر بأن يقرأه وزراء الشئون الاجتماعية ورجال البحث والاستقصاء في هذه الوزارة من هذا الكتاب؛ فهو قصص وعلم في وقت واحد، وهو من أجل ذلك مُرْضٍ للقلب والعقل والذوق جميعًا.

وهو يصوِّر لك حارة صغيرة في هذا الحي القاهري الخالص بين الغورية والأزهر، ثم يصوِّرها تصويرًا يحصي دقائقها، ولا يغادر من أمرها كبيرًا ولا صغيرًا إلا أحصاه كأحسن ما يكون الإحصاء، وكأصدق ما يكون الإحصاء أيضًا.

في هذه الحارة الصغيرة قهوة شعبية يطرأ عليها الطارئون من الأحياء القريبة والبعيدة أيضًا، ولكن يختلف إليها في كل يوم أشخاص بعينهم لا يتخلفون عنها مهما تكن الظروف، وفيها وكالة شعبية أيضًا في مظهرها وحركاتها التي يضطرب بها الناس فيها، ولكنها على ذلك تؤدي ثراء عظيمًا ضخمًا، وترزق عمَّالًا وموظفين كثيرين، وصاحبها رجل من الشعب قد امتاز بالثروة والغنى، وظهرت عليه آثار هذا الامتياز، فهو أنيق الزي وسيم الطلعة، يخالط أهل الحي مخالطة متصلة، ويمتاز منهم على ذلك امتيازًا ظاهرًا. تغدو به على الزقاق وتروح به من الزقاق عربة أنيقة تجرها الخيل، ولها جرس يسمعه أهل الزقاق فيعلمون بغدوه ورواحه، ولكنه لا يكاد يبلغ الزقاق حتى يصبح واحدًا من أهله، يأنس إليهم ويأنسون إليه، ويمتاز منهم بعد ذلك بهدوئه وأناته وشيء من الترفع ليس استعلاء ولكنه يوشك أن يبلغ الاستعلاء، وأهل الزقاق يكبرونه ولكنهم يرونه واحدًا منهم، يرونه سيدًا أو شيئًا يشبه السيد، بينهم وبين الذين يسودهم هذه الألفةُ الأنيقة التي تقرِّبه منهم كل القرب، وتبعده منهم بُعْدًا شديدًا.

وفي الزقاق حانوت حلاق، وبائع للبسبوسة، وفرن خباز تتسلط فيه الزوجة على زوجها تسلُّطًا كاملًا.

وفي الزقاق بعد ذلك بيتان يستأجر حجراتهما وغرفاتهما هؤلاء الذين يعيشون فيه، ويقيم فيهما بعد ذلك صاحباهما.

فأما أحدهما فرجل تعلَّم في الأزهر حتى كاد يتخرج فيه، ولكن الله لم يفتح عليه بالعالمية، وقد طابت نفسه عن هذا الإخفاق، وأقبل على شيء من التصوف ذَكَتْ به نفسه، وطهر به قلبه، وصفا به طبعه وذوقه، فأحبَّه أهل الزقاق وأكبروه، واتخذوه لأنفسهم ناصحًا ومرشدًا يستشيرونه حين تشق عليهم مشكلات الحياة، ويفزعون إليه حين تلمُّ بهم النائبات. والأخرى امرأة بلغت الخمسين أو قاربتها، ترمَّلتْ منذ عهد بعيد وشقَّتْ عليها الوحدةُ حتى ضاقت بها، فهي تتوق إلى الزواج في استحياء، ثم هي حريصة بخيلة كانزة للمال، متهالكة عليه، ترهق سكان بيتها من أمرهم عسرًا. ولا بد من أن نذكر كائنًا آخَر غريبًا يعيش في الزقاق قريبًا منه ويرقون له أحيانًا، قد صور القذارة أبشع تصوير وأشنعه؛ قذارة الجسم، وقذارة الزي، وقذارة النفس، وقذارة السيرة، وهو

شحاذ أو قُلْ أستاذ الشحَّاذين يعلمهم المهنة، ويهيئهم لها ويتكلف لهم العاهات والآفات التي يحتاجون إليها ليستدروا إشفاق الناس وعطفهم، وهو يسكن حجرة قذرة ملحَقة بالمخبز، خالية أو كالخالية من كل شيء ينفق فيها النهار كله، وشطرًا من الليل، ثم يخرج في جوف الليل كأنه الشيطان، فيطوف على تلاميذه ليأخذ منهم الإتاوة التي فرضها عليهم.

ويختلف على القهوة في الزقاق إذا أقبل المساء من كل يوم، رجل غريب الأطوار، كان موظَّفًا في الأوقاف، وانتهى به أمره إلى تصوُّف ذاهل أو ذهول متصوف، فهو يسمع ما يجري من الأحاديث حوله، ولكنه لا يقول شيئًا، وهو هائم في ذهوله بأهل البيت — وبستِّ الستَّات — منهم خاصةً، قد غمره حبها وانقطع لها انقطاعًا لا يكاد يتبيَّنه، وهو يجلس في القهوة بشخصه، ولكن نفسه غائبة عنها وربما عادت إليها بين حين وحين فنطقت بجملة أولها عاقل وآخِرها مجنون، وأهل الزقاق يرونه وليًّا من أولياء الله الصالحين، يتبرَّكون به ولا يستطيعون أن يستغنوا عنه بحال من الأحوال.

هذا هو الزقاق، وهؤلاء هم أهله، ولكل واحد منهم قصته التي تصوِّر حياته ومزاجه وأخلاقه ومواطن الخير والشر فيه، وهذه القصص الكثيرة يتصل بعضها ببعض، ويدخل بعضها في بعض، فهي متشابكة تشابكًا غريبًا، والكاتب مع ذلك يعرضها كلها عليك في نظام أي نظام، في نظام واضح متَّسِق سهل لا غموض فيه ولا لبس ولا التواء.

في نظام يذكرك بمذهب الكاتب الأمريكي «دوس باسوس»، والكاتب الفرنسي «جان بول سارتر»، وهو مذهب يجري القصة كما تجري الحياة؛ فالناس يعيشون معًا في زمان واحد وأماكن متقاربة، والأحداث تعرض لهم في وقت واحد، فمن الطبيعي أن تعرض هذه الأحداث أطرافًا كما تحدث. يقص الكاتب عليك طرفًا من أحداث هذا الرجل، ثم ينتقل بك إلى طرف من أحداث رجل آخر، ثم إلى طرف من أحداث امرأة، وما يزال يتنقل بك بين أحداث الأشخاص على اختلافهم حتى إذا استقصى طائفة من أحداثهم عاد بك من حيث ابتدأ، فقصَّ عليك طرفًا من أحداث الرجل الأول، وتنقل بك بين الأطراف والأشخاص، وما يزال يفعل هذا عودًا على بدء، وبدءًا على عود، حتى ينتهي بك إلى آخِر الكتاب، وقد اجتمعت لك الأحداث التي أراد الكاتب أن يصوِّر بها حياة هؤلاء الأشخاص جميعًا.

فصاحب القهوة قد كان من الفتوات في شبابه، ثم انتهى به الأمر إلى قهوته تلك، وهو رجل ممتحن في بنيه كلهم، يعرض لهم الفساد فيُخرِجهم عما يحب الناس في

حياتهم المألوفة، وهو ممتحن في أخلاقه وسيرته بشيء من الشذوذ المنكر، الذي يعرِّضه للفضيحة بين حين وحين، وينغص عليه حياته في منزله دائمًا.

وهو على ذلك يحب أهل الزقاق ويحبونه، وتجري الحياة بينه وبينهم على ما عرف الناس من حسن العشرة ولين الجانب. والحلاق فتًى ساذج لا يكاد يكسب إلا ما يقيم أوده، ولكنه يرى هذه الفتاة التي تقيم مع أمها أو مع مَن تقوم مقام أمها، يراها فيطير طائره، ويشغف قلبه، ويذهب لبه، حتى لا يعيش إلا بها ولها. وهذه الفتاة نفسها غريبة الأطوار حقًّا، لا تعرف لنفسها ولا يعرف الناس لها أبًا، وقد ماتت أمها وكفلتها امرأة خاطبة، وهي فتاة شرسة شموس شديدة الطموح، لا ترضى عن شيء ولا تقنع بشيء، ولا تحفل بشيء ولا بإنسان، وإنما تريد الغنى والزينة والترف، مع أنها تعيش في الدرك الأسفل من البؤس.

وهي تخرج كل يوم فتمشي في الطريق حتى تلقى صاحبات لها يعملن في بعض المشاغل، فتعود معهن ثم ترجع إلى دارها، وقد جعل الفتى يرصدها حتى أتيح له أن يتحدث إليها وأن يخطبها بعد جهد أي جهد، فتقبله غير راضية به ولا مطمئنة إليه.

وقد ترك الفتى مهنته وترك زقاقه على مضضٍ، ومضى يلتمس السعة بالعمل في الجيش البريطاني ليعود موسرًا ويتيح لامرأته حياة ناعمة، وقد غاب فأطال الغيبة، ثم عاد في إجازة ليرى خطيبته، ولكنه لا يكاد يبلغ الزقاق حتى يعلم أن الفتاة خرجت ذات يوم فلم تَعُدْ، وهو يائس بائس يوشك اليأس أن يقتله ويذهب الحزن به كل مذهب، وهو يبحث عن الفتاة ما استطاع، ولكنه يراها ذات مساء في عربة وقد اتخذت من الزينة ما بهره، ويعلم بعد ذلك من أمرها ما لم يكن يعلم، وما علمناه نحن؛ لأن الكاتب قصَّه علينا في أسلوبه الرائق، فكنا شهودًا وكان الفتى غائبًا يعمل في الجيش البريطاني.

فقد لقيت الفتاة مَن أغواها بعد عناء طويل وخطوب شداد، فأصبحت فتاةَ سوءٍ تبيع اللذة للجنود البريطانيين وتكسب لنفسها ولمغويها مالًا كثيرًا. ويدركها الفتى آخِر الأمر وهي ضيقة بذلك الذي أغواها لأنها لا تحبه وهو يتَّخِذها مكسبًا، وقد كان الفتى عليها ساخطًا قد أزمع ازدراءها إنْ لقيها، ولكنه لا يكاد يراها ويسمع صوتها حتى تسرق منه عقله وقلبه، وإذا هو يريد أن ينتقم من مغويها قبل كل شيء، ويصبح أداة في يدها للانتقام من هذا الرجل، وقد ضربا للانتقام موعدًا. وإنه ليمر ذات مساء ببعض الحانات، وإذا هو يراها بين جماعة من الجنود تشرب وتلعب، فيجن جنونه، ويهجم على الفتاة، ويرميها بزجاجة من زجاجات الخمر، ويتكاثر عليه الجنود فما يزالون به ضربًا ولكمًا حتى يُنقَل إلى المستشفى آخِر الأمر، ليفارق فيه الحياة والحب والانتقام جميعًا.

ولم ألخِّص لك القصة، لأن تلخيصها عسير جدًّا، لا سبيل إليه في فصل من هذه الفصول، وإنما لخَّصْتُ لك منها أطرافًا قليلة جدًّا، وما أشك في أن ما تركته من أطراف القصة، عظيم الخطر بالقياس إلى ما لخصته منها. عظيم من الناحية الاجتماعية أولًا؛ لأنه يشخِّص الزقاق ويشيع فيه روحًا خاصًّا، ويعرض عليك هذا الروح الحلو المر الذي يسرُّ قليلًا، ويسوء كثيرًا، ويدعو أشد الدعاء وأقواه إلى الإصلاح العاجل السريع الذي يعصم هذا الشعب القوي الفتي الخصب من الفساد والانحلال. وعظيم الخطر من الناحية النفسية؛ لأن الكاتب يحلِّل لك حياة الرجال والنساء والفتيان والفتيات تحليلًا دقيقًا رائعًا، ويعرض عليك خباياها عرضًا قلَّما يحسنه البارعون في علم النفس.

وعظيم الخطر من الناحية الفنية لأن الكاتب يصوِّر لك هذه الحياة الساذجة المعقدة السعيدة البائسة تصويرًا يروعك بدقته وصدقه حتى كأنك تعيش بين هؤلاء الناس، فتضحك حين يضحكون، وتحزن حين يحزنون.

والكتاب طويل ولكنك تفرغ من قراءته فتراه قصيرًا، والكتاب مفصَّل، ولكنك تمضي في تفصيله فتراه مجملًا، وما أعرف كتابًا يذود عن قارئه الملل كهذا الكتاب. وهو مكتوب في لغة فصيحة سهلة قد برئت من التكلُّف وامتازت بالإسماح، تتخللها بين حين وحين عبارات شعبية تقرؤها فلا تضيق بها، ولا تحس تنافرًا بينها وبين ما حولها من هذه اللغة السمحة المستقيمة على هنات قليلة فيها لا تستحق أن تُذكَر؛ فهو مثلًا يثني «ذات» فيقول: «ذاتا نبقتين من اللؤلؤ.» والخير أن يقول: ذواتا، وهو يقول: «قد استخار الله فأخاره.» والجيد أن يقول: فخار له.

ولكن هذه هنات يسيرة، وهي بعد ذلك قليلة في هذا الكتاب الطويل.

ما أجدر هذا الكتاب أن يُقرَأ! فهو كتاب ممتاز حقًّا، قد صدر عن كاتب ممتاز، ما في ذلك شك.

ولقد فرغت منه بعد أن أنفقت في قراءته أيامًا، فلم يسعني إلا أن آخذ في كتاب آخَر من كتبه هو «بداية ونهاية».

أنا الشعبْ

قصة للأستاذ محمد فريد أبو حديد

أو قُلْ إنهما قصتان تمضيان في طريقين مختلفين وتنتهيان إلى غايتين مختلفتين أيضًا، ولكن بينهما تشابهًا قويًّا، إحداهما تنبئ بسعادة اثنين، والأخرى تنبئ بسعادة شعب بأسره.

إحدى هاتين القصتين إنسانية بالمعنى الدقيق الصادق لهذه الكلمة، والأخرى سياسية لا تخلو من المغامرات والمقامرات، ومما تستتبعه السياسة عادةً من الاضطراب واختلاط الأمور.

والأستاذ فريد أبو حديد قاصٌّ بارع ما في ذلك شك، يعرف براعته مَن قرأ قصصه «زنوبيا» و«أزهار الشوك» و«الوعاء المرمري»، واستحضر الساعات العذاب التي أنفقها وهو يقرأ هذه الكتب الرائعة التي تستهوي القلوب وتستأثر بالألباب، فهذه القصة الأخيرة لا تقدِّمه إلينا لأننا نعرفه منذ زمن بعيد، وهي لا تنبئنا من أمره بشيء جديد، ولا تحدثنا عن ناحية طريفة من نواحي فنه الذي يمتاز بالصدق والدقة والإتقان.

فهو في هذه القصة كما عرفناه في غيرها متقن للتصوير، محسن لاستقصاء خصال الأشخاص الذين يصوِّرهم والبحث عن أسرارها، والنفوذ من مشكلاتها المعقدة أشد التعقيد. وهو كعهدنا به باحث عن خبايا النفوس، نفَّاذ إلى دخائلها، لا يحب العجلة ولا يطمئن إلى السرعة، وإنما يطيل الوقوف عند ما يريد درسه من شئون الأفراد والجماعات حتى يشفي نفسه ويشفي قارئه من كل حاجة إلى الاستطلاع. ولفظه — كما عرفناه دائمًا — جزل رصين تشيع فيه عذوبة محبَّبة إلى النفس، لولا هنات تلقاك هنا وهناك

ليست بذات بال، ولولا لوازم لا يكاد يبرأ منها شأنه في ذلك شأن كثير من الكتَّاب تلحُّ عليهم ألوان من التعبير فلا يستطيعون منها فكاكًا.

وقد قلتُ إن هذه القصة توشك أن تكون قصتين تجري أحداث إحداهما في مدينة بعينها من مدن الأقاليم هي دمنهور، ولا تكاد تخرج من هذه المدينة إلا حين يسافر بطل القصة إلى القاهرة، فيصحبه حبه الذي لا يريد عنه انصرافًا، ولا يريد هو منه خلاصًا؛ لأنه لا يعيش إلا به، ولا يعيش إلا له كما يقول.

وهذه القصة الإقليمية هي القصة الإنسانية حقًّا؛ لأنها تصور حياة طائفة من الناس في سرها وجهرها، وفي استقامتها والتوائها، وفي خيرها وشرها، وفي حبها وبغضها وتذبذُبها بين الحب والبغض، كما تصوِّر كيد الناس للناس، ومكر الناس بالناس، ووفاء الناس للناس، وكم تصوِّر صفو الحب حين يكون بين الأم وابنها، وبين الأخت وأخيها، وصدق الحب وحياءه واستخفاءه وإنكاره لنفسه وإن أبدت عنه الظروف حين يكون بين عاشقين يملك كل منهما لنفسه كأحسن ما يملك الإنسان نفسه، ويضبط شعوره كأحسن ما يكون ضبط الشعور.

وقد اختلفت بهما طرق الحياة فأتيح لأحدهما الثراء والسعة والنعيم، وكُتِب على أحدهما الآخَر العسر والضيق وفُرِض عليه الجد في كسب القوت. فأحدهما محب يستحيي أن يظهر ذات نفسه لأنه مترف موفور، والآخَر محب يأنف أن يظهر ذات نفسه لأنه معسر أبيٌّ. وهذا التفاوت بين المحبين، وهذا الحياء، وهذه الكبرياء، كل هذه الخصال هي التي تتيح للحب أن ينمو ويذكو ويملأ قلوب العاشقين رضًى وسخطًا وحزنًا وسرورًا، ويثير فيهما لوعة أي لوعة في أكثر الأحيان، وسعادة أي سعادة في أحيان أخرى، ويتيح لأحداث القصة أن تتصل وتجري في نسق مستقيم لا عوج فيه.

فبطل القصة فتًى من دمنهور قد فقد أباه وهو تلميذ في المدرسة الثانوية، فاضطربت عليه الأمور أشد الاضطراب حتى زهدته في الدرس، وصرفته عنه آخِر الأمر، واضطرته ظروف الحياة إلى أن يلتمس العمل ليكسب لنفسه ولأمه القوت، وهو يحاول فلا تغني عنه المحاولة شيئًا، ثم تشير عليه أمه أن يلجأ إلى رجل من أغنياء المدينة وأصحاب التجارة الواسعة فيها، كانت بينه وبين أبيه مودة وما زالت هذه المودة باقية بين أسرته وأسرة الفتى، ولا يكاد الفتى يلقى هذا الصديق القديم لأبيه حتى يحسن لقاءه ويكلفه العمل في محلجه، ثم يصطفيه ويختصه بكثير من الرعاية والحب. ولهذا الرجل ابنة في أول الشباب عرفها الفتى منذ كانا طفلين، ونما بينهما حب نقي، ولكنه

حب شديد الحياء لا يكشف عن نفسه لصاحبيه إلا في أناة شديدة ومهل بطيء، فإذا كشف عن نفسه لهما استحيا كل واحد منهما أن يحدِّث به صاحبه، واستحيا كل واحد منهما أن يُعرِب عنه لأحد من الناس. وأمور القصة تضطرب بين العسر واليسر وبين الشدة واللين، ويكثر فيها الكيد والمكر والعبث، وتختلف فيها الخطوب والثقال، وما أريد أن ألخِّصها لك، لا لأن في تلخيصها شيئًا من العسر، بل لأني حريص على أن تقرأها وتستكشف ما فيها من روائع التصوير، وبراعة في تحليل النفوس والأعمال التي تصدر عنها.

وقد كاد للفتى بعضُ زملائه فأقصاه هذا التاجر عن عمله، ولكنه حفظ له كثيرًا من المودة والعطف، والفتى مضطرب في شئون الحياة يحاول التجارة اليسيرة فيواتيه الحظ لأن رفيقًا من رفاقه البائسين في المدينة قد أعانه فأحسن معونته، والكاتب يصور لنا هذا الرفيق أبرع تصوير وأصدقه وأعظمه استهواءً لنفس القارئ.

وفي أثناء هذا الكد والجد تنشأ القصة الثانية؛ فقد اتصل الفتى بالسياسة من طريق الانتخابات والترويج لأحد المتنافسين فيها والتعرُّض لما كان يملأ الانتخابات من كيد يكيده بعض الخصوم لبعض، ومن عبث يعبثه السلطان بالذين يروجون لَمن يخاصم السلطان.

واتصال الفتى بالسياسة من هذه الطريق يُظهِره على ذات نفسه ويكشف له عن حقيقة أمره؛ فيستكشف أولًا أنه كاتب يحاول القصص فيجيده ويبرع فيه، ويستكشف ثانيًا أنه خطيب يحسن إثارة الجماعات وإلهابها، ويستكشف بعد ذلك أن له مُثلًا عليا في السياسة، وأنه مؤثر لها أشد الإيثار، مخلص لها أعظم الإخلاص، مؤمن بها إيمانًا لا يسعى إليه الشك ولا تنال منه الخطوب، صادق اللهجة إذا أعرب عن رأيه، قادر على أن ينقله إلى سامعيه وإلى قارئيه، لا يجد في ذلك مشقة ولا عسرًا، وإنما هو طبيعة له قد ركِّبت فيه وجعلته رجل جهاد ونضال لا يعرف ضعفًا ولا خوفًا، ولا يهاب الهول مهما عظم ومهما يكن مصدره.

وليس الفتى في حقيقة الأمر هو الذي استكشف هذه الناحية من نواحي نفسه، وإنما استكشفها صديق حميم له لم يلبث أن وصل أسبابه بأسباب صحيفة من صحف القاهرة، ثم لم تلبث الصحيفة أن دعته إلى المشاركة في تحريرها، فانتقل إلى القاهرة ومعه حبه ذاك، ومن ورائه أمه وأخته تعيشان في دمنهور من سعيه العسير الرضي والسعيد الشقي في القاهرة.

ولا ألخص لك هذه القصة الثانية أيضًا وإن كان تلخيصها يسيرًا؛ لا لأني أريد أن تستكشفها بنفسك، بل لأنك تعرفها حق المعرفة، وأي القراء في مصر لا يعرف حياة الصحفيين وما يعرض لهم من الخطوب حين يصدقون أنفسهم وقرَّاءهم، ويخلصون لآرائهم ومذاهبهم، ويجادلون السلطان عن هذه الآراء والمذاهب، ويعارضون الحكومة في عنفٍ لا يعرف اللين وصرامةٍ لا تعرف السماح.

كل القرَّاء عرف ما كان الصحفيون الصادقون يتعرضون له قبل الثورة من إلحاح النيابة في التحقيق، ومن السجن الاحتياطي الذي يتصل ويسرف في الطول، ومن الإغراء والاضطهاد حين لا يجدي الإغراء، وما كانت الصحف تتعرض له من المصادرة وما يتبعها من الخسارة المالية، وقد صوَّر الكاتب هذا كله، ولكنه فيما أرى لم يُنبِئنا بشيء لم نكن نعرفه، وإنما أعاد إلينا شيئًا ألفناه فطال إلفنا له وضقنا به أشد الضيق. وقد أحسن الكاتب تصوير حياته في السجن حتى بلغ إثارة الألم في نفوسنا، ولكنه على ذلك قد سبق إلى تصوير السجن وحياة الكتَّاب فيه، وإلى تصوير السجن المصري نفسه وحياة الكتَّاب المصريين فيه، سبقه إلى ذلك مَن ذاق الحياة في السجن دون أن يحتاج إلى خيال أو إلى افتنان؛ لأن الحياة في السجن المصري — ولا سيما حين تُفرَض على كاتب لأنه أعرب مخلصًا عن ذات نفسه — أقوى وأشد نكرًا من أن تحتاج إلى تجاوز الحقيقة إلى الخيال.

ولست أدري أصوَّرتُ الكتابَ حق تصويره حين قلتُ إنه يعرض علينا قصتين؟ فقد يُخَيَّل إليَّ أن فيه قصة ثالثة ليست عظيمة الخطر ولا كثيرة التفصيل، ولكنها قصة على كل حال، فيها فتاة وفيها شيء يوشك أن يكون فتونًا، وفيها بعد ذلك مفاجأة حين يقدم ذلك الرفيق البائس القديم الذي أصبح بفضل الكيد من أهل اليسار، حين يقدم ذلك الرفيق إلى القاهرة ليزور صديقه القديم في سجنه، فيلقى تلك الفتاة ويحبها ويدخل بحبها في مغامرة أخرى ليست بذات بالٍ، وإن احتاج الكاتب إلى أن يبلغ بنا غايتها.

وبطل القصة بل بطل القصتين يشقى بقصتيه معًا، ويشقى بحبه الذي لا يعرف له غاية ولا يرى السبيل إلى إرضائه، وإنْ مُدَّتْ له الأسباب إلى هذا الإرضاء لأنه يكبر نفسه عن أن يطمح إلى فتاة مترفة ليس له من ترفها نصيب، يخشى أن يُتَّهَم بالطمع في مال الفتاة إنْ سمت نفسه إليها، وإنْ كان حبها يحرق قلبها تحريقًا، والفتاة تحبه ويصدها الحياء عن أن تستجيب لهذا الحب؛ لأنها لا تستطيع أن تبدأ بالخطوة الأولى، ولو قد أرادت لما أُتِيح لها ذلك؛ فقد خطبها إلى أبيها فتًى من أبناء الباشوات، وقَبِل أبوها

الخطبة وأذعنت هي لأمر أبويها، واستيأس العاشقان من إرضاء حبهما ذاك البائس الذي كُتِب عليه الحرمان. صاحبنا شقي بهذا الحب كما شقي العذريون بحبهم من قبلُ، وهو شقي بقصته الثانية، فجهاده في السياسة يدفعه من تحقيق إلى تحقيق، وينقله من سجن إلى سجن، ويمتحنه بكثير من الخطوب في نفسه وفي الزملاء، ولكن لكل قصة غاية يجب أن تنتهي إليها، ولكل مشكلة حلًّا يجب أن تصير إليه من طريق أو من أخرى.

وقد وُفِّق الكاتب كل التوفيق إلى حل القصة الأولى، قصة الحب في غير مشقة ولا تكلُّف، بل في براعة أي براعة، وفي صدق أي صدق، وفي إفادة لقرَّائه كأحسن ما تكون الإفادة للقرَّاء؛ لأنه درس بيئة حبه ذاك أحسن درس وأعمقه، وأعطانا من الذين يضطربون في هذه البيئة صورًا تملؤها الحياة، ويفيض منها النشاط، وتظهر لنا حقائقهم قوية أخَّاذة فيها الرائع وفيها المروع. فهذا الغلام البائس الذي ألحَّ عليه البؤس حتى أدركه الهزال وبلغ منه الجهد، وانتهى به إلى شحوب مخيف عُرِف به بين الناس، وكانوا يسمونه حمادة الأصفر، والذي يعيش من السؤال وتكفُّف الناس، والذي اختلط في نفسه الخير والشر، والسخط والرضى، والحزن والسرور، حتى أصبح صورة مزعجة للبؤس المضطرب الذي لا يعرف ما يأتي وما يدع، والذي لا يؤمن بنفسه ولا يؤمن بغيره، وإنما هو أشبه شيء بالثمامة التي تعبث بها الرياح فتوجهها إلى حيث تشاء. وهذا الفتى قانع بالقليل حين يتاح له القليل، فإذا أدركته سعة أو مسَّه جناح نعمة أسرع إلى لذته فاندفع إليها وأسرف فيها، ويجب أن تكون لذته حقيرة مثله، بائسة مثله، فهو لا يتتبع إلا أحقر الحانات، ولا يشرب إلا أرخص الخمر وأفتكها بالنفوس والأجسام.

وهو لا يحفل بنفسه ولا بجسمه، كما أنه لا يحفل بالأخلاق ولا بالأوضاع الاجتماعية؛ لأنه يحس أن الجماعة قد نبذته نبذًا، فهو ليس منها وهي ليست منه في قليل ولا في كثير؛ فَلْيختلس حياته، وَلْيختلس ما يتاح له فيها من متاع، وَلْيسلك إلى اختلاس الحياة ومتاعها كل سبيل، ولا عليه أن تكون سُبُله معوجَّة أو مستقيمة، وأن تثير سيرته رضى الناس أو سخطهم، وهو على ذلك كله ليس خلوًّا من كل خير، فيه هذا الخير المادي الذي يتيح له شيئًا من النجح في التجارة حين تمد له أسبابها، فينفع نفسه وينفع صديقه بطل القصة. يربح هو قليلًا من المال ينفقه في لذَّاته ومتعته الساقطة، ويربح صديقه مالًا لا بأس به يرغبه في التجارة ويغريه بها، لولا أنه مريض بالكتابة والسياسة جميعًا، فيصرفه مرضه هذا عما كان جديرًا أن يغنيه ويدنيه من إرضاء حبه ذاك. وذلك الفتى الآخَر الذي يعمل مع بطل القصة في المحلج، والذي يظهر عليه الرفق والتلطف وسماحة

النفس وسجاحة الخلق، ومن وراء هذا كله أثرة منكرة وكيد خبيث ومكر بعيد الغور، فهو وادع حين تلقاه وحين تقول له وتسمع منه، وهو شيطان مريد حين تنأى عنه يكيد لك الكيد، ويمكر بك المكر البغيض، ويسعى بك عند الرؤساء، ويفسد عليك الأمر كله بين الناس. وهذا الصديق الحميم الذي يعمل معلمًا في إحدى المدارس، والذي تصفو نفسه إلى أقصى غايات الصفاء، ويخلص وده للصديق حتى يبلغ الإيثار، ويصدق نصحه للصديق أيضًا حتى يصبح له مرشدًا وهاديًا إلى ما ينفعه ويرضيه، ونائيًا به عما يسوءه ويؤذيه. وهذه الأمة البرة الحنون التي تعيش لابنها ولا تؤثر به شيئًا، وترضى عن كل ما يعمله، وتشفق عليه من أيسر الأشياء حتى من النصح الذي لا يلائم هواه. وهذه الأخت الناشئة ذات النفس السمحة والروح العذب والدعابة الحلوة، والتي تحسن الإخلاص لأخيها وأمها وكل مَن تحب، تجد في ذلك كل الجد وإن لم تُظهِره إلا في صورة الفكاهة والمزاح.

كل هؤلاء الأشخاص صوَّرهم الكاتب أبدع تصوير وأبرعه وأصدقه، حتى أصبح كل واحد منهم درسًا في الحياة يعلِّم الناس أين يكون الخير والشر، وأين يكون الكرم واللؤم، وأين يكون النصح والخداع.

وذلك التاجر الماهر في التجارة أعظم المهارة وأبعدها مدى، الماكر في المعاملة أنفذ المكر وأبلغه، ذلك الذي لا ينظر إلى المال إلا نظرة الجد الصارم الذي لا مزاح معه، ولا يبلغ منه الصدق والصراحة شيئًا، وابنته الحسناء الوادعة ذات الخفر الذي لا نكاد نعرفه إلا عند أولئك الحسان اللاتي كان العذريون يهيمون بهن، ويتحدثون عنهن في ذلك الشعر الخالد الذي لا يُنسَى، والتي تحسن حفظ الود وتعرف كيف تصونه في أعماق نفسها، ولا تكاد تبدي عنه إلا حين تضطر إلى ذلك اضطرارًا.

هؤلاء كلهم هم الأشخاص الذين يضطرون في تلك البيئة الإقليمية التي صوَّرها لنا الكاتب فأحسن تصويرها. وعَرْضُ هؤلاء الأشخاص كما قرأتَه الآن يكفي لينبئك كيف انتهت قصة الحب إلى غايتها. تاجر ماهر ماكر في شئون المال وفي جمعه، ولكنه ساذج فيما وراء ذلك، ومن حوله أصحاب الكيد والمكر وأصحاب المطامع والمنافع، وهو بعد ذلك سريع الاستجابة حين تدعوه اللذة، فأي غرابة في أن يطمع أحد الباشوات في ماله الكثير، فيسعى في الإصهار إليه، وأيُّ غرابة في أن يجيبه التاجر إلى ما يريد، ثم أيُّ غرابة في أن يكيد له الكائدون ليظهروا بعض ما خفي من أمره حين كان يستجيب لهواه، وفي أن يثقل عليه خوف الفضيحة فيقضي عليه الموت المفاجئ الذي يعجله عن أيسر التفكير والتدبير!

والأمور تمضي بعد ذلك في يُسْر إلى غايتها؛ فقد يصبح الباشا مدبرًا لأمور الأسرة بعد أن فقدت عائلها، مؤثرًا نفسه وابنه بخير ما ترك الفقيد، معرضًا هذه الأسرة إلى ضياع الثروة كلها أو أكثرها. ولا بد من أن يصبح بكل القصة منقذًا لهذه الأسرة البائسة، وهو ينقذها مستجيبًا لحبه الخالص من كل غرض، المبرأ من كل طمع، ويلقى آخِر الأمر جزاء هذا الصدق والنصح والإخلاص، فيصير الأمر بينه وبين حبيبته إلى خير ما يحبان.

على هذا النحو من الدقة والصدق ومن البراعة واليسر، تمضي هذه القصة الإنسانية الرائعة، وعلى هذا النحو تنتهي إلى غايتها لا يظهر فيها تكلُّف، ولا يبدو فيها جهد على كثرة ما أنفق المؤلف فيها من الجهد. حب صادق يجيبه حب صادق مثله، وتقوم من دونه العقاب التي يعقدها الكيد، ولكن النصح والإخلاص والجد النقي من كل شائبة، كل ذلك يذلِّل هذه العقبات، بل يمحوها ويتيح للحب أن ينتصر، وللمثل العليا أن تفوز.

ولا كذلك القصة الثانية؛ فالكاتب يعرف كيف يبدؤها، فليس غريبًا أن يستكشف فتًى في نفسه القدرة على الكتابة، أو أن يستكشف غيره له ذلك فيمضي فيما يُسِّرَ له، وليس غريبًا أن تستخفه السياسة فيستجيب لها مخلصًا صادقًا كما كان مخلصًا صادقًا في الحب، وليس غريبًا آخِر الأمر أن يلقى من أهوال السياسة وخطوبها ما يلقى أمثاله من المخلصين الصادقين في تلك الأيام الشداد، وإنما الغريب حقًّا هو انتهاء القصة إلى غايتها على هذا النحو الذي انتهت إليه، فهي تبلغ غايتها فجاءة وعن غير إرادة من الكاتب، أو استعداد لإتمام قصته، وهو يعترف بذلك اعترافًا فيه كثير من السذاجة. فالثورة هي التي أتمت هذه القصة السياسية، وكانت خليقة أن تمضي إلى غير مدى دون أن تُنبِئنا بشيء جديد أو تُظهِرنا على شيء غير مألوف.

والثورة قد فجأت الكاتب كما فجأت كثيرًا غيره من الناس، حتى ظن أنها كرامة من كرامات الحسين رحمه الله؛ لأن داره كانت قريبة من مسجد الحسين، وكان كثيرًا ما يصلي في هذا المسجد، وكان لا يمر به إلا قرأ الفاتحة، وواضح جدًّا أن الكاتب لم يؤمن في ذات نفسه بهذه الكرامة، ولكن الثورة فاجأته وطالت به القصة فلم يحاول للثورة تعليلًا، وهذا هو التقصير الذي نأخذه به ونعاتبه فيه.

فالأستاذ فريد أبو حديد ليس من عامة الناس ولا هو من أوساطهم، وإنما هو من أولي العقل والثقافة والفطنة والرأي، وهو من غير شك كان يقدِّر كما كان يقدِّر أمثاله أن حياة مصر في آخِر العهد الماضي لم تكن طبيعية، وأن اتصالها كما كانت لم يكن ميسورًا ولا معقولًا ولا ممكنًا، وكل الذين أتيح لهم مثل ما أتيح للكاتب الأديب من الذكاء

والفطنة والثقافة كانوا يقدِّرون أن تلك الحياة لا تستطيع أن تتصل، ولا أن تجري على ذلك النحو الذي كانت تجري عليه، وكانوا ينتظرون حدثًا خطيرًا ذا بال يغيِّر حياتهم ويردها إلى طريق أدنى إلى الاستقامة، وأقرب إلى القصد، وإن لم يكونوا يعرفون كيف يأتي هذا الحدث.

لم تكن الثورة مفاجئة إذن لأولي الفطنة والذكاء والنظر البعيد، وإنما كانت متوقَّعَة مترقَّبَة، وكان كثير من الناس يتعجلونها ويتحرقون شوقًا إليها. وكنتُ أحب للكاتب الأديب أن يعنى في قصته السياسية هذه بالأحداث الخفية التي كانت تجري في أعماق الشعب وتهيِّئه للثورة إن أتيحت له أسبابها، وتهيِّئه لتقبُّل الثورة والابتهاج بها إنْ شب نارَها القادرون عليها.

كنتُ أحب أن يصوِّر لنا بؤس الجماعات وضيقها بهذا البؤس وطموحها إلى الخروج منه، كما صوَّر لنا بؤس حماده الأصغر، وما ورَّطه فيه هذا البؤس من النكر والفساد.

وكنتُ أحب أن يصوِّر لنا سعة الهوة وعمقها بين الحاكمين والمحكومين، حتى كان كل فريق من هذين الفريقين يمضي ممعنًا في طريق غير التي كان الفريق الآخَر يمضي فيها، بحيث لم يكن من الممكن أن يلتقيا.

وكنت أحب أن يصوِّر تردد الحكَّام وضغطهم واضطرابهم بين هذه الأهواء الكثيرة التي كانت تعبث بالنفوس، واختلاط الأمر واضطرابه على الموظفين الذين كانوا يدبرون المرافق العامة ضائقين بتدبيرها زاهدين في هذا التدبير، يطمع فريق منها فيسرف في الطمع حتى تصبح مناصبهم وسيلة لا غاية، وتيأس كثرتهم فيلح عليها اليأس حتى تنظر إلى العمل نظرة الماقت له، النافر منه الذي يراه وسيلة إلى المرتب الذي يأخذه في آخِر الشهر، ولو قد عني الأستاذ فريد أبو حديد بتصوير هذه العلل والآفات التي أفسدت حياة المصريين قبل أن تشب الثورة، لعرف أنه كان يعمل لهذه الثورة ويهيِّئ لها ويعجِّل وقوعها، وينتظر هذا الوقوع كما ينتظر الساعون إلى غاية من الغايات أن يصلوا إلى غايتهم ويتعجلون الوصول إليها، فإذا بلغوها ولم يروا ولم يظنوا أنه كرامة من كرامات الحسين أو غيره من الأولياء الصالحين.

ولستُ أخفي على الكاتب الأديب أني كنت أجد نوعين مختلفين أشد الاختلاف من الشعور حين كنت أقرأ قصته هذه، أحدهما: شعور الغبطة والرضى والشوق الشديد إلى المضي في القراءة، والآخَر: شعور الفتور والسأم والشوق إلى أن أرى الكاتب قد ضاق بمدينة القاهرة، واشتاق إلى مدينته تلك، أو دعاه أي داعٍ للعودة إلى دمنهور في قطار

الليل، أو في قطار النهار؛ لأني كنتُ أحب أشد الحب أن أعيش معه في دمنهور، حيث أشخاصه أولئك الذين تكشف حياتهم لي عن شيء جديد كلما مضيتُ في القراءة. وكنتُ أجد كثيرًا من السأم في أن أعيش معه في القاهرة لسبب يسير، وهو أني عشت معه في القاهرة أوقاتًا طوالًا، وبلوت هذه الحياة التي يصوِّرها حتى سئمتها وضقت بها. عرفت تحقيق النيابة، وشهود المحاكم، وما يلقاه الصحفيون من الشر في ذات أنفسهم وفي نفوس زملائهم، وعرفت النذر الظاهرة والخفية التي تسعى إلى الصحفيين الصادقين لتنغص عليهم الأيام، وتؤرق عليهم الليالي.

عرفت هذه الحياة فلم أكن في حاجة إلى أن تعاد عليَّ قصتها، ولم أعرف حياة أولئك الأشخاص في دمنهور، فكنتُ إلى معرفتها مشوقًا وبها مشغوفًا. ومهما يكن من شيء فإن انتهاء هذه القصة ينبئنا بشيء نترقبه ونتعجله، ونرجو أن يكون أشقى لنفوسنا وأرضى لعقولنا على ما في هذه القصة من متاع ورضى، فالأستاذ فريد أبو حديد ينبئنا بأن انتهاء قصته هذه إنما هو ابتداء لقصة أخرى.

فمتى يتاح لنا أن نقرأ هذه القصة الأخرى؟ عسى أن يكون ذلك قريبًا.

شهريَار

قصة تمثيلية شعرية للأستاذين عزيز أباظة وعبد الله البشير

قرأت في هذه الأيام قصتين تمثيليتين موضوعهما واحد وهو شهرزاد، إحداهما للشاعر الفرنسي المعروف جول سوبرفييل، والأخرى للشاعر المصري الكبير عزيز أباظة. وقد كتب الشاعر الفرنسي قصته منذ أعوام تبلغ العشرة أو تكاد تبلغها، ومُثِّلت في باريس ولم تظفر من النجح بما كان ينتظره لها صاحبها إن لم تكذبني الذاكرة، وعنوان القصة شهرزاد، كما أن شهرزاد هي المحور الذي تدور عليه.

أما شاعرنا فقد جعل شهريار عنوانًا وبطلًا لقصته، وغاية القصة عند الشاعرين واحدة؛ فشهريار يخلع نفسه من الملك فيهما جميعًا ولكنه يخلص للحب ولحب شهرزاد خاصةً عند الشاعر الفرنسي، ويخلص للدين والنسك ويهجر الحب وشهرزاد جميعًا عند الشاعر المصري. وبعد اتفاق القصتين في الموضوع وفي الغاية إلى حدٍّ بعيد، يختلف الشاعران فيما ابتغيا من وسيلة، وما سلكا من طريق لعرض قصتيهما على النظَّارة، وإجراء ما يكون فيهما من حوار وما يقع فيهما من أحداث. فأما الشاعر الفرنسي فالفن وحده هو غايته وهو وسيلته، فهو لا يرمي إلى غرض خُلُقي ولا سياسي، ولا يحاول تأديب الناس ولا تهذيبهم، ولا يكاد يفكر في بيئته التي يعيش فيها ناقدًا لها، ومثنيًا عليها، وإنما هو شاعر عرف قصة شهرزاد وأراد أن يعرض منها صورة فنية يمتِّع بها قرَّاءه ونظَّارته، ويرسل فيها خياله إلى حيث يريد أو إلى حيث يستطيع، تهديه أعلام الفن وحدها ولا تقيِّده ظروفٌ خاصة قريبة منه أو بعيدة عنه.

أما الشاعر المصري فالفن عنده وسيلة أكثر منه غاية، فهو يفرض على نفسه قيودًا ثقالًا، فهو مؤدِّب الناس، مقوِّم لأخلاقهم، مهذِّب لطباعهم، يمقت الإثم، ويبغض الفسق، ويكره الفجور، ويحرص على أن يكرِّه هذه الخصال كلها إلى الذين يقرءون قصته أو يشهدونها. وهو منكر لسياسة قديمة مؤثرة لسياسة جديدة، لا يمقت شيئًا كما يمقت الطغيان، ولا يؤمن بشيء كما يؤمن بالعدل والقسط وحق الشعوب الكامل في الحرية والعدل، وفي الكرامة والمساواة، وفي حقها الكامل في أن تحكم نفسها كما تشاء لا كما يشاء السادة والملوك، وهو من أجل ذلك يصوِّر الطغيان في أبشع صوره وأبغض مظاهره، ويصوِّر ما يستتبعه هذا الطغيان من ذلة الوزراء والحاشية، وإذعانهم للهون وخضوعهم لما يصدر إليهم من أمر لا يراجعونه ولا يجادلون فيه، وغلوهم في النفاق وإيثارهم بعد ذلك لأنفسهم، وإمعانهم في الجشع، وإغراقهم في كل ما يمحو المروءة ويزري بالرجولة ويغض من قدر الإنسان الذي لم يُخلَق للذلة والهوان، وإنما خُلِق للعزة والكرامة.

وهو يذهب في تصوير هذا كله مذاهب مختلفة ويسلك إليه طرقًا متشعبة، ولكنه بعد أن فرض على نفسه كل هذه القيود أصبح يعيش بيننا يخوض فيما نخوض فيه، ويعيد علينا أحاديث نفوسنا حين نخلو إليها، وأحاديث بعضنا لبعض حين نلتقي، وأحاديث ما نقرأ من الصحف مصبحين وممسين، وأحاديث الكتب السياسية والخُلُقية التي نقرؤها بين حين وحين.

وهو يتناول هذا كله من قريب ومن قريب جدًّا، لا يبعد في التعمق ولا يمعن في الاستقصاء ولا يحلق في جو بعيد، وإنما هو في الأرض يحدِّث الناس ويحدِّث المصريين خاصةً عن حياتهم التي يحيونها، والتي كانوا يحيونها في بعض تاريخهم، يسلك في هذا كله طريقَ الذين يحبون أن يكون الأدب للحياة، وما أرى هؤلاء إلا يحبون قصته أشد الحب ويرضون عنها أعظم الرضى؛ فهو لا ينأى عن حياتهم الواقعة قيد أصبع، وهو حريص أشد الحرص على أن تكون قصته نافعة للناس في تهذيب أخلاقهم وتقويم سيرتهم، وإصلاح ما يكون بينهم من صلة، وإخضاع السياسة ونُظُمها كلها لما يكفل مصالحهم ويرضي طموحهم إلى حياة ناعمة في ظل العدل والمساواة والإخاء، وليس هذا كله بالشيء القليل.

وقصة شاعرنا مرآة صادقة لآلام الناس وآمالهم وحياتهم كلها ما ظهر منها وما بطن، وأكاد أعتقد أن المحنة التي دارت عليها أحاديث ألف ليلة وليلة قد تضاءلت حتى

كادت تستخفي؛ فشهريار قد ذاق مرارة الخيانة فقتل زوجه وعشيقها العبد، وأُغرِي بعد ذلك بالفجور الأحمر فله كل ليلة عروس، وله في كل نهار دم مسفوك هو دم هذه العروس.

ولكنه لا يكاد يلقى شهرزاد حتى يُصرَف عن هذا الإثم المنكر، وحتى تصبح شهرزاد طبيبًا لا تداويه من هذا الإثم وحده بعد أن صُرِف عنه، وإنما تداويه من حب القتل والرغبة في سفك الدماء، وتداويه كذلك من الطغيان والجور وتريد أن تخلقه خُلُقًا جديدًا، وتجعله ملكًا يلائم ما للشعوب من مثل عليا في الحكم الصالح النقي المستقيم، وقد كفَّ الملك عن قتل النساء ولكنه سريع إلى قتل الرجال، حريص على المال، يرى أن الشعب وما يملكه ملك خالص له لا ينبغي أن يجادله في ذلك مجادل، أو يصده عن ذلك صادٌّ …

فشهرزاد فيلسوف سياسي خلقي يريد أن يكف الملك عن القتل كله، ويريد أن يرد الملك إلى العدل كله، ويريد أن يجعله ملكًا حكيمًا لا يقرب الشر ولا يميل إليه. وهي تسلك إلى أغراضها طريق القصص إذا كان الليل، وطريق الوعظ والإرشاد إذا كان النهار، وطريق العلاج النفسي على مذهب المحدثين. عرفَتْ أن في نفس الملك عقدة جاءته من هذه الخيانة الأولى، فهي تسليه عنها بالقصص، وعرفت أن الإسراف في إزهاق النفوس وسفك الدماء دون أن يلومه في ذلك لائم أو يعارضه فيه معارض، قد ألقى في روعه أنه صاحب السلطان الأعظم والسطوة التي لا حَدَّ لها، وأنه جبَّار الأرض والسماء، يقسم أحيانًا بعزته وجلاله، قد نام عنه ضميره ونسي طبيعته الإنسانية، فأزمعت أن توقظ له هذا الضمير، وأن تذكِّره بهذه الطبيعة، وأن تذكي في قلبه جذوة الندم. وأتيح لها النجح في هذا كله بعد خطوب وأهوال، وأتيح للشاعر نفسه نجحٌ عظيم في ذلك الفصل الذي يصوِّر فيه ضمير الملك وقد استيقظ وأخذ الندم يدنو منه ليستقر فيه، وجعلت صور الماضي وما كان فيه من آثام تمر أمامه وتتحدث إليه فتغريه أحيانًا، وتخيفه غالبًا حتى يثوب إلى رشده، ويعرف نفسه، ويضع طبيعته الإنسانية حيث وضعها الله، ويخرج من حياته الآثمة القانية ليستأنف حياة أخرى نقية صافية بريئة من الشر والإثم، ومن البغي والطغيان.

وشاعرنا قاسٍ صارم قسوةَ العدل وصرامته، فهو قد أنقذ الملك وأخرجه من حياته تلك البغيضة إلى حياة النسك والزهد والشظف والعفاف، ولكنه عنف شهرزاد ففرض عليها الوحدة، وفرض عليها الحرمان، وفرض عليها الحزن وتركها تداوي نفسها من

آلامها ويأسها بنفس الفلسفة، أو بشيء يشبه الفلسفة التي داوت بها شهريار. فقد ينبغي أن نذكر أن شهرزاد لم تكن فيلسوفًا مصلحًا فحسب، وإنما كانت امرأة عاشقة، وقد أتاح لها الشاعر النجح في فلسفتها وإصلاحها، وقضى عليها الإخفاق واليأس في حبها؛ فهي قد شقيت ليسعد الملك وليسعد الشعب، وهي جديرة أن تجد من حكمتها وفلسفتها ونجاحها فيما قصدت إليه عزاء عن هذا الشقاء. وهنا يكون الخلاف بين الشاعر المصري والشاعر الفرنسي؛ كلا الشاعرين قد انتهى إلى غاية واحدة، فخلع الملك من ملكه طوعًا لا كرهًا، ولكن الشاعر الفرنسي أرضى الحبيبين فأخلص الملك لشهرزاد وأخلصت شهرزاد للملك، أما شاعرنا نحن فقد أخلص الملك لله وأخلص شهرزاد لليأس والبكاء، ولم يرد أن يريحنا وأن يظهرها لنا راضية قد وجدت في سعادة الملك والشعب عزاءً وأملًا. وبين الشاعرين اختلاف آخَر؛ فالشاعر الفرنسي يكتب قصته نثرًا، أو قُلْ يكتبها شعرًا منثورًا، ولا يكاد يعمد للشعر المنظوم إلا قليلًا؛ وهو من أجل ذلك لا يشق على نفسه ولا يشق على الناس، ولا يشغلهم عن قصته بأوزان الشعر وقوافيه. وقد قلتُ إنه يكتب قصته شعرًا منثورًا فهو يستجيب لخياله ويمضي معه إلى حيث يريد، ويخرج معه لا على قيود الشعر وحدها، بل على قيود الحياة الواقعة أيضًا.

ففي قصر الملك ساحرة تصنع الأعاجيب، ولا يعجزها حتى أن تنقل قصر الملك وأهله من بغداد حيث تقع أحداث القصة إلى أقصى الشرق حيث يحكم أخوه، ولا يعجزها كذلك أن ترد القصر وما فيه ومَن فيه إلى موضعه من بغداد بعد أن يستيقظ ضمير الملك، وتثوب إليه نفسه وتشمله العافية والشفاء.

تفعل هذا كله في طرفة عين دون أن تجد مشقة أو جهدًا لأنها ساحرة، ولأن صاحب القصة شاعر يستجيب للفن أكثر مما يستجيب لقيود الحياة الواقعة.

أما شاعرنا فقد سلك قصته كلها شعرًا منذ تبدأ إلى أن تنتهي، وكلفه ذلك وكلف قرَّاءه ونظَّارته ثقلًا ثقيلًا.

والأستاذ عزيز أباظة يعرف رأيي في التمثيل الشعري في هذه الأيام كما يعرفه غيره من القرَّاء، وهو يرد على رأيي هذا في مقدمة قصته بعد أن رد عليه فيما مضى ردًّا مطوَّلًا مفصَّلًا، ولكنه لم يقنعني الآن كما لم يقنعني من قبلُ، وما أريد أن أعيد القول في هذا الخلاف بينه وبيني، وإنما أريد أن أقف عند شعره في هذه القصة وقفة قصيرة لا أشق فيها عليه ولا على القرَّاء.

هل استقام الشعر للشاعر في هذه القصة كما يريد هو وكما نريد نحن؟

أما أنا فأشك في ذلك شكًّا بعيدًا؛ فالقصة قد طالت واختلفت أحداثها ومناظرها وألوان الحوار فيها وطبقات الناس الذين شاركوا في هذا الحوار وتلك الأحداث، ولم يستطع الشعر أن يثبت لهذا كله ثباتًا متصلًا متسقًا، ويحتفظ بما ينبغي له من السمو والارتفاع، وإنما اضطر أحيانًا إلى أن يهبط قليلًا. وانظر مثلًا إلى حديث الجوقة في مطلع القصة، وَلْنلاحظ بين قوسين — كما يقال — أن الشاعر أدار الحوار بين أفراد الجوقة، والأصل أن تصوِّر الجوقة شخصًا واحدًا، وأن يتحدث عنها رئيسها، وأن تغني مجتمعة بين حين وحين، وربما أضافت إلى الغناء شيئًا من رقص توقيعي كما كان يصنع القدماء. وَلْنقفل القوسين — كما يقال أيضًا — وَلْننظر إلى حوار الجوقة، فهذه فتاة منها تبتدئ القصة بهذه الأبيات:

وَهَـكَذَا يُطْوَى سِـجِلُّ الْـحَـيَاةِ   فِي ذَلِكَ الْقَصْرِ الْمَقِيتِ الرَّهِيب
بَـيْـنَ سُـعَـارٍ يَـتَـمَـادَى لَـظَـاهُ   وَشقْوَةٍ تَطْغَـى وَدَمْعٍ صَـبِيب
الْـهَـوْلُ مَـضْـرُوبٌ عَـلَـيْـنَـا مطَـاهُ   وَالْـقَـلَـقُ الْأَسْـوَدُ مِـلْءَ الْـقُـلُـوب

فانظر إليها في البيت الأول تتحدث إلينا من قصر الملك نفسه في بهو من أبهائه، فهي قريبة منه كأدنى ما يكون القُرْب لأنه يحتويها، ولكنها تشير إليه إشارتها إلى الشيء البعيد فتقول «في ذلك القصر» لا شيء إلا لأن الوزن لم يستقم إلا على هذا النحو من أنحاء الإشارة.

وانظر إلى البيت الثاني في السُّعَار الذي يتمادى لظاه، فالتمادي هنا أقامت وزن البيت لا أكثر ولا أقل. وانظر إلى المطي في البيت الثالث وإلى موقعه من السامعين والقارئين في هذه الأيام، وإلى ما يشعر به من هذه الاستعارة التي يشبِّه فيها الذل بناقة لها ظهر وقد تتمطى فيمتد ظهرها ويطول كأقصى ما يكون طوله، وما جاءت هذه الكلمة إلا لتقيم القافية التي التزمها الشاعر في الشطور الأولى لهذه الأبيات: «الحياة – لظاه – مطاه».

وانظر إلى هذا البيت من حديث الفتاة الثانية:

الذِّئْبُ! أَيْنَ الذِّئْبُ مِنْ شَهْرَيَار   ... لَا يَـثِـبُ الْـوَثْـبَـةَ إِلَّا بِـدَم

وما أرى أني في حاجة إلى أن أنبِّه إلى قلق هذا الدم في موضعه من القافية مع هذا الباء التي جاءت لتتم وزن البيت.

وانظر إلى هذا البيت الأول من حديث الثالثة:

الْمَوْتُ حَقٌّ وَالْبَرَايَا فَوَانٍ … لَكِنَّ قَتْلَ النَّفْسِ خِطْءٌ كَبِير …

الموت حق كل الناس يعرف ذلك وكل الناس يقوله، فهذه العجوز لم تعلمنا شيئًا، وكلمة «الفواني» هنا نابية ما في ذلك شك في آذان كثير من النظَّارة. و«قتل النفس خِطْء كبير» جملة قرآنية: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾.

فهذه العجوز تتكلم بما يتكلم به الناس جميعًا، ولا تنسى إلا شيئًا واحدًا، وهو أنها تتحدث عن لسان شاعر لا عما استقر في نفسها كما استقر في نفوس الناس جميعًا … وأستطيع أن أمضي في مثل هذا النقد إلى غير مدًى، ولكنه على ذلك نقد يسير؛ فقد اضطر الشاعر إلى أن يتحدث إلى الناس فتحدَّث إليهم بما يعلمون وبما يرددون أكثر مما تحدَّث إليهم بما ليس لهم به علم أو عهد، ولكن هناك شيئًا آخَر لا يختص به شاعرنا، وإنما يشاركه فيه غيره من الذين يقصون التمثيل شعرًا، وهو هذا التنقل السريع الكثير الممض بين أوزان الشعر المختلفة وبين القوافي التي لا تُحصَى، يلتزم الشاعر وزنًا من الأوزان وقافية من القوافي، ثم لا يلبث أن يضيق بالوزن والقافية، أو أن يضيق به الوزن والقافية، فيثب إلى بحر آخَر من بحور الشعر، وإلى قافية أخرى من القوافي، فأنت بين سرعة وبطء، وبين صعود وهبوط، وبين حركة وسكون؛ لأن أوزان الشعر تقتضي هذا كله، لكل وزن منها ما يلائمه، فالتنقل بينها في الموقف الواحد في الحوار الواحد فيه انحراف عن الموسيقى ينفر منه السمع وتضيق به النفوس.

ولست أدري ما يمنع الشعراء الممثلين من أن يريحوا أنفسهم من القوافي، فيضعوا عنها ثقلًا ثقيلًا، قد سبقوا إلى التحرر منه منذ زمن طويل؟ ولِمَ لا يلتزمون في كل فصل من فصول قصصهم نمطًا بعينه من الشعر حتى لا يزعجوا السامع بهذا الصعود والهبوط، وبهذا العدو والسكون في الوقت الذي يريد أن يفرغ فيه لجمال الشعر، وما يريد الشاعر أن يلقي في نفسه من المعاني؟

ولَمْ يلائم الشاعر بين الوزن والقافية والموضوع إلا حين أنطق المفتي برجز المتون هذا الذي تحدَّث به فاحش الحديث، وأضحك قرَّاءه وسامعيه.

وتفصيل النقد للقصة يطول وما أظن الصحف اليومية تتسع له، ولكني أحب آخِر الأمر أن أهدي إلى الشاعر ولزميله أصدق الشكر لتفضلهما عليَّ بإهدائهما القصة إليَّ.

وأحب بعد هذا كله أن أثني على ما بذل شاعرنا الكبير من جهد ضخم خصب، إنْ لم يُتَحْ له فيه التوفيق كله، فقد أُتِيح له منه شيء كثير.

صحِّ النوم

قصة رمزية للأستاذ يحيى حقي

لو كُتِبت هذه القصة قبل سنين لكانت حلمًا جميلًا رائع الجمال، ولو كُتِبت بعد سنين لكانت تاريخًا صادقًا دقيقًا، ولكنها كُتِبت في هذه الأيام، فاحتفظت بجمال الحلم وروعة جماله، وأخطأها التأويل الصادق الدقيق لهذا الحلم الرائع الخلَّاب، وكذلك شأن الكتَّاب المجودين، يحلمون دائمًا وترتقي أحلامهم في كثير من الأحيان إلى حيث تبهر وتروع، فإذا حاولوا تأويل أحلامهم وقفت الحقائق الواقعة حائلًا بينهم وبين ما يحاولون، وكذلك شأن الحياة الاجتماعية مع القصاص دائمًا يحسن فهمها في أحلام الليل، فإذا انجلت عنها الظلمات وغمرها نور النهار المطلق فأظهر أجزاءها مفصَّلَة، وكشف دقائقها من جميع أقطارها، ظهر الأمد بين حقائقها الواقعة وبين الصور التي عرضتها الأحلام البعيدة إلى أقصى غايات البُعْد. والقاص البارع شاعر يعرض علينا شعره منثورًا فيروعنا ويسحرنا، وخير له ألا يهبط من سماء الشعر إلى أرض الحياة الواقعة؛ لأنه يوشك — إن فعل — أن يجعل شعره الرائع نظمًا لا جمال فيه.

والأستاذ يحيى حقي قاصٌّ شاعر في قصصه ما في ذلك شك، قد أقام على ذلك فيما قدَّم من قصصه أدلةً لا يعرض لها الشك، وهو فيما سبق من قصصه قد بدأ أحلامه في الأرض، ثم ارتقى بها في الجو قليلًا قليلًا حتى بلغ مواطن الشعراء فوق السحاب، ولم أَنْسَ قصته الرائعة التي نُشِرت في الناس منذ أعوام طوال: «قنديل أم هاشم».

ولكنه في قصته هذه الأخيرة بدأ حلمه في مواطن الشعراء فوق السحاب، ثم جعل يتنزل به شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى مواطن الناس، والحمد لله على أنه قد وصل إلينا

سالمًا موفورًا، لم يهض جناحاه ولم يدركهما هذا الإعياء الذي يمنعهما من التصعيد مرة أخرى أو مرات أُخَر في طبقات الجو، ليحلم هناك أحلامه الشائقة الممتعة.

ولو قد كان الأستاذ يحيى حقي شاعرًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة لكان من الشعراء الرمزيين، الذين يرتفعون بفنهم عن هذه الصراحة الصريحة إلى هذه الصورة المجملة التي تشرق وتروق بما يحيط بها من الغموض، والتي تخيل إليك أنها قريبة منك لقوة حظها من الصدق ... فإذا حاولت أن تحققها في نفسك أو تنالها بيدك، نَأَتْ عنك نَأْيًا بعيدًا، فهي دانية نائية وهي يسيرة عسيرة، وهي تخلبك وتصبيك بهذا القرب البعيد نفسه؛ تمنيك حتى تملكك، وتطعمك ثم تؤئسك، وتعلقك في هذه المنزلة الحبيبة إلى النفوس بين الرجاء والقنوط.

وقد طوف كاتبنا الأديب في أقطار الأرض وأقام في فرنسا حينًا من الدهر، وهو من الذين لا ينفقون حياتهم فيما لا يغني عقولهم وقلوبهم، ولا تشغلهم الحقائق الواقعة التي تزدحم حولهم في كل يوم عن أن يفرغوا بين حين وحين لما يغذو العقول والقلوب، ويمتع الطباع والأذواق من روائع الأدب والفن والموسيقى، وهو من أجل ذلك يمتاز بين كتَّابنا بالميل الظاهر إلى الرمزية في الأدب؛ فهو حين يكتب قريبٌ إلينا وغريبٌ فينا على نحوٍ ما.

وقصته هذه أصدق مظهر لقربه وغربته جميعًا؛ فهي تنقسم إلى قسمين مختلفين أشد الاختلاف.

تقرأ القسم الأول منها فيمتعك ما فيه من رمز، ومن دقة في التصوير، ومن تعبيرٍ يسيرٍ حلو عما يريد أن يصوِّر لك، ولكنك تحس في الوقت نفسه شيئًا من الغربة في هذه البيئة التي يعرضها عليك، فهذه القرية التي يصفها والتي يعيش فيها ويحبِّب إليك أن تعيش فيها معه مصرية إذا نظرت إلى دُورها، وما يصور لك من مظاهرها من الحقول التي تحيط بها، والقناة التي تجري منها غير بعيد، وهي مصرية لأن أهلها يتكلمون لغة المصريين، وتجري على ألسنتهم بين حين وحين جمل مصرية شعبية من هذه التي نألفها عند أوساط الناس في الريف، ولكنها على ذلك بعيدة عن مصر كل البُعْد بهذه الحانة التي تقيم فيها، والتي اتخذها أهل القرية مثابة لهم يستريحون فيها ويستريحون إليها إذا أوشك النهار أن ينقضي، بعد أن يفرغوا من أعمالهم.

فلسنا نعرف في قُرَانا حانة تشبه هذه الحانة التي صوَّرها الكاتب لنا، ولسنا نعرف من أهل الريف المصري مَن يخلص لصناعة صاحب الحان، ولا مَن يفرغ له من

الجماعات منذ يقبل المساء حتى يتقدم الليل، وبناء الحانة نفسه غير مألوف في قُرَانا، هذا البناء الذي تقام الحانة في أسفله، ويسكن صاحب الحانة وزوجه في أعلاه، وتفرغ ربة البيت لتدبير الحانة وترتيبها إذا أسفر الصبح، ثم تعود إلى بيتها لتفرغ فيه إلى واجباتها المنزلية.

كل هذا لا نعرفه في قرية مصرية، ولكنه مألوف كل الإلف في كثير من القُرَى الفرنسية والإيطالية. والمترددون على الحانة أنفسهم من أهل القرية مصريون فيما يبدو من أشكالهم وصورهم ولغاتهم، ولكن أطوارهم وأذواقهم وأعمالهم وما يديرون بينهم من حديث، كل ذلك أجنبي قد نُقِل إلى مصر نقلًا؛ نُقِل من فرنسا، أو نُقِل من إيطاليا، أو نُقِل من أيٍّ من هذه البلاد التي أقام فيها الأستاذ يحيى حقي إقامة طويلة أو قصيرة. وأذكر أني هممت ذات يوم أن أسعى في أن يعم الراديو قُرَانا المصرية ليكون أداةً من أدوات الثقافة، وصلةً بينهم وبين ما يقع من الأحداث في القاهرة، فتحدَّثْتُ في ذلك إلى بعض أهل الريف، فسمعوا مني ثم ضحكوا لي وقال قائلهم: أين نحن من الفراغ للراديو؟ وإنما نحن عاملون في حقولنا منذ يسفر الصبح إلى أن تجنح الشمس إلى الغروب، فإذا رجعنا إلى أهلنا اختطفْنا عشاءَنا اختطافًا، ثم أوينا إلى فراشنا لنستريح من كد النهار إلى نوم الليل.

وهذا الفنان الذي هام بالموسيقى حتى يئس منه أبوه صاحب العربة التي يجرها فرس واحد، وكل هؤلاء الأشخاص الذين عرضوا علينا من الرجال والنساء، ليس بينهم وبين ريفنا المصري إلا أسباب واهية ضئيلة لا تكاد تستمسك، ولكني على ذلك كله، قرأت هذا القسم من القصة مستمتعًا بقراءته أعظم الاستمتاع وأقواه وأصفاه؛ لأنه قطعة من الأدب الممتاز الرائق حقًّا، قد لا يطابق الواقع من الحياة المصرية كل المطابقة ولكنه يشير إليها من بعيد، ويكسبه هذا شيئًا من الجمال الفني لا سبيل إلى مقاومته، بشرط أن يكون لقارئه حظٌّ من المشاركة في الثقافة والأدب والفن وعلمٌ بشئون الحياة في غير مصر.

ولست أخفي أني قرأت هذه القصة ثلاث مرات، وباعدت بين هذه القراءات المختلفة متعمِّدًا، فلم ينقص إعجابي بهذا القسم الأول منها، وعسى أن يكون قد زاد.

وليس هذا القسم وصفًا للقرية وأهلها فحسب، ولكن فيه فوق ذلك قصصًا مؤثرة حقًّا، نقرؤه فتخفق له قلوبنا وتهتز له نفوسنا، ونفكر في كثير من القصص الساذج العميق الذي نقرؤه لبعض الكتَّاب الغربيين؛ فهذه الفتاة السمراء التي خُلِقت للحب

تدفعها إليه عواطف ثائرة يظهر عليها الهدوء، ونفس جامحة تظهر عليها الدعة، وإحساس بالبؤس يعطفها على الذين يشاركونها فيه، وإذا هي تشفق عليهم، ثم تُفتن بهم، ثم تمنحهم حياتها كلها. وهذا القصاب الذي رقَّ قلبه وصفت نفسه، وكرم طبعه، فارتفع عمَّا ألف الناس من الأثرة والجموح في الذود عن هذه الأثرة، واطمأنت نفسه إلى حب الخير والرفق بالضعيف، والبر بأولي القربى، حتى تجاوز عن كثير مما لا يحب الناس أن يتجاوزوا عنه.

كل هذا وكثير غير هذا قد صُوِّر في هذا القسم من القصة أقوى تصوير وأصدقه وأبلغه تأثيرًا في النفوس.

والأستاذ يحيى حقي يعرض علينا هذه القرية بما فيها من الفقر والبؤس، والتعزي عن آلام الحياة بما في الحانة من ألوان الشراب، وبما في أهلها من اختلاف الأمزجة وتبايُن المذاهب وتناقض الميول، يعرض علينا هذا كله ليرسم لنا قرية بائسة شديدة الحاجة إلى الإصلاح، ويلمح لنا بأن مصلح هذه القرية ليس بعيدًا عنها، وإنما هو فتًى من أبنائها يقيم في القاهرة منقطعًا للدرس والتحصيل وللتفكير أيضًا في شأن قريته، وهو الأستاذ كما يسميه أهل القرية …

ويعود الأستاذ إلى قريته فيبدأ القسم الثاني من القصة، ويتنزل الكاتب من مكانه ذاك البعيد في الجو إلى الأرض التي يعيش فيها الناس. وفي هذا القسم يعرض علينا تأويل حلمه الجميل؛ فهو كان يتمنى لهؤلاء البائسين من أهل القرية أن يخلصوا من البؤس وأن تزول عنهم أسبابه، وأن تغيض في قريتهم ينابيع الفساد، وتفجر فيها ينابيع الإصلاح؛ فيأكل الجائع، ويكرم المهين، ويعز الذليل، وتصفو الناس، وتطهر القلوب مما غشيها من الدنس والرجس، وتبرأ الطباع من الكسل والعجز والخنوع، وتجري في القرية حياة نقية راقية ليس فيها مكان لعاجز ولا لخامد ولا لمنحرف. وقد غاب الكاتب عن القرية حينًا، ثم عاد إليها فرأى المعجزة ورأى تأويل حلمه الجميل، ولكنه على ذلك رأى بين أهل القرية أفرادًا من الساخطين والطامعين والمنافقين، ورأى فيها كذلك فلاسفة قد مستهم الأحداث بعصي ساحرة، فأصبحوا حكماء يقبلون الحياة كما هي، ويرضون بحظوظهم منها، فقد أصبح صاحب الحانة فيلسوفًا يعيش بين القبور، ويستمد فلسفته من دفن الموتى وملاحظة ما يصيرون إليه من البلى، وهو يتحدث عن الحياة والموت حديث الفلاسفة الذين تعمَّقوا أسرار الحياة، وأصبح القصاب ناسكًا يجد أمن القلب وهدوء النفس ورضى الضمير في الصلاة والعفو عن إيذاء الناس له ومكرهم به وإطلاق

ألسنتهم فيه، ويتحدث عن الصلاة حديث المتصوفين الصادقين. وأصبح سائق العربة سُؤَلَة قد لزم باب المسجد يتلقى من الناس بعض ما يتصدقون به عليه، راضيًا بحياته هذه رضى الرهبان الذين يجدون النعمة في تكفُّف الناس، والأستاذ بالطبع هو محدث هذه المعجزة، ولكن المعجزات على خطرها ومهما يكن شأنها لا تخلق الناس خلقًا جديدًا، ولا تمحو مشكلات الحياة محوًا تامًّا. وإذا كان الأستاذ يحيى حقي قد عرض علينا في القسم الأول من قصته حلمًا جميلًا رائعًا، وصوَّره تصويرًا دقيقًا بارعًا، فهو قد عرض علينا في القسم الثاني منها تأويلًا لهذا الحلم، وبرنامجًا من برامج الإصلاح.

وواضح أن قريته تلك هي مصر، ولا غرابة إذن في أن تكون فيها الحانة والعاكفون عليها من الناس.

وواضح أن محدث المعجزة هو قائد الثورة وأصحابه وأعوانه، وواضح آخِر الأمر أن الكاتب يريد أن يرضينا عما تمَّ في مصر من الإصلاح، ويعزينا عمَّا لا يزال فيها من آثار الضعف وبقايا الفساد؛ لأن باريس لم تُبْنَ في يوم واحد كما يقول الفرنسيون. ولكني لا أكتم الكاتب الأديب أني أوثر حلمه الرائع الجميل على برنامجه في فلسفة الإصلاح؛ لأني أجد في حلمه أدبًا رفيعًا بارعًا، ولا أجد في برنامجه إلا كلامًا نقرؤه في كل يوم، وتعليل ذلك هين يسير، فلم يَئِنْ للثورة المصرية بعدُ أن تكون موضوعًا للقصص الأدبي الرفيع، لأنها ما زالت قائمة لم تبلغ غايتها بعدُ؛ فنحن نشهدها ولا نحلم بها، ونحن إذا تحدثنا عنها آثرنا النصح الصادق والمشورة الخالصة، وأخذنا أنفسنا بألوان من القصد قد لا يألفها الخيال.

وأنا مع ذلك حريص أشد الحرص على أن أهنِّئ الكاتب الأديب بقصته، وأتمنى أن يذهب بعض شبابنا مذهبه في أحلامه، وفي تصويره البارع لهذه الأحلام.

وفي القصة بعد ذلك هنات لغوية ما أرى إلا أن الكاتب قد غفل عنها حين صحَّح تجارب الطبع، وما أشك في أنه سينتبه لها في طبعاته المقبلة إن شاء الله، وحسبه أنه كتب قصته بلغة فصيحة نقية ليس فيها شيء من الابتذال.

مِنْ تاريخ الشِّعر العَربي

هذا كتاب في تاريخ الأدب العربي، قرأته كما تعوَّدْتُ أن أقرأ أمثاله من الكتب التي تعرض للأدب العربي وغيره من الآداب الأخرى، ولكني لم أقرأه بعقلي وحده كما تعوَّدْتُ أن أقرأ كتب التاريخ الأدبي، وإنما قرأته بعقلي وقلبي وشعوري، وبهذه العواطف الكثيرة المختلفة التي تثور في نفس الشيوخ حين يستحضرون أطرافًا من حياتهم في عصر من عصور شبابهم الأول.

عواطف هذا الحنين إلى شيء لا سبيل إليه، أو إلى أشياء لا سبيل إليها، وعواطف هذا الحب لما لا سبيل إلى بلوغه ولا مطمع في تحقيقه، وعواطف هذا الحزن على هذا الحرمان الذي لا سبيل إلى استدراكه ولا إلى اتِّقَاء ما يثيره في النفس من المضض واللوعة والأسى.

ثم عواطف الأنس بتلك الآمال العِذَاب التي طالما تعلَّقَتْ بها النفس واثقة مطمئنة، والتي صدقت ولم تكذب، وتحققت ولم تخب، فملأت القلب غبطة وبهجة وسرورًا، وأعانت على العمل والجد والكد والنشاط، وأتاحت لكثير من المنى أن تحقق ثم انفضت، وانقضت أيامها فأصبحت وكأنها حلم رائع رائق مضى مع تلك الليلة الجميلة التي أثارته وأثارت الرضى به، ثم مضت إلى غير رجعة ومضى معها حلمها ذلك السعيد.

نعم، هذا كتاب يتجه إلى العقل لأنه يؤرِّخ عصرًا من عصور الشعر العربي القديم، ولكنه بالقياس إليَّ وإلى نفر من رفاقي في ذلك الجيل الذي مضى، يتجه إلى القلب أيضًا؛ لأنه قطعة من شبابنا، ولأنه يصوِّر لونًا من ألوان تلك الحياة التي كنَّا نحياها في أول هذا القرن، والتي لا يحياها الشباب الآن بعد أن تغيَّرت الحياة المصرية وذهبت معالم تلك الحياة القريبة البعيدة، وأصبحنا لا نستطيع أن نستحضرها إلا بالذكرى، حينما تتيح لنا الحياة الحاضرة وأعمالها وأثقالها أن نخلو إلى نفوسنا ونفرغ لذكرياتنا، وما أقل ما تُتَاح لنا الخلوة إلى النفوس، وما أندر ما يُتَاح لنا هذا الفراغ إلى الذكريات!

نعم، وهذا الكتاب لا يتجه إلى هذه الناحية وحدها من نواحي قلوبنا وحياتنا في أول الشباب، وإنما يتجه إلى ناحية أخرى هي ناحية الحب الرفيع النقي الكريم، الذي لا تشوبه نقيصة ولا تتعلق به آفة من هذه الآفات التي تتعلق بحب الإنسان للإنسان فتفسده، أو تشيع فيه ما يحزن ويسوء. ذلك هو حب الشباب الطامح الطامع المتطلع للأستاذ الذي يرضي الطموح والطمع والتطلع، ويُخرِج النفوس عن أطوارها، ويرفعها إلى حيث تستطيع نفوس الشباب أن ترقى إليه من منازل الإكبار والإعجاب والثقة والاتصال بالمثل العليا، لا يصدها عن ذلك صادٌّ، ولا يردها عنه رادٌّ، ولا يحول بينها وبينه حائل من تلك المعوقات التي تملأ حياة الشباب على اختلافها وتبايُن أشكالها وألوانها.

هذا كتاب في تاريخ الأدب العربي سمعناه في أول شبابنا في تلك الجامعة المصرية القديمة، من أستاذنا الإيطالي العظيم كارلو نالينو منذ أربعة وأربعين عامًا.

في ذلك الوقت كنتُ طالبًا في الأزهر، أقيم في ذلك الحي الذي وصفته في كتاب الأيام، والذي زرته منذ حين لأحدث به عهدًا، ولأُظهِر عليه صديقًا لي من أساتذة مدريد ترجَمَ كتابَ الأيام وشاقه هذا الحي فأراد أن يراه، فلم نَكَدْ نلم حين ارتفع الضحى من ذلك اليوم، حتى رأيت هذين البيتين يترددان في نفسي:

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ أَقْوَتَ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ
وَقَفْتُ عَلَيْهَا أَصِيلًا كَيْ أُسَائِلَهَا عَيَّتْ جَوَابًا وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ

نعم، أشهد لقد أقوت، ولقد طال عليها سالف الأمد، ولقد سألتها فلم تُجِبْ، ولم أَجِدْ فيها أحدًا يستطيع أن يجيب، وما أذهب في هذا مذهب المجاز، وإنما هو مذهب الحق الذي يستطيع الناس جميعًا أن يروه إذا ذهبوا إلى هذا الحي، ورأوا فيه تلك الأطلال التي عبث بها الزمان، وأهملها الإنسان، وخلَّى بينها وبين البلى والخراب.

كنتُ أعيش في هذا الحي أخرج منه مُصبِحًا إلى الأزهر، فأسمع فيه دروس الأدب من الأستاذ العظيم السيد علي المرصفي، وأخرج منه مع المساء إلى الجامعة المصرية فأسمع فيها دروس الأدب من الأستاذ العظيم كارلو نالينو، وكانت دروس الأدب تلك التي كنتُ أسمعها في الأزهر حين يرتفع الضحى تردني إلى حياة الطلاب القدماء الذين كانوا يختلفون إلى العلماء في مساجد البصرة والكوفة وبغداد.

وكانت دروس الأدب التي كنتُ أسمعها في الجامعة حين يُقبِل المساء، تدفعني إلى حياة الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات في روما وباريس وغيرهما من المدن

الجامعية الأوروبية الكبرى، فكنت أعيش مع الماضي البعيد وجه النهار، وأعيش مع الحاضر الأوروبي الحديث آخِر النهار، وتشغلني خطوب الحياة المصرية الراكدة الممضة بين ذينك الوقتين، وكان الرفاق يجدون من هذه الحياة مثل ما كنتُ أَجِدُ، ويسعدون حين يعودون إلى الماضي، ويسعدون حين يدفعون إلى الحياة الغربية التي كانوا يتطلعون إليها، ويشقون بين ذلك بالركود والجمود.

ويجب أن يتصور القرَّاء من الشباب المعاصرين حياة أولئك الشيوخ الشباب من طلاب الأزهر في أول القرن، حياتهم المادية وحياتهم العقلية أيضًا، وأن يقدروا ما كان يملأ قلوب بعضهم من الرضى والغبطة، وهذا الغرور الحلو البريء الذي كان يمازج نفوسهم تلك الغضة المتواضعة، حين كانوا يدفعون من حي الأزهر إلى حي قصر النيل، وحين كانوا يتحلقون مصبحين حول أعمدة الأزهر متربعين على الحُصُر البالية، ثم يجلسون إذا كان المساء إلى أساتذتهم في غرفات الجامعة لا يتربعون على الحُصُر، وإنما يجلسون على الكراسي إلى تلك الموائد الصغار، وحين كانوا يسمعون من شيوخهم وجه النهار أحاديث الفقه والنحو كما كانت تُلقَى في تلك الأوقات، وبأيديهم ملازمهم تلك العتيقة يتبعون فيها ما يقرأ الشيوخ عليهم من الكتب، ويسمعون لما يُلقِي عليهم الشيوخ من التأويل والتعليل والتحليل، فيفهمون قليلًا ويعجزون عن فهم كثير مما كانوا يسمعون. فإذا كان المساء جلسوا إلى أساتذتهم أولئك من الأوروبيين، فسمعوا منهم أحاديث لا عهد لهم بمثلها، تُلقَى عليهم باللغة العربية الفصحى مع شيء من التواء الألسنة بهذه اللغة، فتقع تلك الأحاديث من آذانهم موقع الغرابة، ومن قلوبهم موقع الماء من ذي الغُلَّة الصادي.

فإذا خَلَوا إلى أنفسهم بعد ذلك وازنوا بين ما يسمعون وما يرون أول النهار، وما يسمعون وما يرون آخِر النهار، فأثارت هذه الموازنة في نفوسهم عواطف وأهواء وميولًا أقل ما تُوصَف به أنها كانت تصوِّر لهم هذه الآماد البعيدة إلى أقصى غايات البُعْد بين قديم سقيم سئموه وضاقوا به، وبين جديد أحبوه وتهالكوا عليه.

ووازنوا كذلك بين شيوخهم أولئك الذين كانوا لا يعربون إلا حين يقرءون في الكتب، فإذا تكلموا غرقوا وأغرقوا طلَّابهم في اللغة العامية إلى أذقانهم أو إلى آذانهم، وبين أساتذتهم أولئك الأوروبيين الذين كانوا يعربون حين يقرءون، وحين يفسِّرون، وحين يخوضون معهم فيما شاء الله من ألوان الحديث. وكانوا يسألون أنفسهم: كيف أُتِيح لهؤلاء الأوروبيين ما أُتِيح لهم من العلم بأسرار اللغة العربية ودقائق آدابها؟ وكيف لم يُتَحْ هذا النوع من العلم لشيوخهم أولئك الأجِلَّاء؟

وكانت هذه الموازنات تثير في قلوبهم فنونًا من التمرد، وتدفع نفوسهم إلى ضروب من الثورة والجموح، وكان هذا كله يعرِّضهم لكثير من الشر، وحسبك أنهم كانوا مقسَّمين بين الأزهر القديم والجامعة الجديدة.

وكان هذا يجعل حياتهم قلقًا كلها، وأي شيء أجدى على النفوس الشابة من هذا القلق الخصب الذي هو الأساس المتين لكل تطوُّر منتِج في الحياة العقلية والمادية جميعًا؟ وما أظن حياة الشباب المطربشين الذين كانوا يختلفون إلى الجامعة إلا مُشبِهة من كثير من الوجوه لحياة زملائهم المعمَّمين.

من أجل هذا كله يستطيع القارئ المعاصر أن يقدِّر ما كان للجامعة المصرية القديمة من أثر بعيد فيما طرأ من تغيُّر خصب على حياة ذلك الجيل من أجيال الشباب.

أما أنا، فقد سجَّلْتُ غير مرة — وأسجِّل الآن — أني مدين بحياتي العقلية كلها لهذين الأستاذين العظيمين: سيد علي المرصفي الذي كنتُ أسمع دروسه وجه النهار، وكارلو نالينو الذي كنتُ أسمع دروسه آخِر النهار.

أحدهما علَّمَني كيف أقرأ النص العربي القديم، وكيف أفهمه، وكيف أتمثله في نفسي، وكيف أحاول محاكاته، وعلَّمَني أحدهما الآخَر كيف أستنبط الحقائق من ذلك النص، وكيف أُلَائِم بينها، وكيف أصوغها آخِر الأمر عِلْمًا يقرؤه الناس فيفهمونه ويجدون فيه شيئًا ذا بال.

وكل ما أتيح لي بعد هذين الأستاذين العظيمين من الدرس والتحصيل في مصر وفي خارج مصر، فهو قد أقيم على هذا الأساس الذي تلقَّيْتُه منهما في ذلك الطور الأول من أطوار الشباب. بفضلهما لم أحسَّ الغربة حين أمعنت في قراءة كتب الأدب القديم، وحين اختلفت إلى الأساتذة الأوروبيين في جامعة باريس، وحين أمعنت في قراءة كتب الأدب الحديث.

فلا غرابة إذن في أن تكون حياتي كلها برًّا بهذين الأستاذين؛ إكبارًا لهما واعترافًا بفضلهما، وشُكْرًا لما أَهْدَيَا إليَّ من معروف، وما أَسْدَيَا إليَّ من جميل. وشهد الله ما قرأتُ في كتاب ولا حديث، ولا حاولتُ كتابةً في الأدب، إلا ذكرت أحدهما أو كليهما، وأرسلتُ إليهما من أعماق نفسي تحية الحب والإعجاب والشكر والوفاء.

والذين يقرءون هذا الكتاب الذي أقدِّمه اليوم إلى القرَّاء المتأدبين، يحسن بهم أن يقرءوا ما كان يُدرَّس لشبابنا في ذلك الوقت من أدب في معاهدنا ومدارسنا على اختلافها، ليقدروا الفرق الهائل بين ما كان الأستاذ نالينو يُلقِي علينا في الجامعة، وبين ما كان

يُلقَى علينا في المعاهد والمدارس، وأثر هذا الفرق في تطوُّر حياتنا العقلية، وفي تطوُّر تصوُّرنا للأدب العربي قراءةً وفهمًا وإنتاجًا.

فلأول مرة درس لنا الأدب العربي درسًا منظَّمًا وأُلقِيَ في روعنا أن الشعر العربي لا يختلف باختلاف فنونه التقليدية مدحًا ورثاءً ووصفًا وهجاءً ونسيبًا وتشبيبًا فحسب، وإنما يختلف باختلاف موضوعاته التي قيل فيها، وظروفه التي أحاطت به حين قيل، والمؤثرات المختلفة التي أثرت في قائليه وفي سامعيه أيضًا. ولأول مرة أَلقِيَ في روعنا ما كان للسياسة من آثار دقيقة عميقة في نشأة فنونٍ مختلفةٍ من الشعر العربي في العصر الإسلامي، أيام الخلفاء الراشدين وأيام بني أمية.

ولأول مرة ألقي في روعنا الفرق بين الشعر التقليدي وبين الشعر الذي استحدثته السياسة الإسلامية في العراق، وبين النسيب التقليدي القديم والغزل الذي استحدثه النظام الاجتماعي الإسلامي في الحجاز، وبين الغزل المحقق الذي نشأ في حواضر الحجاز، والغزل العذري النقي الذي نشأ في البادية العربية في الحجاز ونجد والعراق.

ولأول مرة عرفنا أن من الممكن أن ندرس الأدب العربي على أساس من الموازنة بينه وبين الآداب القديمة الكبرى، وأن الحياة الإنسانية تتشابه وتتقارب مهما تختلف ظروفها، ومهما يتنوع ما اختلف عليها من الخطوب.

ولأول مرة علمنا كيف نحقِّق هذه الموازنة بين أدبنا القديم والآداب القديمة الأخرى، مُلائِمين بين ما ينبغي أن نلائم بينه، ومخالفين بين ما ينبغي أن نخالف بينه من الظواهر المتباينة التي يذخر بها التاريخ، والتي تؤثر في حياة الناس.

ثم لأول مرة تعلمنا أن الأدب مرآة لحياة العصر الذي ينتج فيه؛ لأنه إما أن يكون صدى من أصدائها، وإما أن يكون دافعًا من دوافعها، فهو متصل بها على كل حال، وهو مصوِّر لها على كل حال، ولا سبيل إلى درسه وفقهه إلا إذا درست الحياة التي سبقته فأثرت في إنشائه، والتي عاصرته فتأثَّرَتْ به وأَثَّرَتْ فيه، والتي جاءت في إثر عصره فتلقَّتْ نتائجه وتأثَّرَتْ بها. فللأدب مظهران إذن: مظهره الفردي؛ لأنه لا يستطيع أن يبرأ من الصلة بينه وبين الأديب الذي أنتجه، ومظهره الاجتماعي؛ لأن هذا الأديب نفسه ليس إلا فردًا من جماعة، فحياته لا تُتصوَّر ولا تُفهَم ولا تُحقَّق إلا على أنه متأثر بالجماعة التي يعيش فيها، هو في نفسه ظاهرة اجتماعية، فلا يمكن أن يكون أدبه إلا ظاهرة اجتماعية.

كل هذا سمعناه وفهمناه في تلك الدروس التي كان الأستاذ نالينو يُلقِيها علينا، حين كان هذا القرن في العاشرة من عمره، وكل هذا كان جديدًا بالقياس إلينا في تلك الأيام، وبالقياس إلى الأزهريين هنا بنوع خاص، فمن الطبيعي أن يُحدِث في نفوسنا أعمق الآثار وأبعدها مدًى، وأن يطبع حياتنا العقلية بطابع النقد الحديث.

وليس من شك في أن حقائق التاريخ الأدبي العربي قد تغيَّرَتْ منذ ذلك الوقت في كثير من أنحائها، وفي كثير من تفصيلها كذلك.

وليس من شك أيضًا في أن العلماء المصريين كان لهم أعظم الأثر فيما حدث من هذا التغيُّر، فهم قد تعمَّقوا دراسة الأدب أثناء هذه الأربعين سنة الأخيرة، فاستكشفوا أشياء لم تكن معروفة في حياة الأدب العربي أثناء القرون الأولى للهجرة، وهم قد نشروا آثارًا قديمة لم تكن قد خضعت لبحث العلماء؛ فيسَّرُوا للباحثين دَرْسها وفقهها واستكشاف ما كانت تُخفِي من الحقائق، وهم بعد ذلك قد كسبوا بالدراسات الأدبية المصرية منزلةً لها قيمتها الخطرة في الدراسات العالمية لأدبنا العربي القديم.

كل هذا شيء ليس فيه شك، ودلائله تُلمَس بالأيدي في هذه الكتب القديمة التي نُشِرت، وفي هذه الكتب الجديدة التي أُلِّفَتْ، وفي الدروس الأدبية التي تُلقَى في جامعاتنا ومعاهدنا المختلفة، وفي إنتاجنا الأدبي الخالص الذي شُغِلتْ بدرسه وعُنِيت بفقهه ونقله إلى اللغات المختلفة البيئاتُ العلميةُ في غربي أوروبا وشرقها، وفي شمال أمريكا وجنوبها. ولكن هناك شيئًا ليس أقل من هذا ثبوتًا واستقرارًا ووضوحًا، وهو أن دروس الأستاذ نالينو في الجامعة المصرية القديمة كانت هي الموجِّه الأول لنهضتها العلمية في دراسة الأدب مباشرةً أو بالواسطة؛ وجَّهَتْ تلاميذ الأستاذ الذين سمعوا منه فبحثوا وتعمَّقوا وأحسنوا الفقه، ثم وجَّهَتْ أجيالًا من الشباب سمعوا على هؤلاء الطلاب حين أصبحوا أساتذة، وقرءوا لهم حين أصبحوا مؤلِّفين.

وكذلك مضى المذهب الحديث في تاريخ الأدب بين الأجيال المتعاقبة من الدارسين والباحثين، وما أعرف للأستاذ نالينو نظيرًا في التوجيه العميق للنهضة المصرية، إلا زميله الأستاذ سانتلانا الذي أَحْدَثَ في مصر نهضةً خطيرة في دراسة الفلسفة الإسلامية، وفي فهم الصلة بين هذه الفلسفة وبين الفلسفة اليونانية القديمة. وقد أُتِيح للأستاذ نالينو من البر به بعد وفاته ما أرجو أن يُتَاح لزميله، والفضل في نشر هذا الكتاب يرجع قبل كل شيء وقبل كل إنسان إلى ابنته الكريمة الآنسة ماريا نالينو، فهي التي حفظت آثار والدها العظيم، وجَدَّتْ في إعدادها للنشر، وظفرت بالمعونة على نشر هذه الآثار في إيطاليا،

فأهدت للعلم والعلماء كنوزًا لا سبيل إلى تقويمها، ولا إلى استقصاء آثارها الخطيرة فيما أنتج الباحثون من الشرقيين والغربيين، وما سينتجون من الدراسات الأدبية العربية على اختلاف موضوعاتها.

وأَعَدَّتْ هذه الدروس للنشر كما تركها الأستاذ، لم تغيِّر فيها شيئًا وإنما وفَّتْ لأبيها أصدق الوفاء وأجدره بالإكبار والإجلال، ووجدَتْ من دار المعارف للطبع والنشر معونةً صادقة على إذاعة هذا الكتاب؛ فكان للدار وللأستاذة ماريا نالينو فضلٌ أي فضل؛ لأنهما بنشر هذا الكتاب قد برَّتَا بأستاذ جدير بالبر، وهيَّأَتَا لشباب المصريين والشرقيين أن يعرفوا أصول نهضتنا الأدبية المعاصرة.

فلهما على جهدهما الخالص لخدمة العلم الشكر أجمل ما يكون الشكر، والثناء أصدق ما يكون الثناء.

أما أنا فلم أُمْلِ هذه الصفحات إلا لأسجِّل برِّي بأستاذي العظيم، وشكري لابنته الكريمة ولدار المعارف على ما أتاحَتَا لي من أن أرى لونًا من ألوان حياتي في طور من أطوار الشباب.

حَديث الجِيَاع

ما أكثر ما تحدثنا عن الفن والحياة، وعن الحياة والفن، وعن أيهما يكون وسيلة إلى صاحبه دون أن ننتهي من هذه الأحاديث التي لا تنقضي إلى نتيجة مرضية أو غير مرضية، وإنما هو كلام يملأ أنهار الصحف ثم يمضي مع الريح، لا يصل إلى شيء ولا يبقى منه شيء.

نُبدئ فيه ونعيد، كأن الفن عندنا قد ملأ علينا الأرض كلها، وأخذَنا في جميع أقطارنا حتى كاد يُغرِقنا، فنحن نتخفَّف منه بالحديث عنه، أو كأن الفن عندنا قد التوى عن طريقه فضلَّ وأضلَّ، فنحن نلح في الحديث عنه، والحديث إليه، لنرده إلى قصد السبيل، ونوجِّهه إلى وجهته التي لا ينبغي أن يجور عنها.

والناس جميعًا يذكرون ذلك الفيلسوف اليوناني القديم الذي تتحدَّث الأقاصيص عنه لأنه كان يمشي في ضوء النهار وفي يده مصباح يبحث به عن الرجل، ويوشك كتَّابنا الذين يبدءون في أمر الفن ويعيدون أن يكون كلٌّ منهم ذلك الفيلسوف ذا المصباح، إلا أنهم لا يبحثون عن الرجل وإنما يبحثون عن الفن، أين هو؟ وأين يمكن أن يكون؟ وإن كان بحث ذلك الفيلسوف عن الرجل ما زال خالدًا، وما زلنا محتاجين إلى أن نعرف الرجل الجدير بهذا الاسم أين هو؟ أو أين يمكن أن يكون؟ ولكن هذه قصة أخرى.

فَلْنمضِ في حديث كتَّابنا هؤلاء، وحديثهم الذي لا ينقضي عن الفن، أين هو الفن الذي يتحدثون عنه؟ وما لهم حين يتحدثون عنه لا يسمُّون أصحابه، ولا يصفونه بصفاته التي تميِّزه وتدل على أنه فن للحياة، قد سُخِّر لها تسخيرًا، فأصلحها وقوَّاها ورقَّاها وجعلها جديرة أن تُحَبَّ، وأن تُحتمَل على ما فيها من أثقال، أو تدل على أنه

فن قد سُخِّرَتِ الحياةُ له فصوَّرته في صوره النضرة الرائعة، وجعلته فنًّا فذًّا تهوي إليه الأفئدة، ويتنافس فيه المتنافسون، وتغبطنا من أجله الأمم والشعوب.

أما أنا فأعتذر إلى هؤلاء الكتَّاب من حديث عسى ألَّا يستسيغوه ولا يطمئنوا إليه؛ فقد يُخَيَّل إليَّ أنه لو قد كان لنا فن لشُغِلْنا به، ولأمعنا فيه، ولذهبنا في نقده المذاهب، ولأراحنا هذا كله من هذا الدوار الذي يوشك أن ينتهي بنا إلى الإعياء لكثرة ما ندور حول الفن في غير طائل دون أن نقف عنده أو نقول فيه شيئًا ذا بال، وما أرى إلا أن أحاديثنا هذه الطوال تُشبِه حديث الجياع الذين يحلمون بما يردُّ عنهم لذع الجوع، وحديث الظمأى الذين يحلمون بما يكسر عنهم حرَّ الظمأ، فهم يرسلون نفوسهم في هذه الأحلام الحلوة الرائقة، وهم يتحدثون بما تزيِّنه لهم هذه الأحلام، يلهون بذلك أنفسهم عن الجوع، وعسى أن تغرَّهم أحاديثهم فتخيل إليهم أنهم قد بلغوا ما يشتهون.

وأي شيء أدل على ذلك من أن هؤلاء الكتَّاب عندما يتحدثون عن الفن الذي يكرهونه، إنما يذكرون فن القدماء؟ ويعيبون أنه كان بعضه موجَّهًا إلى الملوك والإقطاعيين يغرهم ويلهيهم، منصرفًا عن جماعات الشعب الكادحة لا يحفل بها، ولا يحسب لها حسابًا، وقد يذكرون فن الشيوخ الذين لم يدركوا الحياةَ الجديدة، أو لم تدركهم الحياةُ الجديدة، فساروا سيرة القدماء، وأنتجوا مثل ما كان القدماء ينتجون، فإذا تحدَّثوا عن الفن الذي يحبون، ذكروا فن جماعات من الأجانب على اختلاف مواطنهم، يرون أنهم صوَّروا الحياة فأحسنوا تصويرها، وكان فنهم من أجل ذلك نافعًا لهم وللناس، فإذا أرادوا أن يتحدَّثوا عن الفن المصري الذي يحبونه لم يقولوا شيئًا؛ لأنهم لا يجدون ما يقولون، أو لأنهم لا يجدون الفن الذي يستطيعون أن يقولوا فيه، فقاموا حيث هم يتمنون ويحلمون وينتظرون أن يهبط عليهم هذا الفن المصري الجديد من السماء، أو ينجم لهم من الأرض، أو تأتيهم به معجزة من المعجزات وأعجوبة من الأعاجيب. وهم كذلك يتحدثون عما كان، ويحرصون على ألَّا يعود، ويتحدثون عما هو كائن في بلاد الغرب ويتمنَّون أن يَرَوه في بلادهم في يوم من الأيام. والتمسْ إنْ شئتَ أثرًا فنيًّا مصريًّا يعجب كتَّابنا هؤلاء، ثم التمِسْ نقدَهم لهذا الأثر وآراءهم فيه وتوجيههم للذين يريدون أن ينتجوا في الفن، فلن تظفر بشيء، ورحم الله أبا العلاء حين ذكر شعر ابن هانئ الأندلسي، فذكر الرحى التي تطحن قرونًا لأنها تجعجع ولا تنتج شيئًا.

أليس خيرًا من كل هذه الأحاديث التي قد بلغت طور الإملال أن نلتمس الأسباب التي قصرت بشبابنا عن أن يبلغوا من الفن ما يريدون، وأن نجدَّ في استقصاء هذه

الأسباب، حتى إذا عرفناها وأحصيناها أو أحصينا أكثرها، بذلنا ما نملك من الجهد لإصلاح ما يحتاج إلى الإصلاح، وتغيير ما يحتاج إلى التغيير، وتهيئة الشباب لأن يتلَقَّوا الحياة محسِّين لها، شاعرين بها، بالغين بحسِّهم وشعورهم وفهمهم أعماقها وأعماق ما يكون فيها من الأحداث؛ لتتأثر بها قلوبهم وعقولهم وأذواقهم، وليحاولوا بعد ذلك تصوير ما يجدون من هذا التصوير، على أن يكونوا قد هيئوا لإحسان هذا التصوير، ومكنوا من أن يبلغوا به نفوس غيرهم من الناس.

فقد نستطيع أن نمضي إلى غير غاية في الحديث عن الفن للحياة والحياة للفن، وعن صعود الشعب إلى الفن في سمائه، أو هبوط الفن إلى الشعب في أرضه، وعن الفن للفن، والفن للناس، فكل هذا كلام قد قيل من قبلُ، وقد فرغ الناس منه أو كادوا يفرغون، وكان الذين يقولونه — وما زال الذين يخوضون فيه — لا يكتفون بالكلام، وإنما يضيفون إلى الكلام عملًا فينتجون، أو ينتج غيرهم آثارًا فنية تلائم المذاهب القديمة أو المذاهب الجديدة، ويكثر النقد لأولئك وهؤلاء، ويقرأ الناس كلام النقَّاد ويسعون إلى هذه الآثار الفنية، فينظرون ثم يرضون أو يسخطون. وتتصل الحياة الخصبة بين جماعات الشعب وبين أصحاب الفن، وبين أولئك وهؤلاء وبين الناقدين، ولا يصبح حديث الفن أشبه شيء بحديث الحالمين أو بهذيان المحمومين، وَلْيُرِح الكتَّاب أنفسهم، فهم مهما يفعلوا ومهما يكثروا الحديث ويطيلوا فيه، لن يستطيعوا تغيير طبيعة الفن.

لن يجعلوه للحياة، ولن يجعلوا الحياة له؛ لأنهم لا يريدون هذا أو ذاك، وإنما الحياة نفسها هي التي ستفرض على الفن أن يكون لها، والفن نفسه هو الذي سيفرض على الحياة أن تكون له عند بعض الناس، وأن تكون به عند أكثر الناس حين تقوى الحياة وترقى، ويهيِّئ الشباب للتأثُّر بها والتعبير عنها. ستفرض نفسها على فريق منهم فينتجون فنًّا رفيعًا، وسيفرض هذا الفن الرفيع على فريق آخَر منهم فيحاولون المحاكاة، ويتفوق منهم مَن يتاح له التفوق، وسيشيع الشعور بروعة الفن فيتأثَّر به كثير من الناس، ويتنافسون في السعي إليه والظفر به، والحرص على اقتناء آثاره وعلى معاشرة هذه الآثار ولقائها بين حين وحين، وستوجد الثروة الفنية، وسيضطر النقَّاد إلى أن ينقدوا، لأنهم سيجدون ما يقولون.

وقد عرض صديقي الزيات مثلًا من شعر شاعر قديم عاش مع الشعب في عصره ذاك البعيد، فصوَّر ألوانًا من حياته، وما أكثر ما عاش الشعراء القدماء مع الشعب، فصوَّروا من حياته ألوانًا! والمهم هو أن تكون حياة الشعب من القوة والخصب والنشاط

والتنوع بحيث تستطيع أن تفرض نفسها على الشعراء والكتَّاب والمثَّالين والمصوِّرين والموسيقيين، دون أن نرسم لأصحاب الفن طريقهم إلى الشعب ليهبطوا إليه، أو نرسم للشعب طريقه إلى أصحاب الفن ليصعد إليهم.

كل هذا لغو من اللغو، وكلام لا غناء فيه، وإنما الجوهر كل الجوهر أن نصلح حياة الشعب، ونصلح تثقيف الشباب وتعليمهم، ونمكِّن الشعب من أن يرقى إلى الفن شيئًا، ومن أن يُكرِه الفن على أن يهبط إليه شيئًا، ومن أن يتحقق بينهما هذا اللقاء الخصب الذي ينتج ما يتاح للأمم الراقية حقًّا من هذه الحياة الفنية التي لا تقف عند الحديث المعاد.

ونحن آخِذون في إصلاح حياة الشعب ما في ذلك شك، فأما أننا آخِذون في تهيئة الشباب ليكونوا قادرين حقًّا على أن يحملوا أمانة الفن الرفيع، وينهضوا بها وبأعبائها الثقال؛ فهذا هو الشيء الذي أشك فيه الشك كله.

ولكن الحديث في هذا يطول، وما ينبغي أن أوثر نفسي به، وإنما ينبغي أن يخوض فيه الكتَّاب لعلهم أن يستقصوا ما في تعليمنا وثقافتنا من خصال تباعد بين الشباب وبين ما نتمنَّى لهم وللفن من هذه الحياة الخصبة الرائعة، التي نحلم بها ولا نسمو إليها.

ومَا زال الغيث منهمرًا

وهو غيث على كل حال؛ لأنه يصرف القرَّاء عن حياتهم هذه العقلية الراكدة إلى لون من النشاط الذهني لا يتصل بالطعام ولا بالشراب، ولا بحاجات رمضان، ولا بحاجات العيد الذي يظلهم والذي أرجو أن يكون سعيدًا إن شاء الله. ولو لم يكن لتفكيري في ترجمة هذا الشاعر العظيم أثر إلا هذا الغيث المنهمر الذي لا يريد أن يكف، ولا أن ينقطع من جهة، وإلا تفكير الدولة في أن تعنى بالثقافة عناية خاصة، وتنشئ الأداة التي تجعل العناية حقيقة واقعة، وترصد المال الذي يتيح لنتائج هذه العناية أن تصل إلى الناس في دورهم، كما يصل الماء الذي يشربونه والهواء الذي يتنفسونه والنور الذي يستضيئون به حين يظلم الليل.

لو لم يكن لتفكيري في ترجمة هذا الشاعر العظيم إلا هذا الأثر، لكنتُ جديرًا أن أرضى به كل الرضى، وأن أغتبط به كل الاغتباط.

وإني لسعيد حين أفكر في أن رئيس الحكومة وزميله وزير التربية والتعليم، قد صَحَّ عزمهما على أن يجعلا الثقافة العليا — كما حاولتُ أن أجعل التعليم منذ أعوام — حقًّا شائعًا ميسَّرًا لكل مَن يسمو إليها كالماء والهواء، وإن كان لفظ الماء والهواء يغيظ بعض الأصدقاء.

والمهم أن الغيث ما زال ينهمر، وإني منذ عدتُ من سوريا ولبنان لا أكاد أقرأ الصحف في يوم من الأيام دون أن أجد في هذه الصحيفة أو تلك حديثًا عن ترجمة شكسبير.

وأنا أعلم أن البلاد العربية الأخرى تتحدث عن هذه الترجمة، وأن بعض الأدباء من أهل هذه البلاد يودون لو يشاركون فيها، ويعرضون عليَّ جهدهم في كل شيء من الإسماح الذي أشكره أجمل الشكر.

ولكننا في مصر مختصمون، والحمد لله، على أن هذه الخصومة ليست مقصورة عليَّ وحدي وعلى الذين يعارضونني في هذه الترجمة، ولكن أدباء آخرين قد تفضَّلُوا بمشاركتي في الدفاع عن ترجمة شكسبير، وأبلوا في ذلك فأحسنوا البلاء. بعضهم يشارك مشاركة صامتة ولكنها خصبة فيُقبِل على الترجمة، ويتجرد لها غير محجم عنها ولا متردِّد فيها، وبعضهم الآخر يشارك مشاركة ناطقة، فيرد على المعارضين ويجاذبهم أطراف الجدل.

وكذلك شُغِل فريق من كتَّابنا وقرَّائنا بأمر هذا الشاعر العظيم، وكانت هذه الخصومة تمهيدًا حسنًا يهيِّئ القرَّاء لاستقبال آثارِه الرائعة ممن تعرض عليهم إن شاء الله بعد شهور.

وكم أتمنى أن يُتاح لي شيء من مال قليل أو كثير لأدفع شبابنا وشيوخنا الذين يُحسِنون اللغات الأجنبية واللغة العربية إلى ترجمة كتَّاب وشعراء وفلاسفة غير شكسبير، ولأدفع كتَّابنا وقرَّاءنا إلى الخصومة العنيفة أو اللينة في هؤلاء الكتَّاب والشعراء والفلاسفة كما يختصمون الآن في شكسبير.

ومَن يدري، لعل مصر ما زال فيها قوم يعنون بالأدب والثقافة والفلسفة، ولا يكرهون أن ينزلوا لترجمتها عن شيء من فضول أموالهم، يبتغون تزكية نفوسهم وتطهيرها، ويبتغون بذلك أيضًا رضى الناس عنهم وثناء الناس عليهم، ويبتغون بذلك آخِر الأمر شيئًا من الإحسان إلى هذا الشعب الذي أحسن إليهم، فيسَّرَ لهم من الحياة الراضية والثراء العريض ما يمكِّنهم من أن ينشروا الخير من حولهم، وأي خير أنفع للشعب من هذا الذي يذكِّي العقول ويُحيِي القلوب، ويهذِّب الأخلاق، ويدفع إلى النشاط الثقافي الخصب؟

وما أكتب هذا الحديث لأطلب إلى أغنيائنا أن يتبرعوا بشيء من فضول أموالهم لتنشيط الحياة العقلية وتقويتها، فلستُ أحب هذا النوع من المطالبة ولا من الإلحاح، وإنما أكتبه لأشكر الذين خاصموني في ترجمة شكسبير، وللذين أيَّدوني أيضًا خصومتهم وتأييدهم؛ لأنها مظهر من مظاهر النشاط الثقافي الذي كنتُ أفتقده فلا أجده. وكم أحب أن تتصل هذه الخصومة وأن يثار أمثالها!

ثم أكتب بعد ذلك لأرد على بعض الذين يخاصمونني في هذه الترجمة، فقد تلقَّيْتُ آراء جديدة لم أردَّ عليها فيما سبق من الحديث.

قال قائلون لِمَ نترجم كل ما ترك شكسبير من الآثار، ولا نختار منها أجودها وأرقاها وأعظمها إمتاعًا وأدناها إلى عقولنا وأذواقنا، ونترك ما دون ذلك لننفق الجهد

والمال في ترجمة آثار فريق غير شكسبير من أعلام الثقافة والآدب والفلسفة؟ وأحب أن أقول لهؤلاء السادة إني أولًا شديد التأثُّر والإعجاب بقول النبي ﷺ لبعض أصحابه، ما معناه: إن الله يحب من العبد إذا أخذ في عملٍ أن يحسنه. وما أشك في أن آثار الكتَّاب والشعراء النابهين شيء يتم في نفسه بعد أن يفرغ أصحابه من الإنتاج، وبعد أن يستأثر بهم الموت. وترجمة بعض هذه الآثار دون بعضها الآخَر نقص لا يليق بالقادرين على التمام. وما أحب أن أستبيح لنفسي ولا لطائفة من أمثالي القضاء بأن بعض آثار هذا الكاتب أو ذاك أجدر بالعناية من بعضها الآخَر، ولا بأن يقال: بعض هذه الآثار أرقى وأقوم من بعضها الآخَر؛ ففي ذلك شيء من الجراءة لا أستحبه، وفي ذلك شيء من الاعتداء على الكتَّاب والشعراء لا أسيغه، وفي ذلك آخِر الأمر اعتداء على أذواق القرَّاء. فالاختيار قطعة من الذوق وهو بعض العقل بالقياس إلى الذين يختارون، وما أحب ولا أستبيح أن أجعل ذوقي وعقلي مقياسًا لأذواق الناس وعقولهم، ولا أن أفرض عليهم ما يؤثره ذوقي وعقلي من الاختيار، وأنا أستطيع أن أختار لنفسي إن شئت، ولكني أرى من الغرور أن أفرض اختياري على غيري.

وأقول بعد هذا كله إننا قد امتحنا بالاختيار كما امتحنت أمم أخرى به منذ أقدم العصور، فأبو تمام يختار حماسته والبحتري حماسته، والذين يختارون من جيد الشعر والنثر كثيرون في اللغة العربية وفي غيرها. وليس بهذا الاختيار بأس وإن كنتُ لا أحبه، ولكن الاختيار لا يستقيم إلا إذا أتيح للقرَّاء أن يتجاوزوه إلى قراءة الأصول التي يكون منها الاختيار.

وقد اختار قدماؤنا ولكنهم لم يلغوا الدواوين التي اختاروا منها، ولا كتب النثر التي اختاروا منها أيضًا. وما زال الناس في بلاد الغرب يختارون من روائع الأدب، ولكن اختيارهم يصورهم هم ولا يلغي الأصول التي اختاروا منها؛ ليستطيع كل قارئ أن يرجع إليها وأن يختار منها إنْ شاء.

وقال قائلون: فيمَ ترجمة آثار شكسبير كلها من جديد، وقد تُرجِم منها شيء كثير، فلِمَ لا يُترجَم منها ما لم يسبق نقله إلى اللغة العربية؟

وأحب أن أقول لهؤلاء السادة إن آثار الكتَّاب والشعراء النابهين تُترجَم في البلاد الراقية مرات مختلفة كثيرة جدًّا، فليس علينا ولا على شكسبير بأس أن نترجمه مرتين أو مرات، ولو ذهبت أحصي عدد التراجم التي نقلت شكسبير إلى اللغات الأوروبية الكبرى وحدها، لأنفقت في ذلك جهدًا ضخمًا ووقتًا طويلًا، والتراجم تتفاوت فيما بينها دقة

وتقصيرًا، وجودةً ورداءةً، وفيها ما يرتقي لفظه وأسلوبه وأداؤه، وفيها ما يضطرب لفظه ويفسد أسلوبه ويسمج أداؤه.

ومن الناس مَن ترجموا شكسبير عن الفرنسية؛ لأنهم لم يكونوا يُحسِنون اللغة الإنجليزية، وما أظن أن مثل هذا النوع من الترجمة يمكن الرضى به أو الاطمئنان إليه. وقد آن لنا إذا أخذنا في عمل أن نحسنه، وإذا أخذنا في ترجمة أن ننقل عن اللغة التي كتب فيها الأديب أو العالم أو الفيلسوف.

فأما الترجمة عن لغات أخرى غير لغة المؤلفين فقد لجأ إليها قدماؤنا حين نقلوا الفلسفة اليونانية عن السريانية، وحين نقلوا بعض الآثار الهندية عن الفارسية، ولجأنا نحن إليها في العصر الحديث، وقد آن لنا فيما أعتقد أن نعدل عن هذا النقص ونبرأ من هذا القصور.

ومن أجل هذا دعوت — وما زلت أدعو ملحًّا — إلى تعليم اللغات الأوروبية الكبرى كلها في مدارسنا الثانوية، وفي جامعاتنا؛ حتى لا ننقل آثار الكتَّاب الألمانيين مثلًا أو الروسيين عن الترجمة الفرنسية أو الإنجليزية لهؤلاء الكتَّاب.

وقال قائلون: ما للجامعة العربية ولترجمة شكسبير؟ أليس الحق على هذه الجامعة أن تترجم للعرب ما يمس عروبتهم، وما يمس منافعهم المختلفة السياسية والاقتصادية والثقافية، بشرط أن تكون هذه الآثار الثقافية متصلة بهم وبأوطانهم؟

وأنا أعتذر إلى هؤلاء السادة إنْ قلت لهم إنهم يفهمون جامعة الدول العربية على غير تفهُّم الجامعة نفسها؛ فهي حين أنشأَتْ لجنتَها الثقافية وإدارتها الثقافية أيضًا، كانت أوسع منهم أفقًا وأبعد منهم همًّا، وهي لا تقصر في ترجمة ما يتصل بالعروبة وبالوطن العربي ممَّا كتب الغربيون، ولكنها لا ترى أن تقف نشاطها عند هذا الحد، وإنما تريد أن توسع الثقافة العربية العامة إلى أبعد مدى وترفعها إلى أرقى منزلة، وترى في ذلك ترقيةً للشعوب العربية وتمكينًا لها من الأخذ بأسباب النهضة الصحيحة السريعة المنتجة. ونُظُمها بعد ذلك لا تتيح لرئيس اللجنة الثقافية كائنًا مَن يكون أن يستبدَّ برأيه في الترجمة والنشر، ويمضي فيها على هواه، ولكنها تفرض عليه أن يظفر بموافقة اللجنة الثقافية نفسها، ثم بموافقة مجلس الجامعة بعد ذلك، فرئيس لجنتها الثقافية عضو من أعضائها لا أكثر ولا أقل، وله من هذه الناحية حق الاقتراح كغيره من الأعضاء، فإذا أقرَّ اقتراحه من اللجنة والمجلس أصبح مشرفًا على التنفيذ.

فَلْيطمئن هؤلاء السادة، فإني لم أكلف الجامعة العربية فوق ما تطيق، ولم أدفعها إلى ميدان من ميادين النشاط يجافي نُظُمها واختصاصها.

أما بعدُ، فما بالنا لا نختصم إلا في ترجمة شكسبير، مع أن للجامعة نشاطًا آخَر في ترجمة كتب أخرى غير آثار شكسبير، ولها نشاط نرجو أن يكون قويًّا خصبًا في إحياء الأدب العربي القديم.

أليس ينبغي أن تثار الخصومات حول هذه الألوان من النشاط؟ فإني أحب هذا اللون من الغيث الذي لا ينهمر، فيُخرِج العقول والقلوب عن يسر الحياة اليومية التي نحياها.

والفلسفة

نعم والفلسفة، أنترجمها إلى العربية كما ترجمها الأولون من العرب فغيَّروا بترجمتها طبيعة الحياة العربية، وأقاموا بفضلها هذه الحضارة الإسلامية الرائعة التي كان لها أثرها الخطير في إحياء أوروبا في القرون الوسطى، قبل أن يتاح لها العلم المباشر بفلسفة الأولين وآدابهم وفنونهم على اختلافها؟

هذا سؤال لا يلقيه المعاصرون كما ينبغي أن يلقى، ولا يفكِّرون فيه كما يجب أن يكون التفكير فيه، وإنما يقطعون فيه بالرأي الحازم الجازم، ثم يهجمون برأيهم هذا في غير تحفُّظ ولا تثبُّت ولا روية ليهدموا آراء غيرهم هدمًا ويدكُّوها دكًّا، فالمعاصرون من كتَّابنا محاربون يتقنون أساليب الهجوم، ويتفوقون في المصاولة والمجاولة والمطاولة، حتى حين لا يصاولهم ولا يجاولهم ولا يطاولهم أحد، ولعلهم إنما يهاجمون حيث لا موضع للمهاجمة، ويصولون ويجولون حيث لا موضع لصيال أو جيال، وربما كان الخير في أن يأخذوا ما يعرض لهم من الأمور أخذًا رفيقًا هينًا فيه شيء من سعة الخلق، وسماحة النفس، وسجاحة الطبع، ورجاحة الحلم، ذلك أجدر أن يهديهم ويهدي غيرهم إلى الحق، وأحرى أن يدلهم ويدل غيرهم على الصواب، ولكنهم أخذوا نفسهم بالعنف في غير موضع للعنف، والجدال في غير حاجة إلى الجدال، والقصة كلها تنحلُّ — كما يقال — إلى عناصر ثلاثة تعمل مجتمعة أحيانًا، وتعمل متفرقة أحيانًا أخرى، فأحد هذه العناصر الافتتان بالألفاظ والانخداع بالظواهر، قوم يرون المخترعات الحديثة وما أتيح للغرب عامة، ولأمريكا خاصة، من التفوق في تجديد الحياة المادية التي يحياها الناس، وابتكار الأدوات الرائعة والمروعة فيبهرون ويسحرون، وقد ألقي في روعهم أن هذه المخترعات التي تملأ الحياة دعة وسعة، والتي تعرِّض الحياة للموت والفناء، إنما مردها إلى تقدُّم العلم ورقيِّه، فيدعون مسرعين إلى ترجمة العلم، لا يتحفظون ولا يتثبتون ولا يسألون

أنفسهم كيف تكون ترجمة العلم؟ ولمن تكون؟ ولماذا تكون؟ ومن الذين سينتفعون بهذه الترجمة؟ وما عسى أن يكون أثر هذه الترجمة في تمكين العرب خاصةً والشرقيين عامةً من المشاركة في الاختراع والابتكار، وتجديد الحياة وتعريضها للهول والفناء.

وثاني هذه العناصر: ما أَلِف الناس في هذه البلاد من تعصُّب كل أمرئ لما يحسن ولما يظن أنه يحسن؛ فالمؤرخ لا يعدل بالتاريخ علمًا، والفيلسوف لا يعدل بالفلسفة شيئًا، والرياضي يرى الرياضة أول العلم وآخَره، والأديب يرى الأدب قوام الحياة. وقد بلونا ذلك حين رأينا رجال التعليم يحاولون أن يضعوا مناهج الدرس وبرامجه للمدارس الابتدائية والثانوية، فتتعصب كل جماعة لما تمارس من ألوان العلم، يريد كل فريق منهم أن يقيم التعليم ومناهجه وبرامجه على اللون الذي يفرغ له ويتخصص فيه.

وينسون جميعًا أن الثقافة مزاج يجب أن يأتلف من عناصر مختلفة، وأن تعتدل فيه هذه العناصر فلا يطغى بعضها على بعض. أما العنصر الثالث فيسير جدًّا، وهو الحرص على المشاركة في كل ظاهرة من ظواهر النشاط للظفر بنصيب قليل أو كثير من نتائج هذا النشاط، مادية كانت أو معنوية.

وقد قيل للناس إن رئيس الحكومة أرصد خمسين ألفًا من الجنيهات للترجمة، فكل قادر على الترجمة ينبغي أن يكون له نصيب من هذه الألوف الخمسين، نصيب قليل أو كثير، فشيء خير من لا شيء، ومال الشعب يجب أن يُرَدَّ إلى أكثر عدد ممكن من الشعب، وأحب أن أريح هؤلاء الطامعين الطامحين بالحق وبغير الحق، فأؤكد لهم أن رئيس الوزراء لم يضع تحت تصرُّفي ألفًا واحدًا ولا آلافًا قليلة ولا ألوفًا كثيرة، ولم يطلق يدي في مالٍ ما لأنفقه كما أحب وأهوى، وإنما أظهر استعداده للعناية بشئون الأدب والفن والإنتاج الثقافي كله، وعهد إلى زميله وزير التربية والتعليم وضع ما تقتضيه هذه العناية من نظام.

ووزير التربية والتعليم جادٌّ فيما طلب الرئيس إليه، فَلْينتظر الطامعون والطامحون إذن، فقد يتاح لكل واحد منهم نصيبه من هذه الألوف التي قد تبلغ الخمسين، وقد تزيد عليها كثيرًا.

وَلْنعد بعد ذلك إلى الذين يجادلون ويناضلون ويحاولون ويصاولون منخدعين بالألفاظ والظواهر، أو متعصبين لما يحسنون أو ما يظنون أنهم يحسنون من ألوان المعرفة، فندعوهم إلى كلمة سواء تريحهم وتريحنا وتريح الناس جميعًا من هذا الجدال العقيم الذي لا يغني عن أحد شيئًا. فأما الذين يحبون ترجمة العلوم، فمن حقهم أن

يطلبوا ذلك إلى العلماء وإلى الحكومة، وقد أُنشِئ في مصر منذ حين مجلسُ البحوث العلمية، فَلْيطلبوا إليه من ترجمة العلم ما يريدون، وَلْيطلبوا إلى الدولة أن تيسِّر له ذلك، فتعيد النظر في نظامه وتمنحه من المال ما يمكنه من البحث وإعانة الباحثين، وما يمكنه من الترجمة وإعانة المترجمين إلى أبعد حدٍّ ممكن، فليس عليهم في مطالبة المجلس والحكومة بهذا كله حرج أو جناح، فهم يعيشون في وطن ناهض طامح إلى المجد، حريص على أن يشارك في تنمية الحضارة الإنسانية، ومن حقهم أن يطالبوا بتوجيه هذا الطموح إلى حيث يرون الخير.

وأما الذين يطلبون ترجمة الفلسفة، فمن حقهم أن يطلبوا هذه الترجمة إلى المجلس الجديد الذي تريد الحكومة إنشاءه ليقوم على رعاية الآداب والفنون والثقافة، وأظنهم لا يكرهون أن ينتظروا نشأة هذا المجلس، فإذا تمت نشأته وأخذ في عمله طلبوا إليه ما يحبون. وأنا مؤمن أشد الإيمان وأقواه بأن ترجمة أصول الفلسفة الإنسانية ضرورة من ضرورات الحياة الراقية، في كل وطن يطمح إلى الرقيِّ ويجدُّ في سبيله، وأنا مؤمن كذلك بأن لا أمل لوطنٍ حيٍّ يريد أن يرقى وأن يكون لحياته حظ من خصب، لا أمل لهذا الوطن في أن يبلغ ما يريد إلا إذا عرف أصول الفلسفة الإنسانية على اختلاف مذاهبها وأوطانها.

ولكن كنتُ أحب لهؤلاء ألَّا يسرفوا على أنفسهم، وعلى الناس، بهذا الكلام الذي يُرسَل إرسالًا في غير تحفُّظ ولا تثبُّت ولا احتياط، فالأولون من العرب لم يُؤْثِروا الفلسفة على الأدب حين ترجموا ما ترجموا من آثار الأولين، وإنما ترجموا ما عرفوا وما أُتِيح لهم أن يترجموا، ولو أنهم عرفوا الآداب اليونانية واللاتينية كما كان ينبغي أن تُعرَف لما قصروا في ترجمتها، وما أكثر السخف الذي يقال عن غير بحث أو تحقيق! فالعرب لم يترجموا شعر هوميروس ولا شعر بندار، والعرب لم يترجموا تمثيل الشعراء التمثيليين إعراضًا منهم عن هذه الألوان من الأدب؛ لأنها كانت — فيما يزعم الزاعمون — وثنية لا تلائم الإسلام، كأن كل ما ترجموا من الفلسفة كان يلائم الإسلام ويطابقه ولا يخالفه قليلًا أو كثيرًا! ولا أعرف مقالةً أشد إمعانًا في الحمق والسخف من هذه المقالة.

فقد ترجم العرب من فلسفة الفلاسفة ما يخالف الإسلام أشد الخلاف، لم يمنعهم ذلك من ترجمته والرد عليه، وقد وُجِد بينهم في العصور الأولى من خلب لبَّه بعضُ الآراء الفلسفية المخالفة للدين، فألَّف في ذلك الكتب، وكتب فيه المقالات، ونظم فيه الشعر، يجاهِر بذلك حين تتاح له المجاهَرة، ويستخفي بذلك حين لا يكون له بد من الاستخفاء.

إنما ترك العرب ترجمة الآداب القديمة لأنهم لم يعرفوها حق معرفتها، وهم لم يعرفوها لأن المسيحية هي التي سبقت إلى الإعراض عنها واضطرتها إلى أن تستخفي وتختبئ حتى تستكشف في العصور الحديثة، وقد كان المسيحيون — كما كان المسلمون — يذكرون الشعراء القصصيين والغنائيين والتمثيليين؛ لأن أسماء هؤلاء الشعراء وقعت إليهم، ولكن أولئك وهؤلاء لم يقرءوا آثار هؤلاء الشعراء؛ لأنها لم تكن شائعة ولا مألوفة عن اليونانيين في الشرق، ولا عند الذين كانوا يتكلمون اللاتينية في الغرب.

وأنا مطمئن إلى أن العرب لو عرفوا الشعر التمثيلي اليوناني جده وهزله لترجموه، ولحاولوا أن يصنعوا مثله، ولحاولوا كذلك أن ينشئوا التمثيل، وأن يجعلوه فنًّا عربيًّا أصيلًا، كما ترجموا الفلسفة ثم جعلوها فلسفة عربية أصيلة.

فالعرب إذن لم يتعمدوا الإعراض عن ترجمة الآداب القديمة، وإنما اضطروا إلى هذا الإعراض اضطرارًا. وهَبْهم تعمَّدوا هذا الإعراض، فمَن الذي يستطيع أن يلزمنا أن نُخطِئ كما أخطئوا، ونقصر كما قصروا — إنْ كانوا قد تورَّطوا في خطأ أو تقصير؟

ليطمئن الذين يريدون ترجمة الفلسفة، فسنترجم الفلسفة إلى اللغة العربية، ما في ذلك شك، وسيُترجَم قديمها وحديثها مهما تختلف مذاهبها وأوطانها؛ لأن طبيعة الحياة المصرية الحديثة تقتضي هذه الترجمة وتفرضها فرضًا. وفيمَ هذه الخصومة كلها؟ أو فيمَ كل هذا اللغو الذي لا ينفع ولا يفيد؟ لقد قلت في حديث مضى إن الناس جميعًا لا يستطيعون أن يقرءوا العلم، ولا أن يصبحوا بحكم هذه القراءة علماء، وإن العلماء يُحسِنون اللغات الأجنبية ويقرءون فيها علمهم، وهم ليسوا في حاجة إلى أن يترجم لهم. وأقول مثل هذا بالقياس إلى الفلسفة، فليس كل الناس يستطيع أن يسيغ فلسفة ديكارت وكانت وأوجست كونت وأمثالهم من أعلام الفلسفة في العصور القديمة والحديثة، وإنما يسيغها وينتفع بها الذين يفرغون لها من الأساتذة والطلاب وأصحاب الثقافة العليا. وكل هؤلاء يُحسِنون لغة أجنبية، فترجمة العلم والفلسفة تستطيع أن تنتظر قليلًا حتى تُهيَّأ لها الوسائل المادية والفنية، وليس في انتظارها ضرر قليل أو كثير، ولا أعرف أحدًا يستطيع أن يجادل في أن قرَّاء الأدب والمنتفعين به والحريصين عليه أكثر جدًّا من قراء العلم والفلسفة. وأنا حين أفكر في هذه الأشياء لا أفكر في مصر وحدها، وإنما أفكر في البلاد العربية كلها، وأفكر في كل الذين يتخذون اللغة العربية وسيلة إلى الثقافة، وإلى الثقافة العليا خاصةً. وأنا لا أحاول ترجمة شكسبير وغيره من أعلام الأدب والثقافة باسم الحكومة المصرية، وإنما باسم العالم العربي كله. فليس بأس إذن من أن نبدأ بما

ينفع أضخم عدد ممكن من العرب، وأن ننتظر قليلًا بما ينفع الخاصة حتى يتاح لنا من الأسباب ما يمكننا من أن نترجم للخاصة وللكثرة معًا، ولن يطول هذا الانتظار؛ فالحكومة معنية بهذا الأمر جادة فيه، كما لم تُعْنَ به ولم تجدَّ فيه حكومة أخرى من قبلها.

فالذين يخلصون للعلم والفلسفة يستطيعون أن ينتظروا مطمئنين، والذين يحرصون على أن يكون لهم نصيب من النشاط في ترجمة العلم والفلسفة يستطيعون أن ينتظروا مطمئنين أيضًا، والذين يطمعون في أن يأخذوا بحظوظهم من الألوف الخمسين أو الستين أو من مئات الألوف، يستطيعون كذلك أن ينتظروا مطمئنين، فإذا كانوا لا يحبون الانتظار ولا يريدون إلا العجلة، فَلْيُوَجِّهوا إلحاحَهم وتعجُّلَهم إلى رئيس الوزراء ووزير التربية والتعليم لا إليَّ أنا، فلستُ أملك من هذه الألوف الكثيرة أو القليلة شيئًا، ولو قد ملكتُ منها شيئًا لملأتُ عليهم الأرض علمًا وفلسفةً وأدبًا وفنًّا، ولما أكرهتهم على أن يطالبوني بشيء من الريث والأناة، لكثرة ما أفرض عليهم من الجد والجهد والنشاط.

أما بعدُ، فإن الشاعر القديم لم يخطئ حين قال:

قَدِّرْ لِرِجْلِكَ قَبْلَ الْخَطْوِ مَوْضِعَهَا — فَمَنْ عَلَا زَلَقًا عَنْ غِرَّةٍ زَلِجَا

وأيُّ تقدير للخطو أوجب من تقدير الوسائل المادية والفنية التي تتيح لنا الترجمة في غير تعرُّض لزلل، أو خطل، أو توقُّف في أثناء الطريق.

مَثَل

ليل ساجٍ، وظلام داجٍ، وسحاب ثقال كأنها الجبال، وبرد تجمد له الدماء في العروق، وتتحجر له الأطراف، وتنضب له ينابيع الحياة، وبرد ينهمر من السماء انهمارًا تسوخ فيه الأقدام حين يمشي أصحابها، وتكسى منه الأجسام معاطف من ثلج تستأصل كل ما فيها من حرارة، وجماعات كثيرة من الناس مع ذلك لا تجد البيوت التي تأويها، ولا النار التي تدفئها، ولا الطعام الذي يغذيها، فهي هائمة تتكفف الناس حين يتيح لها اعتدال الجو وإسماح الطبيعة أن تهيم، وهي قائمة واجمة تنتظر الموت حين يحول اضطراب الجو وعنف الطبيعة بينها وبين الحركة والاضطراب في الأرض، وبسط الأيدي وإراقة ماء الوجوه وابتذال حياء النفوس التماسًا لما يقيم الأود من القوت.

كذلك كانت باريس حين اجتاحتها موجة البرد التي اجتاحت أوروبا في الأيام القليلة الماضية، وفي ليلة من هذه الليالي الهوج حين تجاوز الليل نصفه، وكاد يبلغ ثلثيه، كانت مئات كثيرة من الناس، فيهم الرجال والنساء وفيهم الشباب والكهول، قد وقفوا تحت السماء وقد غاصت أقدامهم من البرد، وجلل أجسامهم ما يسَّاقط منه، بل ما ينهمر منه انهمارًا، والريح الباردة تهب عليهم من كل وجه، وتأخذهم عواصفها من جميع أقطارهم، وقام على أصل جدار متهدم قسيسٌ يخطبهم فينسيهم أنفسهم ويصليهم بخطبته نارًا تحرق قلوبهم ونفوسهم، يذكِّرهم بإخوانهم أولئك الذين يهبط الموت إليهم من السماء وينجم لهم من الأرض، ويسعى إليهم على أجنحة الريح لأنهم لا يجدون مأوى ولا نارًا ولا كساء ولا غذاء. والميسورون من حولهم ساهون لاهون، لا يحفلون بهم، ولا يلتفتون إليهم، ولا يلقون إليهم بالًا ولا يعلمون بمكانهم، إنما هم بين جادٍّ ينعم في دعة بما أنتج له جده، وبين لاهٍ يستمتع في استخفاف بما أتاح له ثراؤه العريض. ثم يكفُّ الخطيب عن الكلام وتنطلق الأيدي بالتصفيق إن أتيح لها التصفيق، ثم يتفرقون

مسرعين، منهم مَن تمضي بهم السيارات مبارية للريح، ومنهم مَن يعدون في كل وجه ما استطاعوا العدو، وقد مضوا جميعًا يلتمسون إخوانهم أولئك على شواطئ السين، وعند جسوره وعند أفواه المترو، وفي كل مكان يألفه المضيعون من الناس.

حدث ذلك في ليلة من تلك الليالي الهوج، ثم حدث بعد ذلك في الليالي الهوج كلها، ثم لم يلبث أن أصبح نظامًا يحدث في الليل والنهار، ويحدث حين تثور الطبيعة وحين تهدأ، وحين تعصف الرياح وحين تسكن، وحين يعنف البرد وحين يخف، كان يحدث أول الأمر لدفع الخطر الداهم الذي أثاره عنف الطبيعة، ثم أصبح يحدث في كل يوم لما استقر في النفوس من أن للإنسان — بحكم أنه إنسان — الحق كل الحق في ألَّا يجوع ولا يظمأ ولا يعرى ولا يتعرض للآفات التي تأتيه من فقد المأوى.

وكان أصل هذا كله ذلك القسيس الذي استطاع أن يلهب النفوس، ويقر في القلوب جذوة لا تبرد، إلا إذا طعم جائع واكتسى عريان وجُبِر مسكين، ثم لم يستطع هذا القسيس أن يثير نفوس الأفراد وحدهم، بل أثار معها نفوس الجماعات، فأخذت تتبارى في الجود وتستبق في السخاء، وتتنافس أيها يكون أعظم برًّا بالبائسين والمحرومين، ثم أثار الدولة نفسها فجعلت تسرع إلى تقديم المعونة العاجلة، وترصد المال لتحتاط لهذا الشر العظيم فيما تستقبل من الأيام.

ويستطيع كلُّ مَن أقام في باريس أو ألمَّ بها أن يرى فندقًا من فنادق الترف في شارع من الشوارع الممتازة قد جمع الثراء العريض والبؤس المهلك بين جدرانه، فسكانه من المترفين يغدون ويروحون ويتحدثون في أبهائه أثناء النهار ويسمرون فيها أول الليل، ويرون مع ذلك أفواجًا من البائسين المحرومين، يمرون بهم قاصدين إلى تلك الحجرات التي خُصِّصَتْ لاستقبالهم، وأقام فيها فريق من الناس يوجِّهونهم إلى حيث يجدون ما يحتاجون إليه من المأوى والطعام والكساء والغذاء.

ذلك أن القسيس قد اختار هذا الفندق منزلًا له، وما أسرع ما أقنع أصحاب الفندق بأن يعينوه على الخير فأجابوه إلى ما أراد! وإذا الفندق يئوي مع القسيس شابين تخرَّجا في مدرسة الهندسة العسكرية، وهما يعملان معه كاتبين له قد تطوَّعَا بجهدهما كما تطوَّع القسيس بجهده، وتطوَّع آخرون من الشباب والشيوخ بالساعات من أوقاتهم تقصر وتطول، وهم يجلسون في تلك الحجرات يعطون السائل، ويُطعِمون الجائع، ويسعفون المحتاج، ويوجِّهون طالب المأوى إلى حيث يستطيع أن يقيم. وهذه محطات السكك الحديدية تخصِّص قاعاتها لإيواء الذين لا يعرفون أين ينفقون الليل، وتذهب

مذهبها محطات المترو، وتذهب مذهبها كثير من المؤسسات المختلفة، والمتطوعون على ذلك يطوفون في باريس ليلًا ونهارًا يجمعون البائسين والمحرومين، ويأخذونهم طوعًا أو كرهًا إلى حيث يجدون اللين بعد الشدة، والطعام بعد الجوع، والمسكن بعد العراء.

والغريب من أمر القسيس أنه نشأ في أسرة غنية موفورة الغنى، يأتيها ثراؤها العريض من إحدى صناعات الترف، وهي صناعة الحرير في مدينة ليون.

وقد كان منذ شبابه الأول شديد الألف للعمال الذين يعملون في مصانع أسرته، يحبهم ويعطف عليهم، ويتتبع حاجاتهم ويعينهم عليها ما وجد إلى ذلك سبيلًا. وقد تعلَّم كما يتعلَّم أمثاله، ولكن البؤس الذي رآه مصبحًا وممسيًا ينتج السعادة، والحرمان الذي رآه في كل يوم ينتج الغنى، والعناء الذي رآه كل ساعة ينتج الراحة وخفض العيش، كل ذلك زهَّدَه في الدنيا وصرفه إلى الدين، فأقبل عليه مستجيبًا لهذه الدعوة الكريمة التي يوجِّهها الدين إلى قلوب الأخيار، وأصبح قسيسًا فلم يفرغ لشئون العبادة، ولم يقف نفسه على كنيسة من الكنائس، وإنما عاش مع الناس وأراد أن يصلح حياتهم ما يستطيع إصلاحه، حاول ذلك عن طريق السياسة فأصبح نائبًا، ثم لم يلبث أن رأى طريق السياسة غير منتجة فانحرف عنها، وانصرف إلى مواجهة الأفراد والجماعات، يوقظ ضمائرهم وينبِّههم إلى الواجبات التي يقصرون في أدائها، وإلى الحقوق التي يهملون في طلبها، وإلى الحب الذي يجب أن يكون قوام الصلة بين الناس، وإلى المعروف الذي يجب أن يكون دواء العلل الاجتماعية على اختلافها، وتهيِّئ له الطبيعةُ بثورتها الجامحة الأخيرة فرصةً أي فرصة، فيحسن انتهازها ويتاح له من النجاح ما أتيح.

وإذا هو يوقظ الضمير الفرنسي من نوم عميق، وإذا الفرنسيون يستجيبون له أفرادًا وجماعات، ثم يستجيبون له شعبًا وحكومة، وإذا نوع من النشاط الاجتماعي لمعونة المحتاجين لم تشهده فرنسا منذ عهد بعيد، وإذا كثير من الفرنسيين تتنبه في نفوسهم عاطفةٌ دينيةٌ قويةٌ، فيرون هذا القسيس قديسًا من القديسين الذين كانوا يظهرون فيما مضى من الزمان، ومنهم مَن يسمِّيه باسم القديس المشهور سان فنسان دي بول.

والقسيس نفسه ماضٍ في طريقه لا يحفل برأي الناس فيه، وإنما يعنيه شيء واحد هو أن تبلغ دعوته القلوب، وأن يستجيب لها الناس كلٌّ في حدود طاقته، وأن يستيقظ في الفرنسيين هذا الشعور الذي لا قوام للأمم بدونه، وهو شعور التضامن بين أبناء الشعب الواحد، حتى يصبحوا وكأنهم إخوة لا يسعد أحدهم إلا إذا سعدوا جميعًا، ولا يشقى أحدهم إلا أصابهم جميعًا ما أصابه من الشقاء، وكأنهم أعضاء في جسم واحد لا يألم

عضو إلا شاع الألم في الجسم كله. وكذلك استطاع هذا الرجل الفرد أن يوقظ شعبًا، وأن يسخِّر سلطان الدولة ليستجيب لهذه اليقظة العامة، ثم هو بعد هذا كله ماضٍ في عمله يجمع المال من الأغنياء والفقراء، ومن الهيئات الحرة والمصالح الحكومية، ومن مجالس البلديات ومجالس الأقاليم، ويجنِّد الأفراد للتعاون على البر والتقوى والسعي بالخير والمعروف بين الناس، آمَنَ بالإصلاح فسيطر الإيمان على عقله وقلبه وضميره، ثم استفاض الإيمان من حوله فألقى في نفوس مواطنيه ضياء ونورًا، قرأ في الإنجيل أن الإيمان يزيل الجبال من أماكنها فآمَن بما قرأ، وجرَّب فأسعفته التجربة وأزال من قلوب مواطنيه ما تراكم فيها من الكسل والغفلة، ومن الأثرة والانهماك في اللَّذَّات والاستباق إلى نعيم الحياة، وحبَّبَ إليهم الخير والبر، وأثارهم للتنافس في المعروف والإحسان.

كل ذلك وفي حياة الفرنسيين من الإصلاح الاجتماعي ما لم نحاول بعضه نحن إلى الآن، ولكن أخَصَّ صفات الإصلاح أنه أشْبَهُ شيءٍ بالأنهار الجارية، لا ينبغي لها أن توقف ولا أن تُهمَل مجاريها، وإنما ينبغي أن تُتعهد بالعناية والرعاية حتى تفيض بالخير على الناس جميعًا، وعلى الطبيعة الحية كلها.

كم أحب أن يتفكر المواطنون من المصريين في هذا المثل الرائع الذي ظهر في فرنسا فجأةً وعلى غير انتظار. إن في وطننا ثورةً تريد الإصلاحَ، ودعوةً إلى الخير يجب أن تشمل وتعم، وأن تتجاوز الآذان التي تسمعها والألسنة التي تكرِّرها إلى القلوب والنفوس والضمائر، فتستقر فيها مسيطرةً عليها موجِّهةً لها.

كم أحب أن تصدر دعوتنا إلى الخير من قلوبنا ومن أعماق ضمائرنا لتبلغ قلوب غيرنا وأعماق ضمائرهم، فإن القلوب تُحسِن التحدث إلى القلوب، والضمائر تُحسِن الإيحاء إلى الضمائر. ثم كم أحب آخِر الأمر أن يتفكَّرَ رجالُ الدين ويتدبَّروا ويذكروا أن دعوة القرآن إلى الخير والبر والإصلاح ليست أقل حرارةً وإلحاحًا من دعوة الإنجيل، وأن قلوب المصريين وضمائرهم ليست أقل خصبًا واستجابةً من قلوب الفرنسيين وضمائرهم، وأن مصر ليست أقل حاجةً إلى الإصلاح من فرنسا، وأن المصريين ليسوا أقل قدرةً من غيرهم على أن يسمعوا القول فيتَّبِعوا أحسنه، وعلى أن يُدعَوا إلى الخير والإصلاح فيجيبوا إلى الخير والإصلاح.

واجب

نعم واجبٌ، طالما أرجئ واتصل التقصير في أدائه بأسباب كثيرة مختلفة، منها ما يساغ ومنها ما لا يساغ، حتى كان التفكير في أدائه منذ أكثر من عشرين عامًا، حين أراد الأزهر الشريف أن تُنقَل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، وأن يكون نقله إلى نفر من المسلمين الذين يُحسِنون العلم بدقائقه، ويفهمون أسراره حق فهمها، ويتقنون لغته حق إتقانها، ويملكون اللغة الأجنبية التي ينقلون إليها ملكًا يتيح لهم أن يتصرفوا فيها تصرُّفَ القادرين عليها، المطوِّعين لها، المجيدين لإيداعها أدقَّ المعاني في بلاغةٍ تلائِمُ مكانةَ القرآن، ومقامَه الرفيع من البيان العربي.

وقد أحس الأزهر الشريف أنَّ نقْلَ القرآن ببيانه الرائع المعجز إلى لغة أجنبية شيءٌ لا مطمع فيه ولا سبيل إليه، فآثَرَ التواضع، ولم يفكر في ترجمة القرآن كما يُترجَم غيره من الكتب، وإنما فكَّر في نقل معانيه إلى اللغات الأجنبية اعترافًا بالقصور عن الترجمة بمعناها الدقيق، وتجنُّبًا لكثير من الحرج الذي يأتي من الدين والفن جميعًا.

وكان الأزهر موفَّقًا مُنصِفًا في هذا التواضع، فالترجمة في نفسها عسيرة أشد العسر، وهي ممتنعة بالقياس إلى الآيات الأدبية الرائعة، فكيف بالقرآن المعجز الذي لم يستطع العرب أن يأتوا بمثله في لغتهم التي نشئوا عليها وبرعوا فيها، وبلغ النابهون منهم أقصى ما يمكن أن يبلغوا من القدرة عليها والتطويع لها والسحر بما أتيح لهم من البيان والتبيين!

وقد استجابت الحكومة في ذلك الوقت لإرادة الأزهر، وقرَّرت النهوض بالأعباء المادية لهذا الثقل، وأرصدت لذلك في ميزانيتها المتتابعة مقدارًا رمزيًّا من المال يتيح للأزهر أن يبدأ عمله، حتى إذا خطا فيه الخطوات الأولى أنفقت الحكومة على العمل عن سعة، وفي غير بخل ولا تقتير.

ولكن الأزهر أكثر الحديث في هذا الموضوع، ثم سكت عنه فجأةً، وظلت الحكومة ترصد هذا المقدار الرمزي في ميزانياتها أعوامًا متَّصِلة، والأزهر ساكن لا يعمل شيئًا، وساكت لا يقول شيئًا.

وأشهد لقد هممت بشيء من نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية غير مرة، ولكني صرفت نفسي عن ذلك صرفًا؛ لأني لم أُرِدْ أن أقحم نفسي على ما أراد الأزهر أن يختص به من دون غيره من الهيئات، ومن دون غير الأزهريين من الناس.

ولكني أقرأ في جريدة الأهرام حديثًا لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، أفهم منه كما يفهم غيري أن الأزهر قد أعرض عن هذا الرأي، واكتفى بأن يؤلِّف المختصون من رجاله كُتُبًا ورسائل تُعرِّف الإسلام إلى الناس، على أن تترجم هذه الرسائل إلى اللغات الأجنبية.

ولستُ أشك في أن تأليف هذه الكتب والرسائل خير في نفسه، وحق على القادرين عليه من المختصين، وقد كنت أتحدث في أول الصيف في شيء من ذلك إلى صديقين كريمين، واقترح أحدهما أن نضع كتابًا نبيِّن فيه حقائق الإسلام كما ينبغي أن تُبيَّن ليقرأه أصحاب الثقافات المتوسطة، وَلْيُنقَل بعد ذلك إلى بعض اللغات الأجنبية، فيظهر عليه بعض القرَّاء من الأجانب الذين لا يعرفون الإسلام إلا كما تصوِّره لهم بعض الكتب الأجنبية تصويرًا فيه الخطأ والصواب، وفيه الإنصاف أحيانًا والجور أحيانًا، وقد أمعنَّا في حديثنا ذاك، ولم نفترق حتى وضعنا منهاجًا لهذا الكتاب وقسَّمْناه على أنفسنا، واتفقنا على أن يفكر كلٌّ منَّا في النصيب المقسوم له من هذا المنهاج أثناء الصيف، على أن نأخذ في الكتابة بعد انصرام القيظ عنَّا.

وفي أثناء هذا الصيف وحين كنتُ في عزلتي تلك الأوروبية القصيرة، قرأت كتابًا فرض عليَّ التفكير المتصل فيما كان الأزهر يفكِّر فيه منذ أعوام طوال، من نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية تصويرًا صحيحًا أو مقاربًا.

والكتاب الذي قرأته في تلك العزلة كتاب خطير حقًّا، أَلَّفَه كاتب إيطالي مسيحي معروف هو الأديب العظيم جوفني بابيني، وضاقت به الكنيسة الكاثوليكية أشدَّ الضيق، فأنكرَتْه وحرَّمَتْ قراءته على المؤمنين من أتباعها، ولكن الكتاب مع ذلك تُرجِم إلى اللغات الأوروبية الكبرى، وقرأته أنا في ترجمته الفرنسية.

وموضوع هذا الكتاب هو الشيطان، والكتاب محيِّر حقًّا لا يدري قارئه أهو كتاب ديني أم هو كتاب أدبي، بل لا يدري قارئه أهو كتاب قصد به إلى الجد الخالص والبحث العلمي الصارم، أم هو كتاب خلط به الجد والهزل، وامتزج فيه العلم والأدب.

فالمؤلف يصوِّر الشيطان كما وصفَتْه التوراةُ وكما وصفه الإنجيل، وكما وصفه شرَّاح التوراة والإنجيل من آباء الكنيسة وأحبارها، ويعرض آراء قديمة في الشيطان وفي مصيره، تغضب الكنيسة أشد الغضب، ولكن الكاتب لا يقف عند هذا الحد، وإنما يصوِّر الشيطان كما وصفته آثارُ الأمم المختلفة، قديمها وحديثها على اختلاف دياناتها ومذاهبها الفلسفية.

ثم يتجاوز هذا كله فيصوِّر الشيطان كما رآه الأدباء وأصحاب الفنون الجميلة على اختلاف بيئاتهم وأزمنتهم، وعلى اختلاف طبائعهم وأمزجتهم، وكما رآه هو في بعض أوقاته.

والكتاب ممتع ما في ذلك شك، وهو يدل على علم عميق وثقافة واسعة بعيدة المدى، وإحاطة بشئون الأجيال المتباينة المتباعدة من الناس منذ أخذ الناس يكتبون ويصورون، إلى هذا العصر الذي نعيش فيه، ولكنه على ذلك مختلط فيه الجد وفيه الهزل، وفيه الصحيح وفيه المحال، وإنْ ذهب فيه المؤلف مذهب العلماء، وتكلَّف فيه سيرة الذين يجدُّون ولا يعبثون.

وقد وقفني من هذا الكتاب تصويره للشيطان كما وصفه القرآن الكريم، وهذا التصوير هو الذي اضطرني إلى أن أفكِّر فيما أراد الأزهر منذ ربع قرن، من نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية؛ ذلك أن الكاتب الإيطالي ليس مستشرقًا، فهو لا يقرأ القرآن في نصه العربي، وإنما يقرأ هذه الترجمة التي نهض المستشرقون بأعبائها في اللغات المختلفة وفي العصور المختلفة أيضًا.

ولستُ أدري أي ترجمة وقعت له لأنه لم يدلنا عليها، ولكنها ترجمة خاطئة مُخطِئة من غير شك، وقد نتج عن قراءته لهذه الترجمة واطمئنانه إليها واعتماده عليها شرٌّ عظيمٌ يضيق به الأزهر، ويضيق به الأستاذ الأكبر أشد الضيق، وينكره المسلمون أعظم الإنكار.

فهو قد قرأ — فيما يظهر — ترجمةً لهذه الآيات الكريمة من سورة الحجر، حيث أنبأ الله ملائكته بأنه خالق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون، وأمرهم إذا سوَّاه ونفخ فيه من روحه أن يقعوا له ساجدين ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

وقد تُرجِمت هذه الآية الأخيرة على أن إبليس لم يكن من الذين يسجدون؛ لأن طبيعته وعُلُوَّه في نفسه يرفعانه عن السجود، واستنتج من هذا — ويا بُؤْس ما استنتج

— أن إبليس كان أقرب إلى الإسلام من الله؛ لأن إبليس أبى أن يسجد لبشر، والإسلام يحرِّم السجود لغير الله، فكان إبليس أحرص على رعاية الإسلام من الذي جعل الدين عند الله الإسلام، تعالى الله عمَّا يقول المترجمون الخاطِئون المُخطِئون عُلُوًّا كبيرًا.

ولكن الشيء المهم الخطير هو أن هذا الكتاب قد قُرِئ بالإيطالية والفرنسية وغيرهما من اللغات الكبرى، وظن كثير من قرَّائه أن هذا الكلام في القرآن، وأن الله قد أراد الملائكة على أن يسجدوا لآدم عابدين له من دون الله، وأن إبليس قد أبى أن يشرك بالله بشرًا، وأن الله عاقبه باللعنة على هذا التوحيد.

فما رأي الأزهر؟ وما رأي فضيلة الأستاذ الأكبر؟ أَلَا يزال الأزهر والأستاذ الأكبر يريان العدول عن نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية الكبرى، ليُعرَف الإسلام في البلاد الأوروبية والأمريكية على وجهه؟ أَلَا يوافقني الأزهر والأستاذ الأكبر على أن التقصير في أداء هذا الواجب إثمٌ لا ينبغي أن يتورَّط فيه المسلمون، بعد أن كثر هذا السخف السخيف الذي يتناقله كثير من غير المسلمين، منذ تُرجِم القرآن في أواخر القرون الوسطى إلى أن تُرجِم أخيرًا في هذا العصر الحديث، تراجِمَ أقل ما تُوصَف به أنها ليست دقيقة، ولا صادقة ولا مقاربة في كثير من أجزائها، وأنها تنشر الخطأ في كثير من العقول، وتُلقِي في روع كثير من الناس أمورًا ليست من الإسلام ولا من القرآن في شيء. وليس كل الغربيين قادرًا على أن يقرأ القرآن في نصه العربي، وليس كل الغربيين قادرًا على أن يفهم القرآن إنْ قرأه في النص العربي، وليس أوساط الناس مُكلَّفين أن يتحققوا من صدق التراجم التي تُنشَر لهم ودقتها، ولا قادرين على هذا التحقق، بل هم مدفوعون بطبعهم إلى أن يأخذوا هذه التراجم على أنها صحيحة دقيقة، كما يأخذون تراجم الكتب الكثيرة التي تُنقَل إليهم، وكثير منهم يقرءون العهد القديم والعهد الجديد مُترجَمَيْن إلى اللغات التي يتكلَّمونها، فهم يقرءون تراجم القرآن كما يقرءون تراجم التوراة والإنجيل مع هذا الفرق الخطير، وهو أن تراجم التوراة والإنجيل تخضع لمراقبة شديدة عسيرة من السلطات الدينية المسيحية، ولا تخضع ترجمة القرآن لمراقبةٍ ما إلا مراقبة الناقدين من العلماء، وقلَّمَا يحفل العلماء بهذه المراقبة، وقلما يقدرون عليها.

ليصدقني الأزهر وليصدقني الأستاذ الأكبر أن هذا شر عظيم غفل المسلمون عنه دهرًا، وتغافلوا عنه دهرًا، وأصبح إهماله إثمًا يجب أن تُبذَل الجهود كل الجهود للتخلُّص منه والتخفُّف من ثقله.

وبعدُ، فما أكثر ما ترجَمَ الأوروبيون القرآنَ إلى لغاتهم كما أحبوا أو كما استطاعوا! وقد أصبح واجبًا على المسلمين أن يترجموا معاني القرآن بأنفسهم إلى هذه اللغات. وما أكثر ما كتب الأوروبيون الرسائل وألَّفوا الكتب عن الإسلام، فأخطئوا وأصابوا، وأنصفوا وجاروا عن قصد السبيل! وقد أصبح واجبًا على المسلمين أن يعرِّفوا الإسلام بأنفسهم إلى غيرهم من الأمم. وإذا كان الأزهر لا يريد أن ينقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية — وأنا أجله عن ذلك — فلا أقل من أن يخلي بين المسلمين وبين هذا النقل، يجتهدون فيه حسب طاقتهم دون أن يصرفهم عن ذلك، أو يحرج عليهم فيه، أو يثير في سبيلهم المصاعب والعقبات.

إن العالم الغربي يفكِّر في الإسلام ويتحدَّث عنه أكثر جدًّا مما يظن الأزهر والأزهريون، فلا أقل من أن نتيح له التفكير فيه والتحدُّث عنه على وجه صحيح، وعن علم دقيق بأسراره وحقائقه، ذلك أجدر أن يعفينا من التقصير وأن يقرِّب الصوابَ إلى غير المسلمين.

نعَم واجب

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أصدق الشكر وأجمله على مقاله القيِّم الذي قرأته اليوم في «الجمهورية»، عن نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، ولفضيلته كذلك أصدق الشكر وأجمله على ما تفضَّلَ به عليَّ من ثناء، وما وجَّه إليَّ من دعاء. وأحب أن يطمئن الأستاذ الجليل إلى أني حريص أشد الحرص على أن أكون عندما يحب من معونته حسب طاقتي على ما يحاول من تبيين حقائق الإسلام للناس في الشرق والغرب جميعًا. ولكني أعود بعد ذلك إلى الموضوع الذي كتبتُ فيه منذ حين، والذي أثار الأستاذ الجليل إلى الكتابة فيه اليوم، وهو ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية.

فقد يظهر أن فضيلة الأستاذ الأكبر يوافقني على أن هذه الترجمة واجبة لا ينبغي التقصير في أدائها، ويوافقني كذلك على أن الأزهر قد فكَّر في هذه الترجمة وأطال فيها التفكير، وتحدَّث عنها وأكثر فيها الحديث منذ عشرين عامًا، ولكنه على ذلك لم يصنع شيئًا، بل لم يأخذ في هذه الترجمة، ولم يُتِمَّ منها قليلًا أو كثيرًا.

وكنت أظن أن الأزهر في هذا العهد الجديد، سيستأنف التفكير الجاد المنتج في هذا الواجب الخطير، ويأخذ في أدائه دون إرجاء له أو إبطاء فيه، مكتفيًا بما ضاع من الوقت في التفكير والحديث أثناء هذه السنين الطوال.

ولستُ أدري أمخطئ أنا في فهم الحديث الذي نشرَتْه الأهرام للأستاذ الأكبر منذ أسابيع بهذا العنوان الذي لم ينكره الأستاذ الأكبر، ولم ينكره أحد من الأزهريين، وهو إرجاء ترجمة معاني القرآن للُّغات الأجنبية؟

«مشروع جديد لمشيخة الأزهر للتَّعريف بأحكام الإسلام ومبادئه.»

«رجال الدين مسئولون أمام «الضمير» الإنساني عن سلامة العالَم.»

وهذا العنوان وحده يصوِّر حديث الأستاذ الأكبر تصويرًا دقيقًا، كما أنه يصوِّر المقال الذي نشرته «الجمهورية» له صباح اليوم، ففضيلته يرى في صراحة صريحة أن الغاية التي يقصد إليها من ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية، إنما هي تعريف حقائق الإسلام للناس في الشرق والغرب، تعريفًا صحيحًا صادقًا لا لبس فيه ولا غموض ولا التواء.

والأستاذ الأكبر يرى الإسراع إلى تحقيق هذه الغاية بوضع الكتب والرسائل التي تعرض حقائق الإسلام وأصوله، وترجمة هذه الكتب والرسائل إلى اللغات الأجنبية المختلفة، ولا يتحدث عن الأخذ في ترجمة معاني القرآن نفسه اليوم أو غدًا أو بعد غد. وأخشى أن يكتفي بوضع هذه الكتب وترجمتها وإذاعتها، ويستغني بذلك عن الموضوع الذي ألَحَّ فيه أشد الإلحاح، وهو ترجمة معاني القرآن نفسه ترجمة دقيقة صادقة، يمكن أن يثق الناس بها ويطمئنوا إليها، ويعلموا أنها هي التي تصوِّر فهم أعلام الإسلام للقرآن الكريم.

فهناك فرق واضح أشد الوضوح بين كتاب يُقدَّم إلى الناس على أنه ترجمة لمعاني القرآن قد أقرَّها رجال الدين وأطبقوا على إقرارها، ولم يروا فيها عوجًا ولا انحرافًا عما ينبغي أن يُفهَم من نصوص الذِّكْر الحكيم، وبين كتاب يُقدَّم للناس على أنه عرض لهذه الحقيقة أو تلك من حقائق الإسلام، قد ألَّفه هذا الأستاذ أو ذاك من أساتذة الأزهر الشريف أو من غيرهم.

وما أكثر الكتب التي ألَّفَها المستشرقون عن الإسلام! والتي يستقيم بعضها لأنه يصدر عن الإخلاص في حب العلم، والصدق في عرضه على الناس، وتجنُّب الهوى والتعصُّب، وحسن العلم بالتراث الإسلامي، وينحرف بعضها عن الجادة لتأثُّر المؤلِّف بالهوى، أو لقصوره عن فهم هذا النص أو ذاك من النصوص الإسلامية على اختلافها.

وقرَّاء العربية يعرفون بعض هذه الكتب لأنها نُقِلت إلى لغتهم في عصور مختلفة وبأقلام مختلفة أيضًا، والذين يحسنون اللغات الأجنبية يقرءون كثيرًا من هذه الكتب في اللغات التي أُلِّفَتْ فيها، أو نُقِلت إليها، فيعرفون وينكرون ويرضون ويسخطون.

ولست أرى بأسًا — كما قلتُ في الحديث الماضي — بأن يشارك الأزهريون في تأليف بعض هذه الكتب والرسائل، بل أنا أرى في ذلك الخير كل الخير، وأتمنى أن يسرع الأزهريون إليه، وأرجو أن تكون لي في بعضه مشاركةٌ، ولكن هذا شيء والموضوع الذي أُلِحُّ فيه وأراه واجبًا لا يحتمل إرجاءً ولا إبطاء شيءٌ آخَر.

فأنا أريد ألَّا يرجِئ الأزهر نقْلَ معاني القرآن نفسه إلى اللغات الأجنبية الحية أكثر مما أرجأه إلى الآن؛ ذلك أن الناس في العالم الغربي كثيرًا ما يحرصون على قراءة الكتب المقدسة نفسها في لغاتهم التي يتكلمونها، أو في اللغات الأجنبية التي يحسنونها، وهم يقرءون التوراة والإنجيل، ويقرءون كتبًا أخرى تقدِّسها شعوب لا تؤمن بالكتب السماوية، يدفعهم إلى هذا الحرصِ حبُّهم للعلم ورغبتهم في المعرفة وطموحهم إلى فقه الشئون الدينية، مهما يكن مصدرها. وهم يقرءون تراجم كثيرة للقرآن نُشِرت منذ أواخر القرون الوسطى، وما زال بعضها يُنشَر في هذه الأيام، وكان آخِر ما وصل إليَّ منها ترجمة فرنسية نُشِرت بعد الحرب العالمية الثانية للأستاذ الفرنسي رجيس بلاشير أستاذ اللغة العربية بالسوربون.

وأصحاب هذه التراجم المختلفة يحملون تبعاتها بالطبع، وهي تبعات ثقال في أكثر الأحيان. والشيء الذي أقطع له هو أن هذه التراجم لا تقع في نفوس المسلمين المتقنين لعلوم الإسلام مواقع الرضى؛ لأنها تنحرف عن الجادة من هذه الناحية أو من تلك، بعضها يخطئ الفهم ويخطئ الأداء، وبعضها ينحرف عن السنة الموروثة في ترتيب القرآن ويُحدِث اضطرابًا شديدًا في نفوس الذين يقرءونه. ولن يستطيع الأجانبُ أن يفهموا هذا الموقف الغريب الذي يقفه المسلمون من كتابهم المقدَّس الكريم، فلا يترجمون معانيه لهم، ولا يقدِّمون إليهم منه صورةً يمكن أن يطمئنوا إليها ويثقوا بها، على حين تقدم إليهم التراجم المختلفة للتوراة والإنجيل وكل ما يتصل بالتوراة والإنجيل من المباحث والشروح.

والمثل الذي ضربته في الحديث الماضي ليس إلا شيئًا قليلًا من أشياء كثيرة لا أحب أن أعرض لها الآن، كما لم يحب الأستاذ الأكبر أن يعرض لها الآن. لا أريد أن أثير خصومة قوية أو ضعيفة بين المسلمين وغير المسلمين، وإنما أريد أن ينهض المسلمون بهذا الواجب الذي نهض به كثير من غير المسلمين، يخلص أكثرهم وينحرف قليلٌ منهم عن الإخلاص، ويتورَّط أولئك وهؤلاء في الخطأ الذي لا ينفع أحدًا والذي يسوء الإسلامَ ويسوء المسلمين، عن عمد وغير عمد. والإسلام دين يتجه إلى الناس كافةً لا إلى العرب منهم خاصةً، وليس من الطبيعي ولا من الممكن أن نفرض على الناس أن يقرءوا القرآن في نصه العربي إذا أرادوا أن يعرفوه؛ لأن هذا تكليف بالمحال كما يقول الأزهريون.

فلا أقل من أن نفسِّر لهم القرآن بنقل معانيه إلى لغاتهم، لنتيح لهم ما يريدون من ذلك دون أن يجدوا في ذلك مشقَّة أو عسرًا، ودون أن يتعرَّضوا في ذلك للخطأ أو الجهل والتحريف.

وفضيلة الأستاذ الأكبر يوافقني — فيما أظن — على أن نقل معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية ليس مستحيلًا ولا ممتنعًا، وعسى ألَّا يكون من العسر بحيث يظن المتحرجون.

فأنا لا أريد أن أنقل إلى اللغات الأجنبية ما في بيان القرآن الكريم من روعة وإعجاز، وإنما أريد أن أعطي الأجانب من القرآن الكريم صورةً صادقةً تؤدي إليهم معانيه، وإن لم تؤدِّ إليهم روعة النظم وجمال اللفظ وبراعة الأسلوب.

وفي معاني القرآن نفسها من الروعة والبراعة ما يؤثِّر في القلوب الإنسانية أعظم الأثر وأقواه، وما لا يُدرَك كله لا يُترَك جله، كما كان يقال لنا في الأزهر أيام الشباب، وكما يقال لطلاب الأزهر الآن فيما أظن. وما أريد أن يظن فضيلة الأستاذ الأكبر أني قصدت أن أسوء الأزهر من قريب أو من بعيد؛ فأنا أعرف للأزهر حقه عليَّ، وأحاول أن أؤدي إليه بعض هذا الحق ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ومن أداء حق الأزهر عليَّ أن أذكِّره بالواجب، وأدعوه إلى أدائه، وألحُّ عليه في هذا التذكير والدعاء.

فالله يأمرنا أن ندعو إلى الخير ونأمر بالمعروف ونذكر بالواجب، والأزهر هو الذي علَّمَنا أن الله يأمر بهذا كله، فنحن حين نطلب إليه أداء هذا الواجب الخطير في غير إرجاء ولا إبطاء ولا تريُّث، إنما ندله على أننا استمعنا له فأحسنَّا الاستماع، ودرسنا فيه فأحسنَّا الانتفاع بما تلقينا من الدروس.

أما بعدُ، فإني أرجو أن يتفضَّل الأستاذ الأكبر فيعنى أشد العناية وأقواها وأصدقها بنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، وبتأليف ما يجب تأليفه من الكتب والرسائل التي تبيِّن حقائق الإسلام للناس، فالاستكثار من الخير مرغوب فيه دائمًا مَدْعُوٌّ إليه دائمًا، وفي الأزهر والحمد لله قدرة على النهوض بهذين الأمرين جميعًا، ومن حول الأزهر من المسلمين القادرين على معونته مَن يستجيبون له إذا دَعَا، ويعينونه إذا احتاج إلى العون. ولا يغضب الأستاذ الأكبر من هذه الحملة التي رأى فيها قسوةً على معهدنا العظيم، فهو يذكر من غير شك أن من القسوة ما ينفع، وهو يذكر كذلك من غير شك أن قد أتى على الأزهر حينٌ من الدهر كان بعض شيوخه يحرجون على غير الأزهريين أن يخوضوا في حديث الدين من قريب أو بعيد، ويَرَون ذلك مقصورًا عليهم من دون الناس.

وليس أحب إليَّ ولا أحسن في نفسي موقعًا من أن يكون هذا العهد قد انقضى، ومن أن يعود الأزهر الشريف إلى سماحته الأولى، فيعمل الخير ويذيعه ويدعوا الناس إلى المشاركة فيه.

فتلك مهمة الأزهر التي طالما دعوناه إلى أن يخلص لها نفسه وجهده ووقته ونشاطه كله. وأي شيء أحسن موقعًا في نفوس المسلمين من أن يَرَوا الأزهر قد أقبل على واجبه يؤدِّيه أصدق الأداء!

حقُّ الخطأ

إذا أسرف مسلم على نفسه، واقترف إثمًا من الآثام التي يمقتها الله ويحذِّر منها عباده المؤمنين، ويوعدهم بالعقاب الشديد والعذاب الأليم إنْ تورَّطوا فيها، فأمر هذا المسلم لا يخلو من إحدى اثنتين: إما أن يكون قد اقترف خطيئة تؤذي غيره من الناس، وتضيع بعض حقوقهم، وإما أن يكون قد اقترف خطيئة لا تؤذي أحدًا غيره، ولا تمس إلا الصلة الدينية الخالصة بينه وبين الله الذي يعلم سرَّه وجهره، ويراقب ضميره حين يفكر أو يشعر، وشخصه حين يحسن في العمل أو يسيء.

فإذا كانت الأولى، فولِيُّ الأمر وحده هو المكلَّف أن يحاكِم هذا المسلم وأن يعاقبه على إيذائه للناس وإضاعته لحقوقهم كلها أو بعضها، وأن يقتص منه للذين آذاهم أو أصابهم ببعض ما يكرهون.

وولي الأمر هو القائم بالحكم بين الناس، وهو مكلَّف أن يقيم الحدود، وأن ينصف المظلوم من الظالم، وأن يكون الضعيف عنده قويًّا حتى يظفر بحقه كاملًا، وأن يكون القوي عنده ضعيفًا حتى يؤدي ما عليه من الحق كاملًا.

وولي الأمر ينهض بهذا العبء بنفسه إن استطاع، وبواسطة القضاة الذين ينيبهم عنه في النهوض بهذا العبء حين لا يستطيع، وأداء هذا الواجب لا يعفي الخاطئ من حساب آخَر أشد وأقسى وأعظم عسرًا من حساب ولي الأمر أو القاضي، وهو حساب الله له يوم القيامة وعقابه له على ما قدَّم بين يديه من السيئات. والله مع ذلك يفتح لهذا الجاني أبوابًا واسعة من الأمل في عفوه ومغفرته ورحمته، إن تاب وأصلح وكفَّ عن مقارفة السيئات.

فعقاب السارق والقاتل والغاصب والمعتدي على حقوق الناس بوجه عام، عقاب هؤلاء في الدنيا لا يعفيهم من حساب الله لهم في الآخرة، والله عز وجَلَّ يعاقبهم بعد هذا

الحساب إنْ شاء، ويعفو عنهم إن شاء، ويبدِّل سيئاتهم حسنات إن شاء. بهذا كله يُنبِئنا الله عز وجل في كتابه العزيز، وفي آياتٍ كريمة منه كثيرًا ما أظن أني غير محتاج إلى إثباتها في هذا الحديث؛ لأنها تُتلَى على المسلمين حين يصبحون وحين يمسون. والخطأ في اقتراف هذه الآثام التي تمس حقوق الناس لا يعفي الخاطئ من التبعات في الدنيا، وإنْ خفَّف عنه ثقل هذه التبعات تخفيفًا عظيمًا.

فمَن قتل خطأ وجب على الحاكم أن يأخذه بخطئه، ويلزمه تعويض أولياء الدم عما أصابهم من جنايته، وذلك بأداء الدية إليهم، ولكن لا يجوز للحاكم أن يقتص منه ويقتله بمَن قتل خطأً، فأما فيما بينه وبين الله، فإن الله يعفو عن الخطأ لقوله عز وجل: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. والله قد أنبأنا بأنه قد يعفو عن الخاطئ المتعمد، إنْ تاب وآمَن وعمل صالحًا فقد يبدل سيئاته حسنات.

والله يقول في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۞ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. وإن كانَتْ الثانية، ولم يُجْنِ الخاطئ المتورط في الإثم والكبيرة على أحد غيره من الناس، وإنما جنى على نفسه وحدها، فضيَّع حقًّا من حقوق الله التي لا تمس حقوق الناس من قريب أو من بعيد، فأمره إلى الله وحده وحسابه على الله وحده، وليس لأحد من الناس كائنًا مَن يكون أن يحاسبه أو يعاقبه، وإنما يجب على المسلمين وعلى حكامهم وعلمائهم أن يأمروه بالمعروف وينهوه عن المنكر، ويدعوه إلى الخير ويحذروه من الشر، وقد يستطيع الحاكم أن يُعذِّره باللوم أو ببعض العقاب الذي لا يتلف نفسه ولا يضيع حقه.

أما ما بينه وبين الله، فلسنا نعلم من أمره إلا ما أنبأنا الله به في القرآن من أنه أعدَّ للذين يقترفون الكبائر عذابًا أليمًا، ومن أنه غفور رحيم يعفو إن شاء عن مقترف الكبيرة إن تاب وأصلح، والله عز وجل يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. ويقول: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ويجب أن تفهم الجهالة في الآيتين بمعناها العربي القديم الذي جاء في القرآن الكريم غير مرة، وهو التسرُّع عن غير روية ولا تفكُّر ولا أناة، فهي هنا نقيض الحلم لا نقيض العلم، كما قال الفرزدق:

أَحْلَامُنَا تَزِنُ الْجِبَالَ رَزَانَةً   وَتَخَالُنَا جِنًّا إِذَا مَا نَجْهَل

وكقول عمرو بن كلثوم:

أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا   فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

فتارك الصلاة وتارك الصوم وتارك الحج حين يجد إليه سبيلًا من الخاطئين الذين أَعَدَّ الله لهم عذابًا أليمًا، وأعدَّ لهم الرحمة والمغفرة والعفو إنْ تابوا من قريب وأصلحوا.

هذه كلها أوَّليات مفهومة من الدين بالضرورة، كما يقول الأزهريون، ومفهومة من الدين بنص القرآن الذي لا يقبل تأويلًا ولا تبديلًا.

فما عسى أن يكون موقف ذلك الأستاذ الأزهري الذي قال مقالته تلك في الصوم، فأغضب الشيوخ وأثار هذه القصة التي يظهر أنها لم تنقض بعدُ. إنه لم ينكر أن الصوم ركن من أركان الإسلام، ولم يُبِحْ للناس أن يفطروا إن شاءوا بغير قيد ولا شرط، وإنما فهم نصًّا من نصوص القرآن الكريم فهمًا لا يقرُّه عليه الشيوخ، وأعلن رأيه للناس؛ قرأ قول الله عز وجل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، وفهم من هذه الآية ما فهمه بعض المفسِّرين القدماء — ومنهم الزمخشري مثلًا — من أن الذين يجدون المشقة في الصوم يستطيعون أن يفطروا وأن يفتدوا من ذلك بإطعام مسكين، وقرأ آيات في القرآن وفهمها على غير ما يقرأ الشيوخ، قرأ قول الله عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾، ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾، وقوله: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ورأى النبي ﷺ يقول فيما روى البخاري: «إنما بُعِثتم ميسِّرين لا معسِّرين.» ويقول فيما روى البخاري أيضًا: «أَلَا إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.»

قرأ هذا كله وقرأ نصوصًا كثيرة أخرى غيره، واعتقد أن الإسلام لا يأخذ الإنسان بالمشقَّة ولا بالعنف، وإنما يأخذه باللين والرفق لأن الإنسان خُلِق ضعيفًا. وقد علَّم الله المسلمين أن يسألوه ألَّا يحمل عليهم إصرًا كما حمل على الذين من قبلهم، وألَّا يكلِّفهم

ما لا طاقة لهم به. ورأى كثيرًا من المسلمين يظهرون الصوم إنْ لقوا الناس أو لقوا بعض الناس، ويفطرون حين يخلون إلى أنفسهم وإلى أمثالهم من الذين يقول الله فيهم: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾، فأشار على هؤلاء بأن يفطروا إن وجدوا المشقة في الصوم، وبأن يفتدوا من هذا الإفطار بإطعام مسكين، واعتقد فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين الله أنه بهذه المشورة ينصح للإسلام والمسلمين، فينهى الناس عن النفاق ويحثهم على الصدقة. والله ليس في حاجة إلى صيام الصائمين، والمساكين من الناس في حاجة أشد الحاجة إلى أن يطعمهم القادرون على إطعامهم مؤثرين للصدقة أو مفتدين بها من الصوم.

كذلك رأى هذا الأستاذ، ولست أقول إنه أصاب، ولست أقول إنه أحسن فيما صنع، ولكني أقول إنه لم يتعمَّد خروجًا من الدين ولا مخالفة عن أمر الله، ولا انحرافًا عن نصوص القرآن وما صح من الحديث، فأقصى وأقسى ما يمكن أن يقال في شأنه: إنه اجتهد فأخطأ، وليس على مَن اجتهد حرج في أن يخطئ، وما أكثر المجتهدين الذين أخطئوا فلم يَقْضِ عليهم أحد بالكفر، ولم يُتَّهَموا بالخروج من الدين، ولم يحاول أحد أن يحاكمهم أو يعاقبهم، أو يطلب إلى القضاء أن يفرِّق بينهم وبين أزواجهم! وليس لأحد أن يتهمهم بشيء من ذلك، أو يقدِّمهم إلى القضاء في شيء من ذلك، أو يحاول التفريق بينهم وبين أزواجهم لشيء من ذلك؛ فكل شيء من هذا القبيل اعتداء على حق المسلم في أن يجتهد في رأيه، وينصح لله والناس ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. ولا ينبغي أن يقال إن ذلك الأستاذ لم يبلغ منزلة الاجتهاد، فمنزلة الاجتهاد هذه شيء غامض غير محدود ولا واضح الأعلام، ولم يستطع أحد من شيوخنا في الأزهر أن يحدِّد لنا منزلة الاجتهاد هذه، ولا أن يبيِّن لنا متى يبلغها الناس ومتى يقصرون عن بلوغها. ولكن المسلم الذي يقرأ كتاب الله ويفهمه كما يستطيع الناس أن يفهموه، ويقرأ حديث النبي ﷺ ويفهمه كما يستطيع الناس أن يفهموه أيضًا، ثم يشارك فيما اتفق الناس على أن يسموه علوم الدين، فيأخذ بحظ من الفقه وأصوله، ومن الكلام ومذاهب الناس فيه، ويشهد له بهذا كله الأزهر الشريف الذي يعطيه إجازة مكتوبة معتمدة من الدولة تشهد بأنه عالم من علماء الدين ...

هذا المسلم ليس عليه بأس إن حاول الاجتهاد مخلصًا في اجتهاده ناصحًا فيه للإسلام والمسلمين، وذلك الأستاذ قد ظفر بتلك الإجازة كما ظفر بها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر وزملاؤه من أعضاء هيئة كبار العلماء وزملاؤهم من علماء الأزهر

الشريف جميعًا، وإذا كان شيوخنا الأَجِلَّاء يأبون على أنفسهم الاجتهاد، ويكتفون بتقليد واحد من الأئمة الأربعة؛ خوفًا من الزلل، وإشفاقًا من الخطأ وإيثارًا للعافية، فذلك حقهم لا ينازعهم فيه أحد، ولكنه لا يبيح لهم أن يأخذوا الناس بأن يكونوا مقلِّدين مثلهم، هم أحرار في التقليد وغيرهم حر في الاجتهاد، والله غالب على أمرهم جميعًا، سيسأل المقلِّدين عن تقليدهم، وسيسأل المجتهدين عن اجتهادهم، وسيجزي كلًّا منهم بعمله جزاءً لا يشك في عدله إلا الجاحدون.

وإذن ففيمَ كل هذه الضجة؟ وفيمَ كل هذا الجدال؟

رجل اجتهد ومن حقه أن يجتهد، فإن يكن أصاب فأجره على الله، وإن يكن أخطأ فحسابه على الله، وليس لأحد من الناس، لا من رجال الحكم ولا من رجال الأزهر، أن يحاسبه على ذلك أو يعاقبه؛ لأنه لم يتعمد على حق من حقوق الناس، لم يسفك دمًا حرامًا ولم يأخذ مالًا حرامًا، ولم يؤذِ أحدًا في شيء تعاقِب القوانين على إيذاء الناس فيه.

كل ما يمكن أن يقال هو إنه أخطأ في حكم من أحكام الدين، فمن حق العلماء أن يبيِّنوا له خطأه وأن يدلُّوه على الصواب، ويدعوه إلى أن يثوب إليه، فأما أن يحاكموه أو يعاقبوه أو يؤدبوه، أو يقدموه إلى القضاء ليفرق بينه وبين أهله، فذلك شيء لا يبيحه لهم الإسلام، وهم إن فعلوه يعطون أنفسهم حقًّا لم يُعْطِه الله لهم، فهم يتجاوزون حدودهم ويظلمون هذا الأستاذ، وينتحلون لأنفسهم ما لا يملكون.

ولست أدري: إلامَ انتهت إليه هذه القصة الآن؟ ولست أعلم حين أملي هذا الحديث أبرئ هذا الأستاذ أم أُدِينَ؟ ولكن الشيء الذي أقطع به هو أن محاكمته من أجل رأيه في الصوم إسراف وانحراف عن أصول الإسلام وسنته السمحة، ولا بدَّ من أن يعود علماء الإسلام في الأزهر إلى قصد السبيل بعد أن جار بهم السلطان عنه، واستحَبَّ فريقٌ منهم هذا الجور في وقت من الأوقات؛ فليس لعلماء الإسلام حق في أن يحاكموا مسلمًا أو يعاقبوه لأنه اجتهد رأيه فأخطأ أو أصاب؛ ذلك أن الإسلام لا يعرف الإكليروس، ولا يعرف هذه السلطة الدينية العليا التي يستأثر بها فريق من رجال الدين، فيحكمون بإيمان هذا الرجل وكفر ذاك. وقد عاش المسلمون قرونًا قبل أن يوجد الأزهر الشريف، فلم يعرفوا هيئة تحاكم الناس على الاجتهاد في الرأي، وهم قد كرهوا من الخليفة المهدي تتبُّعه للزنادقة، وإسرافه في هذا التتبُّع، وأخذه بعض الناس بالشبهة وقتله بالظنة، وهم كرهوا كذلك إسراف المأمون حين أراد أن يحمل الناس على الإيمان بخلق القرآن، وحين امتحن بذلك جماعة من أخيار المسلمين.

والأزهر نفسه قد عاش قرونًا لم يكن يملك فيها أن يحاكم أو يعاقب على الرأي، وإنما كان يملك أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الخير كما أمر الله في كتابه العزيز، ولم يُتَحْ هذا الحق للأزهر إلا في آخِر الزمان، وفي هذا القرن الذي نعيش فيه، حين أُنشِئت هيئة كبار العلماء وأُعطِيت ما أُعطِيت من الحقوق، وكان إعطاؤها الحق في محاكمة الناس ومعاقبتهم على الرأي بدعة لم يعرفها الإسلام من قبلُ. وكان من الحق على الأزهر أن يذكِّر الحكومة التي أعطت هيئة كبار العلماء تلك الحقوق أن في ذلك بدعة، وأن شر الأمور محدثاتها، وأن كل بدعة ضلالة، وأن كل ضلالة في النار، كما كان ابن مسعود رحمه الله يتحدث إلى تلاميذه في الكوفة. وقد اختلف أئمة المسلمين في أمور كثيرة، اختلفوا في الفقه، واختلفوا في الكلام، واختلفوا في السياسة، وشنَّع بعضهم على بعض، وأسرف بعضهم على بعض في التشنيع، ولكن أحدًا منهم لم يُقدَّم إلى المحاكمة ولم يُفرَض عليه عقاب شديد أو يسير. ونحن نقرأ من تشنيع بعض العلماء على بعض طرائف لا تحصى، نقرأ في كتاب ابن حزم مثلًا أن الأشعري كان قد أهدر دمه حين رأى هذا الرأي أو ذاك في الكلام، وأن أصحاب أبي حنيفة قد أهدروا نصوص القرآن وتكلَّفُوا على النبي ما لم يَقُلْ من الحديث، حين رأوا هذا الرأي أو ذاك في الفقه. ولكن هذا كله لم يَعْدُ أن يكون كلامًا يقال، فأما أن يُحاكَم فقيه أو متكلِّم على رأي له في الفقه أو الكلام، وأن يكون الذين يحاكمونه من الفقهاء أو المتكلمين، فذلك شيء لا يعرفه المسلمون إلا منذ أنشئت في مصر هيئة كبار العلماء. وأغرب ما في هذه القصة أن صاحب تلك المقالة في الصوم لم يبتكر شيئًا ولم يقل جديدًا، وإنما سبقه علماء من المسلمين إلى مثل هذا الرأي، وقد أشرت في أول هذا الحديث إلى أنه لم يبتكر تفسير آية الصوم التي اعتمد عليها في رأيه ذاك، وإنما سبق إليه مفسِّرون قدماء، ذكرت منهم الزمخشري.

وقد سبقه إلى رأيه من الفقهاء القدماء الذين لا يكفرهم الأزهريون جماعةٌ أذكر منهم ابن حزم، ولست أعرف أن الزمخشري حُوكِم على تفسيره لهذه الآية الكريمة، ولا أن ابن حزم قد حُوكِم على إباحة الإفطار والفدية لَمن وجد المشقة في الصوم، ولكن آفة الأزهريين المعاصرين أنهم يقرءون كتبًا بعينها قد فرضتها عليهم ظروف الأزهر في بعض العصور، ولا يكادون يقرءون غيرها من الكتب التي كتبها علماء الإسلام في العصور الأولى وفي البلاد الإسلامية المختلفة، وهم من أجل ذلك يحصرون العلم والدين في حدود ضيقة جدًّا، هي حدود الكتب التي يقرءونها، والعلم أوسع جدًّا من هذه الكتب، والدين أوسع جدًّا وأسمح جدًّا مما يراه الأزهريون، ولولا أني أحب الأزهر حبًّا متأصلًا

في نفسي، وأرفق بالأزهريين كما أرفق بالصديق الحميم لقلت أكثر من هذا، ولكني على كل حال أتمنى مخلصًا للأزهريين ولعلمائهم خاصةً أن يقرءوا القرآن نفسه، وأن يقرءوا الحديث في نصه أكثر مما يقرءون كتب الفقه وكتب المفسرين المتأخرين.

ولست أعرف شيئًا يعلِّم المسلم سماحة الرأي وسماحة الخلق، وأخذ الأمور بالرفق واللين والحكم على الأشياء في غير تكلُّف ولا تعقيد، كالإمعان في قراءة القرآن الكريم والحديث الشريف، والاقتصاد في الرجوع إلى المفسِّرين والشرَّاح بحيث لا يُرجَع إليهم إلا عند الضرورة القصوى.

أما بعدُ، فأظن أني قد بلغت بهذا الحديث ما حاولت من إثبات أن من حق ذلك الشيخ الذي قال مقالته تلك في الصوم أن يجتهد وأن يخطئ، وأن ليس لأحد من الناس — وإن كانوا شيوخ الأزهر، وعلى رأسهم صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر — أن يحاكمه أو يعاقبه على شيء من ذلك، وأن لهم أن يجادلوه بالتي هي أحسن، وأن يأمروه بالمعروف وينهوه عن المنكر ويدعوه إلى الخير، لا يتجاوزون ذلك إلى أكثر منه؛ لأنهم لا يملكون أن يتجاوزوا ذلك.

أما ما كتبه الأزهريون الذين حاولوا أن يردوا على الحديث الذي نشرَتْه «الجمهورية» لي قبل سفري من مصر، فليس لي رد عليه إلا قول الله عز وجل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، وقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

حتَّى بَعْدَ الحُكْم

وكذلك صمَّم الأزهر الشريف على ما صمَّم عليه، فحاكم وعاقب في غير موضع للمحاكمة ولا للعقاب.

لم يحفل بطبيعة العصر الذي يعيش فيه، ولم يحفل بنصح الناصحين له، وإشفاق المشفقين عليه وتذكير الذين ذكَّروه بأن الله قد رفع الخطأ عن الناس، وبأنه يحب العفو والمغفرة ويؤثرهما على السطوة والبطش والانتقام.

ولو أن الذين ذكَّروا الأزهر بهذا كله تحدَّثوا إليه فيه من عند أنفسهم، لهان إعراضه عنهم واستخفافه بتذكيرهم له، ولكنهم تَلَوا عليه آيات من القرآن الكريم، ورَوَوا له أحاديث عن النبي ﷺ وكان من حق هذه الآيات وهذه الأحاديث أن تجد طريقها إلى قلوب الشيوخ الأجِلَّاء، وأن تذكِّرهم بأيام الله وتحبِّب إليهم البر والمعروف والرفق والتأسِّي برسول الله ﷺ، الذي أحب العفو وحبَّبه إلى الناس، والذي طالما ذكَّر الناس بأن الله قد رفع عن أمته الخطأ والنسيان وما يُستكرَه الناسُ عليه.

أعرض الأزهر عن هذا كله ومضى أمامه راكبًا رأسه، لا يلوي على شيء، ولا يسمع لإنسان، ولا ينتفع بموعظة، وأكبر الظن أن شيوخ الأزهر يعتقدون أنهم مضوا في ذلك غضبًا لدين الله، وأكبر الظن أنهم يحمدون ذلك من أنفسهم، ويرون أنهم قد أدَّوا ما عليهم من الواجب، فقسوا حيث تجب القسوة، وسطوا حيث تجب السطوة، وجعلوا من ذلك الأستاذ نكالًا لغيره من الأزهريين الذين قد تحدِّثهم نفوسهم بأن الله قد خلقهم أحرارًا ووهبهم عقولًا، وأمرهم أن يتفكَّروا ويتدبَّروا، ويعملوا عن تفكُّر وتدبُّر لا عن محاكاة وتقليد، يُخطِئون أحيانًا فيغفر الله لهم خطأهم، ويصيبون أحيانًا فيكتب الله لهم صوابهم ويثيبهم عليه أحسن المثوبة.

وقد أصبح ذلك الأستاذ بالفعل نكالًا لزملائه من رجال الأزهر، فلن يحاول بعد اليوم واحدٌ منهم أن يفكِّر أو أن يكتب أو أن ينشر رأيًا في أمر من أمور الدين، حتى يحسب لمحاكمة الأزهر وعقابه حسابًا أي حساب.

سيفكِّر الأزهريون إذن في سطوة الناس قبل أن يفكِّروا في سطوة الله، وفي عقاب الناس وثوابهم قبل أن يفكِّروا في ثواب الله وعقابه، وسيتحرَّون رضى الشيوخ قبل أن يتحرَّوا رضى أنفسهم وضمائرهم وعقولهم.

وقد يرون الخطأ وينكرونه فيما بينهم وبين أنفسهم، وفيما بينهم وبين ربهم، ولكنهم يذعنون له ويسكتون عليه ويظهرون العمل به والرضى عنه؛ مخافة أن يتعرَّضوا لمثل ما تعرَّض له ذلك الأستاذ من التشهير به والتشنيع عليه والمحاكمة له وأخذه بالعقاب.

وكذلك يُفرَض التقليد على الأزهريين فرضًا، ويغريهم خوف الفتنة بالتورط في الفتنة. وأي فتنة أشد نكرًا وأقبح في حياة الناس أثرًا من أن يعتقد الإنسان أنه يرى الحق ثم يكتمه عن الناس! ومن أن يعتقد الإنسان أنه يرى الباطل ثم لا يحذِّر الناس منه ولا يصدهم عنه، وإنما يخلي بينهم وبين ما هم فيه، غير حافل بعواقب هذا التقصير في ذات الله والتفريط في جنبه، لا لشيء إلا لأنه يخشى أن يُقدَّم للمحاكمة أو يُؤخَذ بالعقاب!

قدوة سيئة كنَّا نتمنَّى أن يكون الأزهر آخِر مَن يقدِّمها إلى الناس، وكنَّا نتمنَّى أن يكره الأزهر لنفسه ولرجاله احتمال أوزارها وأوزار مَن يتأثَّر بها من غير الأزهريين، ومع ذلك فقد كان ما أراد الأزهر أن يكون، وحوكم أستاذ من أساتذة الأزهر، وعوقب لا لأنه خالف عن قانون من قوانين الأزهر، ولا لأنه خالف عن نص من نصوص القرآن، ولكن لأنه حاول أن ينصح الإسلام والمسلمين، فأخطأ طريق الصواب فيما رأى شيوخ الأزهر. ووقع كل هذا في القرن العشرين، وفي عهد يعتقد المصريون فيه أنهم قد تخفَّفوا من أثقال الماضي وأوزاره، وتحرَّروا من قيود الماضي وأغلاله، وتهيَّئوا لاستقبال حياة جديدة تُقدَّر فيها كرامة الناس أفرادًا وجماعات، وحق الناس في أن يحتملوا تبعاتهم أحرارًا كرامًا، لا يُحملون على غير ما يريدون، ولا يُؤخَذون بغير ما يريدون، ولا يُفرَض عليهم الرأي فرضًا، ولا يُعاقَبون على الخطأ الذي لا يعاقِب الله عليه.

والشر العظيم بعد هذا كله هو أن الأزهر يتلقَّى ألوفًا كثيرة من الطلاب يلتحقون به في آخِر الصبا وأول الشباب، وينفقون فيه صفوة أعمارهم ويتأثَّرون فيه بهذه التقاليد التي لا تلائم العصر الذي يعيشون فيه، ولا تلائم البيئة التي يعيشون فيها، ولا تلائم الصريح الصحيح من دين الله كما أنزله في كتابه العزيز، وكما فصَّله في لسان نبيِّه الكريم وسيرته.

وكذلك ينقسم شباب الأمة المصرية إلى فريقين: فريق يقلِّد بحكم القانون ويُحاكَم ويُعاقَب إن خالف عن هذا التقليد، وفريق آخَر يحرِّره التعليم من كل تقليد في الرأي ويعرِّفه كرامته، ويزيِّن في قلبه حبَّها والذود عنها واحتمال المكروه في سبيلها، وتشطر الأمة بذلك شطرين: شطر المحافظين الذين لا يجوز لهم أن يجتهدوا ولا أن يخطئوا.

وشطر الأحرار الذين يجوز لهم بل يُفرَض عليهم الاجتهاد، ويجوز الخطأ والصواب جميعًا.

وليس بدٌّ لمصر من أن يأتلف أبناؤها على مذهب واحد في الحياة العقلية، فإما الحرية الكريمة الخصبة، وإما المحافظة المهينة العقيمة.

إحدى اثنتين، إما أن تسلك الجامعات والمعاهد العلمية سبيل الأزهر فتعاقِب على الخطأ وتثيب على التقليد.

وإما أن يسلك الأزهر سبيل الجامعات وسبيل المسلمين الأولين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فيبيح لرجاله وأبنائه أن يكونوا كرامًا أحرارًا، لا يُحاكَمون إلا حين يعتدون على حقوق الناس، أو يتجاوزون الحدود التي أمر الله بعقاب مَن يتجاوزها.

فأمَّا أن ينقسم المصريون هذا الانقسام إلى المستمسكين بالمحافظة في أبغض صورها إلى الله والناس، والمستمسكين بالحرية التي تليق بكرام الناس، والتي يجب على الدولة أن تتيحها لهم وتحفظها عليهم وتحميها من كل عدوان، فهذا هو النكر كل النكر، وهو الشر الذي يجب على الدولة أن تتجنبه وأن تحمي الشعب من نتائجه وعواقبه.

لن يصبح الأمر مقصورًا على قصة الصوم تلك التي حوكم فيها وعوقب عليها ذلك الأستاذ، ولكنه سيتجاوز هذه القصة إلى الرأي كله في أي أمر من أمور الدين أولًا، ثم في أمور الدنيا بعد ذلك، والله لا يحب التقليد في أمور الدين ولا في أمور الدنيا؛ لأنه لم يمنح الناس عقولهم عبثًا، ولم يكلِّفهم التدبُّر والتفكُّر إلَّا وهو يعلم أنهم بطبيعتهم معرَّضون للخطأ والصواب حين يتفكَّرون ويتدبَّرون.

وقد شكت مصر في العصر الحديث من هذا الانقسام إلى الأحرار والمقلِّدين، وجنَتْ من هذا شرًّا أي شر، وهل كان شقاء الشيخ محمد عبده رحمه الله إلَّا أثرًا من آثار هذا الانقسام؟ تحرَّرَ في بيئة لم تكن تحب الحرية، فلقي من المكر به والكيد له والتألُّب عليه شيئًا عظيمًا، ومع ذلك لم يستطع الأزهر أن يحاكمه ولا أن يعاقبه، وإنما خاصمه وجادله، وآذاه بعض الأزهريين بألسنتهم وأقلامهم، فلم يضروه ولم يضروا حريته شيئًا، بل تأثَّر به كثيرون من شباب الأزهريين، ففكَّروا في أمور الدين والدنيا أحرارًا كرامًا، ونفعوا وانتفعوا بهذا التفكير الحر الكريم.

أليس غريبًا أن تقصر يد الأزهر عن محاكمة الأستاذ الإمام رحمه الله، على كثرة ما ضاق به الأزهر، وعلى كثرة ما كاد له الشيوخ، وعلى كثرة ما سخط عليه السلطان، وأن يتاح ليد الأزهر أن تطول وتطول حتى تحاكم أستاذًا على أنه قال في الصوم مقالةً لم تعجب الشيوخ بعد أن مضى على وفاة الأستاذ الإمام نصف قرن؟

كم أحب أن أعلم: أنمضي نحن إلى الأمام، أم نرجع إلى الوراء؟ أيكون أول القرن الذي نعيش فيه أسمح سماحةً وأكثر حريةً من منتصفه؟

وهذا الحكم الذي أصدره الأزهر على الأستاذ، ما قيمته وما نتيجته؟ أيظن شيوخنا الأجِلَّاء أنهم حين يمنعون ذلك الأستاذ من التعليم سيكفُّون شرَّه عن الناس إن كان شريرًا؟

إنهم قبل كل شيء لن يغيِّروا طريقته في التفكير، ولا مذهبه في قراءة النصوص وفهمها واستنباط الأحكام منها والتعرض للخطأ مرة وللصواب مرات، وهم لن يمنعوه من أن يلقى الناس، ولا من أن يتحدَّث إليهم، ولا أن يكلِّمهم في أمور الدين كما يكلِّمهم في أمور الدنيا. وعسى أن يكون الحكم عليه مغريًا للشباب بلقائه، والتحدُّث إليه والاستماع له والأخذ ببعض آرائه، وعسى أن يكون هذا الحكم مشجِّعًا له على ما كان الأزهر يريد أن يصده عنه.

أَلَمْ يكن الخير كل الخير، والمصلحة كل المصلحة، في أن يُؤخَذ هذا الأستاذ بالرفق والنصح، وأن يُؤمَر بالمعروف أمرًا يصدر عن الحب في ذات الله، والإخلاص لرجل من المسلمين؟ والشيوخ يقولون إنهم دَعَوه إلى الخير فأبى عليهم، وأرادوا أن يجادلوه فرفض الجدال.

أحقٌّ هذا؟ كلا، ليس هذا من الحق في شيء، إنهم لم يدعوه إلى الخير وإنما دعوه إلى التحقيق، ولم يأخذوه بالنصح وإنما أخذوه بالطاعة والإذعان، ولم يأمروه بالمعروف وإنما أمروه بالتقليد، وليس التقليد من المعروف في شيء.

ليُصدِّقني رجال الأزهر إن قصتهم هذه فتنة، نرجو أن يقي الله المسلمين شرها، ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا أعيد النظر في قوانين الأزهر، وحُرِّم عليه تحريمًا أن يعاقِب الناس على الخطأ في الرأي.

وَلْتُصدقني الحكومة إن عليها للدين وللناس واجبًا، وإنها تسرف على نفسها وعلى الناس إذا قصرت أو تأخَّرَتْ في أداء هذا الواجب، وهي أن تحمي الناس من المحاكمة على آرائهم في العلم والدين، ومن عقابهم على الخطأ في العلم والدين أيضًا.

من حق الأزهر ومن الحق عليه أن يقول للمخطئ في أمر من أمور الدين: أخطأت، وأن ينهى الناس عن مجاراته في الخطأ، وأن يقول للمصيب في أمر من أمور الدين: أصبت، وأن يدعوا الناس إلى مجاراته في الصواب، فأما أن يحاكِم المخطئ ويعاقبه فلا.

وأنا بعد هذا كله أدعو رجال الأزهر أن يدلونا على نصٍّ في كتاب الله، أو سنة رسوله، تبيح لهم أن يحاكِموا الناس أو يعاقبوهم على الخطأ الذي وعد الله بالعفو عنه إذا تاب المخطئون وأصلحوا، بل إذا تاب الخاطئون وأصلحوا، وما أعظم الفرق في دين الله بين المخطئين والخاطئين! وبيننا وبين شيوخنا أصلح الله بالهم! آيات كثيرة في القرآن الكريم ذكرْتُ بعضها فيما قدَّمْتُه من حديث، وأكتفي الآن بهاتين الآيتين الكريمتين: يقول الله عز وجل في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ويقول الله عز وجل في سورة الأحزاب: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

بهذا تحدَّث الله إلى عباده رءوفًا بهم عطوفًا عليهم، وبغير هذا تحدَّثَ الشيوخُ إلى زملائهم وساروا فيهم، أما أنا فلا أصدق ولن أصدق إلا حديث الله عز وجل، ومَن أصدق من الله حديثًا؟

الخطوة الثانية

كانت خطوة رائعة تلك التي خطَّتْها الحكومة حين قرَّرت توحيد القضاء، فحقَّقت حلمًا كان يداعب نفوس الناس منذ زمن بعيد، ولكن الأوهام كانت تحول بين الحكومات الماضية وبين تحقيقه. وقد قال الناس في توحيد القضاء فأكثروا وأشعروا الحكومة بأنها كانت موفَّقَة حين اتخذت هذا القرار، معبِّرَة عن إرادة الشعب وعن إرادة المثقفين منه بنوع خاص، وما أريد أن أعيد الحديث في هذا الموضوع؛ فقد يحسن ألَّا يشغلنا ما كان عمَّا ينبغي أن يكون، وما دام توحيد القضاء قد أصبح حقًّا واقعًا فَلْنَدَعِ الحكومة إلى أن تخطو خطوة ثانية ليست أقل منها خطرًا، وعسى أن تكون أبعد منها أثرًا فيما ينبغي للحكومات الرشيدة أن تفكِّر فيه وتسعى إليه، وهو توحيد الأمة وتقريب ما بين أبنائها من الآماد، لا أقول في حياتهم الاجتماعية والسياسية وحدها، بل في حياتهم العقلية؛ لأن هذه الحياة هي أساس التفكير وهي قوام العمل، وهي التي تتيح للشعب أن يفكِّر تفكيرًا متجانسًا، وأن يعمل عملًا مطردًا لا ينافي بعضه بعضًا ولا يلغي بعضه بعضًا، وهذه الخطوة الثانية هي توحيد التعليم في طور الصِّبا والشباب.

وأنا أعلم أن هذه الدعوة ستثير سخط فريق من المحافظين، وربما أقضَّتْ مضاجع أفراد منهم، ولكن المحافظين في كل بلد مستيقظ يعرف نفسه ويهيِّئ مستقبله ويجاري التطور، مقضِيٌّ عليهم أن يسخطوا دائمًا؛ لأنهم يحبون الوقوف والدنيا من حولهم تحب الحركة، وربما أحبَّ فريق منهم الرجوع إلى الوراء والدنيا من حولهم تحب المضي إلى أمام، فهم مضطرون إلى هذه الحياة التي لا تعرف رضى ولا اطمئنانًا، يؤثرون الكسل والحياة تؤثر النشاط، ويحرصون على القديم كله والحياة حريصة على التجديد، وعلى ألَّا تستبقي من القديم إلا ما يصلح للبقاء، ولا يناقض التطور ولا يؤخِّره. وهذه الخطوة الثانية ليست جديدة وليست قديمة، فقد فكَّرْنا فيها منذ زمن بعيد، وتحدَّث بها بعضنا

إلى بعض في مجالسنا الخاصة، ودعا إليها بعضنا في الصحف، شأنها في ذلك كشأن الخطوة الأولى التي خطتها الحكومة حين قرَّرت توحيد القضاء، فلن ينكرها أحد من الذين يقدرون التطور ويفهمون حياة الشعوب حق فهمها، ويريدون الرقي مخلصين له مصمِّمين عليه.

وأقول كذلك إن هذه الخطوة الثانية ليست قديمة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة؛ فقد عاش المسلمون قرونًا لا يعرفون هذا التفريق الذي نعرفه بين حياة الدين وحياة الدنيا، وإنما يجمعون بينهما لأن الله قد جمع بينهما، فأرسل رسوله إلى الناس كافةً وفرض أحكامه على الناس كافةً، وواجب عليهم جميعًا أن يكونوا مؤمنين صادقين يعرفون من حقوق الله ومن حقوق الناس ما يجب أن يعرفوا، حتى لا يفرِّطوا في جنب الله، ولا يقصروا في ذات الناس، وحتى يتحقق العدل الشامل الذي أراد الله أن يكون قوامًا لحياة الناس. ولم يعرف المسلمون في عصورهم الأولى هذه الحياة التي نعرفها نحن الآن، والتي تأخذ الصبي من حياته العاملة لتضطره شطرًا طويلًا من عمره إلى نشاط خاص لا يشاركه فيه غيره من المواطنين، يفرغ فيه منذ صباه الأول لعلوم اللغة والدين، حتى إذا تجاوز الصبا وأضاع زهرة الشباب، أصبح رجلًا من رجال الدين لا يحسن غير القول في شئون الدين، ولا يستطيع أن يتصرَّف في غيرها من الشئون، ويكون مع أمثاله الذين فرض عليهم مثل ما فرض عليه من النشاط طبقةً تمتاز من سائر الطبقات، في تفكيرها وفي سيرتها وفي استقبالها للأحداث وتأثُّرها بها وحكمها عليها.

كل هذا جديد في الإسلام لم يعرفه المسلمون إلا بعد أن تصرمت قرون من حياتهم وأخذت أمورهم تجمد، ثم تقف ثم يعلوها الصدأ. وتستطيع أن تنظر في تاريخ الإعلام من رجال الذين في القرون الإسلامية الأولى، فسترى أنهم كانوا ينشئون كما كان ينشأ غيرهم من الصبية، ويشبون كما كان يشب أترابهم من الفتيان، ويتصرفون في شئون الحياة، كما كان يتصرَّف فيها غيرهم من الناس، حتى إذا أتيح لأحدهم أن يتقن فنًّا من فنون العلوم الدينية، أخلص له عقله وقلبه ولم يمنعه ذلك من أن يعيش عيشة غيره من العلماء، يكسب قوته كما يكسبه غيره من الناس بالسعي فيما يتيح له هذا القوت من تجارة أو صناعة أو غير ذلك من أنواع النشاط، فكانوا رجال دين ورجال دنيا، لا تشغلهم دنياهم عما أحبوا من العلم، ولا يشغلهم علمهم عما يقيم حياتهم من السعي واكتساب القوت، وكانوا يفكرون كما يفكر الناس لا يمتازون بتفكير خاص، وإنما يمتازون بعقولهم وبما تثمر هذه العقول مما ينفع الناس، ويمتازون بقلوبهم

وبما تؤثر هذه القلوب في سيرتهم العملية فتجعلهم أسوة حسنة وقدوة صالحة لغيرهم في ممارسة الحياة. والنظر في تراجم أعلام الفقهاء والمحدِّثين والمتكلِّمين تقنعك بهذا كله في غير مشقة ولا عناء، ولولا أن الفقهاء مارسوا الحياة كما يمارسها الناس جميعًا لما استطاعوا أن يستنبطوا لها أحكامها التي سُجِّلت في الكتب، والتي يقرؤها شيوخنا وتلاميذهم الآن قراءة غير متقن لها ولا محقق للواقع من أمرها، وإنما هو كلام تجري به الألسنة وتدور حوله الأحاديث، فإذا حققناه لم نجد أو لم نكد نجد وراءه شيئًا. ولولا أن المتكلمين قد مارسوا الحياة كما يمارسها غيرهم من الناس لما عرفوا فلسفة الفلاسفة ولا علم العلماء، ولما استطاعوا أن يلائموا بين حاجة الدين إلى مَن يصونه ويرد عنه الشبهات، وبين هذه الحياة الصاخبة المختلطة التي كانوا يحبونها، ومن حولهم أصحاب المذاهب الطارئة والآراء الغريبة والمذاهب المختلفة في تفسير الكون وظواهره.

ولا نعرف عالِمًا من علماء المسلمين في القرون الأولى فُرِض عليه أن ينقطع للون بعينه من ألوان الدرس، حتى ضرب بينه وبين غيره من الناس بحجاب من هذه الحجب الصفاق التي ضُرِبت بين شيوخنا وبين العصر الذي نعيش فيه.

وإذن فقد آن لمصر من جهة أن تلائم بين حياتها الجديدة المتطورة، وبين أن تُنشِئ هذه الأجيال التي تفرغ لدراسة الدين من أبنائها، بحيث لا يقتطع هؤلاء الأبناء من الحياة العامة ومن الظروف التي تحيط بهم، ويكونون فريقًا لا هو بالقديم ولا هو بالجديد، لا هو بالمحافظ ولا هو بالمجدد، وإنما هو شيء مختلط يفكِّر كما كان الناس يفكِّرون منذ قرون، ويعيش في حياته المادية كما يعيش المعاصرون له، يركب السيارة والقطار والطائرة، ويصطنع البرق والتلفون، وينتفع بالمطبعة، فهو من هذه الناحية رجل من أبناء هذا العصر، فإذا تحدَّثْتَ إليه في شأن من شئون الحياة الواقعة لم يفهم عنك ولم تفهم عنه؛ لأن بينك وبينه أستارًا كِثَافًا.

هو يقلِّد القدماء في تفكيره، ويقلِّد المُحْدَثين في حياته العملية، وقد فرض على عقله أن يعيش غريبًا في وطنه وبين معاصريه، لا لشيء إلا لأنه اقتُطِع من بيئة وزُجَّ به في هذه الحياة الخاصة التي يحياها رجال الدين، فانقطعت الصلة بينه وبين حياة الأمة كلها، وأصبح قريبًا منها غريبًا عنها.

والأمر لا يقف عند هذا الحد، ولكنه يتجاوزه إلى شيء خطير جدًّا بالقياس إلى الدين نفسه، ويكفي أن تنظر إلى رجال الدين من شيوخنا وإلى رجال الدين في البلاد المسيحية فسترى الفرق بين العجز والقدرة، وبين الخمود والنشاط، وبين القصور والتصرف في

كل شئون الحياة. وفي مصر نفسها من رجال الدين المسيحيين مَن لم يمنعهم تخصُّصهم في علوم الدين من أن يتقنوا ألوانًا من العلوم المدنية العليا، في مصر رهبان تخرَّجوا من مدارس الهندسة، وفيها رهبان تخرَّجوا في مدارس الصيدلة، وفيها غيرهم تخصَّصوا في ضروب أخرى من المعرفة المدنية، وهم على ذلك قد أخلصوا أنفسهم للدين وفارقوا أوطانهم للبحث والدرس والتخصص في أشياء لا تتصل بالدين، ولكن الدين لا يحظر عليهم أن يتخصصوا فيها. وأنا أعرف راهبًا تخرَّج في أرقى مدارس الهندسة بفرنسا، وتخصَّص في علوم الدين وأخلص نفسه له، ولم يمنعه ذلك من أن يتعلَّم العربية ويبحث في تاريخ الرياضة عند العرب، ويقيم في مصر لهذا الغرض.

وقد عرف المصريون مديرًا لمصلحة الآثار كان قسيسًا، وفي مصر راهب آخَر تخصَّص في الصيدلة وله معمل صغير في الدير الذي يعيش فيه، وقد حاضر في بعض كلياتنا المدنية، ولم يمنعه ذلك من أن يفرغ للدين ويتخصَّص فيه، ويدرس مع هذا كله علم الكلام الإسلامي والفلسفة الإسلامية، ويشارك أخصب مشاركة في نشر آثار الرئيس ابن سينا.

وقد كان علماء الإسلام في العصور القديمة ينهجون هذا النهج، ويسيرون هذه السيرة لا يمنعهم تخصُّصهم في علوم الدين من أن يمارسوا الفلسفة وألوانًا من الصناعات، فما يمنع شبابنا الأزهريين أن يسلكوا سبيل القدماء من أسلافهم، وسبيل المحدَثين من رجال الديانات الأخرى؟ وأن ينفعوا بذلك أنفسهم وينفعوا الناس، ويشاركوا في الحياة مشاركة العالم بها الخبير بدقائقها؟ الجواب على ذلك يسير، وهو أن شبابنا الأزهريين لا يتعلمون كما يتعلَّم الناس، وكما ينبغي أن يتعلَّم الناس، أي إنهم في طور الصبا والشباب يقتطعون من بيئتهم اقتطاعًا، ويفرغون لفنون من النشاط لا تغني عنهم ولا عن مواطنيهم ولا عن الدين نفسه شيئًا.

ولست أدري ما الذي ينفع شبابنا الأزهريين من أن يسلكوا سبيل غيرهم من أترابهم، فيتخرَّجوا في المدارس الابتدائية العامة أولًا، وفيما شاء الله من المدارس الثانوية والكليات الجامعية بل من المدارس الفنية أيضًا، ثم يتخصَّصوا بعد ذلك فيما يشاءون أن يتخصَّصوا فيه من علوم الدين؟

ولِمَ يوجد بين علماء الدين المسيحيين قسيس طبيب، وقسيس مهندس، وقسيس أثريٌّ، ولا يوجد أمثالهم بين رجال الدين المسلمين؟

هذه مشكلة يجب أن تفكِّر فيها الدولة وأن تواجِهها في عزم وتصميم كما واجهت مشكلة القضاء، وأن تحلها في عزم وتصميم أيضًا كما حلت مشكلة القضاء، وسبيل ذلك

واحدة لا ثانية لها، وهو أن يُوحَّد التعليم العام بحيث لا يكون هناك فرق بين مَن يريد أن يفرغ للدين، ومَن يريد أن يفرغ للدنيا، وأن يكون التخصُّص بعد انقضاء الطور الأول من أطوار الشباب.

هذا حديث لا أوجهه إلى الأزهريين لأني أعلم أن الشباب من علماء الأزهر وطلابه مقتنعون به متمنُّون له داعون إليه، وإنما أوجِّهه إلى الحكومة التي خطَتْ خطواتها الأولى فوحَّدَتْ القضاء، لعلها أن تخطو خطوتها الثانية فتوحِّد التعليم.

بل يجب أن تكون الخطوة الثانية

إحدى اثنتين، إما أن يكون السادة الأزهريون قد فهموا عني حق الفهم حين طلبت إلى الحكومة أن تخطو الخطوة الثانية، وتوحِّد التعليم الابتدائي والثانوي كما وحَّدت القضاء، وإذن فهم يقولون غير الحق حين يزعمون أني طالبت بإلغاء التعليم الديني؛ لأني لم أطالب بذلك، ولم أفكِّر فيه، ولا يمكن أن أطالِب به أو أفكِّر فيه، وليس في المقال الذي يعارضه هؤلاء الشيوخ ما يدل على أني أطالِب به أو أفكِّر فيه.

وإذن فهم قد انحرفوا عمَّا يأمرهم به الدين من الصدق في القول والعمل، ومن اجتناب التكلُّف والتزيُّد والتصنُّع والتحدُّث عن الناس بما لم يقولوا، وبما لم يدعوا إليه سرًّا ولا جهرًا.

وإما أن يكون هؤلاء السادة من الشيوخ قد قرءوا فلم يستوعبوا ما قرءوا، ولم يفهموه حق فهمه، فخاصموا في إلغاء التعليم الديني مَن لم يخاصِمهم فيه، وأقاموا الدنيا وأقعدوها لوهم توهَّموه، وأشياء اخترعوها من عند أنفسهم، وإذن فهم في حاجة إلى أن يُقوَّم تعليمهم بحيث يقرءون فيستوعبون القراءة، ويفهمون فيحسنون الفهم، ولا سيما حين يكون الكلام الذي يقرءونه واضحًا لا لبس فيه ولا غموض ولا التواء. وهم يعلمون حق العلم أن الحكومة حين ألغت المحاكم الشرعية ووحَّدَتِ القضاء لم تلْغِ الشريعة الإسلامية ولم تفكِّر في إلغائها، وما كان لها أن تفكِّر في هذا الإلغاء، فإذا طالبتُ الحكومة بأن تخطو في سبيل توحيد التعليم خطوة مثل خطوتها في توحيد القضاء، فليس معنى ذلك أنني أطلب إليها إلغاء التعليم الديني، وإنما معناه أني أطلب إليها إصلاح هذا التعليم بتمكين الأجيال الناشئة من أن تتفق وتتقارب في الشعور والثقافة ومقومات الحياة العقلية، لتفهم الدين حق فهمه حين تتهيَّأ للتخصُّص فيه، ولتنهض بأعبائها الدينية عن فقه صحيح لها، وبصر دقيق بها، وإخلاص صادق في أداء واجباتها

للدين أولًا وللمسلمين بعد ذلك. فأين يكون هذا من المطالبة بإلغاء التعليم الديني كما تكلَّف الشيوخ؟ والحكومة بالطبع لم تقصد إلَّا إلى الإصلاح حين وحَّدَتِ القضاء، رأت في ذلك منفعة للناس، ودقة في تحقيق العدل، ووسيلة إلى تحقيق الوحدة بين المواطنين في الاستمتاع بهذا العدل. فإذا بيَّنَّا لها أن توحيد التعليم الابتدائي والثانوي في الوطن الواحد وسيلة إلى الإصلاح، وضرورة من ضروريات هذا الإصلاح، لم نأثم في ذات الدين، ولم نأثم في ذات الحكومة، ولم نأثم في ذات الأزهر نفسه، إلا أن تكون المطالَبَة بإصلاح الأزهر إساءة إليه وجناية عليه وإثمًا يكرهه الله ويكرهه المسلمون.

وما أعرف وما أظن مسلمًا يعرف أن للأزهر عصمة دينية أو غير دينية تجعله فوق الإصلاح، وتجعله مصونًا يعاقَب الداعون إلى إصلاحه بالشتم والتنقص، ومَن يدري، لعلهم أن يعاقبوا بالمحاكمة أيضًا أمام مجلس من هذه المجالس الأزهرية التي تستبيح لنفسها أن تحاكم الناس على الخطأ في الرأي، وتصب عليهم العقاب لأنهم رأوا ما لا يحب الشيوخ.

وقد حاول الناس إصلاح الأزهر من قبلُ، وقيل فيهم مثل ما يقال الآن في الذين يدعون إلى الإصلاح، وقد مضى وقت كانت محاولة الإصلاح للأزهر كفرًا، وكان التفكير فيه إثمًا، وكان الكيد فيه للمصلحين مظهرًا من مظاهر النصح للدين. والناس لم ينسَوا بعدُ قصة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله، ولكننا كنَّا نظن أن هذا العصر قد انقضى، وأن الناس يستطيعون الآن أن يطالِبوا بالإصلاح في الأزهر كما يطلبون بالإصلاح في الجامعات وغيرها من معاهد التعليم.

ولست أدري متى يفرِّق الأزهريون والشيوخ منهم خاصةً بين أنفسهم وبين الدين؟ بل لست أدري متى يفرِّق الأزهريون بين الأزهر الشريف نفسه وبين الدين؟ فالأزهر معهد من معاهد العلم لا أكثر ولا أقل، يجوز عليه ما يجوز على هذه المعاهد، ولا يعصمه تخصُّصه بتعليم الدين من أن يتعرَّض للخطأ ومن أن يصيبه الضعف، ومن أن يطالب الناس بإصلاحه، ليبرأ من الخطأ والضعف جميعًا بمقدار ما يتاح لأعمال الناس أن تبرأ منهما. ومن العناء حقًّا أن نضطر بعد مضي السنين الطوال إلى أن نبدئ ونعيد في الأشياء البديهية لأن قومًا لا يفهمونها أو لا يريدون أن يفهموها، وليس أدل على حاجة الأزهر إلى الإصلاح وإلى الإصلاح بتوحيد التعليم خاصة، من هذه الخصومة المضحكة المحزنة بين الشيوخ وبيني حول هذا الموضوع، فلو قد تعلَّم الشيوخ كما يتعلَّم الناس لما كتب كتَّابهم هذه الأحاديث، ولما فهموا أن المطالبة بإصلاح الأزهر دعوة آثمة إلى إلغاء التعليم

الديني، ولو قد تعلَّم الشيوخ كما يتعلَّم الناس لما قال قائلهم إنه وزملاءه قد درسوا العلوم المدنية مفصَّلَةً كما لم يدرسها أحدٌ، فدرسوا الحساب والجبر والهندسة والجغرافيا بأقسامها الطبيعية والسياسية والاقتصادية، ودرسوا علم الحيوان بفروعه كلها، وأجروا عمليات التشريح في المعامل، ودرسوا الطبيعة والكيمياء، ودرسوا علم النفس التربوي والاجتماعي والجنائي، ودرسوا الفلسفة القديمة والحديثة، والمنطق القديم والحديث، وعلومًا أخرى لا أكاد أحصيها. ولست أدري إن صح هذا كله ماذا تنتظر الحكومة؟ وما لها لا تلغي جامعاتها ومدارسها ومعاهدها على اختلافها، وتحوِّل التلاميذ والطلاب جميعًا إلى الأزهر ليدرسوا فيه هذه العلوم، وغير هذه العلوم، مفصَّلَة كما لم يدرسها أحد، وليتخصصوا مع هذه العلوم كلها في علوم الدين واللغة على اختلافها، ليكون كل واحد منهم دائرة من دوائر المعارف تغدو وتروح، وتذهب وتجيء، وتملأ الأرض كلها علمًا بعد أن مُلِئت جهلًا!

لو تعلَّم الأزهريون كما يتعلَّم الناس لما قال قائلهم مثل هذا الكلام الذي لا يقوله عالم جدير بهذه الصفة، فالعالم الصحيح يمتاز قبل كل شيء بأنه يشعر دائمًا بالقصور والتقصير، ولا يضيف إلى نفسه هذه الإحاطة الكاملة الشاملة التي لا تتاح لعالم من العلماء.

من أجل هذا كله نطالب بإصلاح الأزهر، وبتوحيد التعليم الثانوي والابتدائي في الدولة كلها، على أن يفرغ للتخصص في علوم الدين مَن يريد، وعلى ألَّا يكون التخصُّص في علوم الدين مانعًا لصاحبه من المشاركة في حياة الناس العملية والعقلية إن شاء.

والعالم الصحيح يتجنَّب الخوض فيما لا يحسن، وليس من الحق في شيء أن التخصص في علوم الدين المسيحي يسير قريب المنال كما يظن ذلك الشيخ الجليل، وإنما الحق أن علوم الدين المسيحي عميقة واسعة، متنائية الأطراف، بعيدة المنال، تكلِّف أصحابها جهودًا لا تخطر للشيخ وأمثاله على بال، ولكن نقص التعليم في الأزهر هو الذي أتاح للشيخ أن يقول مثل ما قال، ولو قد تعلَّم الشيوخ كما يتعلَّم الناس، لما توهَّموا أن المطالبة بتوحيد التعليم تعرِّض حفظ القرآن للخطر؛ ففي الأرض بلاد إسلامية ليس فيها الأزهر، وليس للأزهر عليها سلطان، ولم يُهمَل فيها مع ذلك حفظ القرآن، ولم تُهمَل فيها مع ذلك علوم الدين، ولكن الشيخ يرسل الكلام إرسالًا في غير تحفُّظ ولا احتياط، لا لشيء إلا لأنه يتعلَّم كما يتعلَّم الناس، وإنما عاش وما زال يعيش في القرون الوسطى، والناس يحيون في العصر الحديث، وهو بالطبع قد عرف من هذه العلوم التي

ذكرها وذكرها غيره من زملائه أسماءها وظاهرها من أطرافها، ولكنه لم يتعمَّق شيئًا منها ولم يدرسها مفصَّلَة، ولو قد فعل لما قال هذا الذي يقول.

والأمر بعد ذلك أيسر من كل هذا الخصام الذي لا يفيد ولا يغني عن أحد شيئًا، فإذا كان التعليم الابتدائي والثانوي في الأزهر مطابقين بالفعل للتعليم في مدارس الدولة في كل ما يتصل بالعلوم المدنية، ففيمَ تعدد الشهادات والإجازات؟ ولم لا يتقدم الأزهريون إلى امتحانات الدولة ليظفروا بشهاداتها وإجازاتها، ويشاركوا في تعليمها العالي، لا يُرَدُّون عنه ولا يحال بينهم وبينه؟

وما مصلحة الأزهر في أن ينفرد بالإشراف على ما لا يُحسِن من العلم؟ وما يمنع الأزهر من أن يخضع في هذه العلوم المدنية لإشراف الدولة ونصحها وتوجيهها، ليفتح لطلابه أبوابًا من النشاط ما زالت مغلقة دونهم؟ والدولة بعد ذلك ليست غريبة عن الأزهر؛ فالأزهر مصري، والدولة مصرية، وللدولة السيطرة على التعليم كله في أرض الوطن، وفيه التعليم الأجنبي، فمن أين يتاح للأزهر هذا الامتياز الذي يضر أبناءه ولا ينفعهم، ويضرهم في حياتهم العملية والعقلية جميعًا؟

والدولة تنفق على الأزهر وترسِل إليه المعلمين الذين يدرِّسون لأبنائه العلوم المدنية، فما يمنعها من أن تشرف على هذا التعليم لتستوثق من أنه يحقِّق المصلحة الوطنية التي تقوم عليها وترعاها وتنفق عليها أيضًا؟

أَلَا يوافق الشيوخ على أن هذا من الأوليات التي لا ينبغي أن تكون موضوعًا للخصام، فضلًا عن الجدال، وفضلًا عن الشتم وإطالة الألسنة؟

والغريب أن يظن الأزهريون أني أجهل مكانة الأزهر وخطره في الحياة المصرية خاصةً، وفي الحياة الإسلامية عامةً، ولو قد قرءوا بعض ما نُشِر لي من الكتب لعرفوا أني سبقتهم جميعًا إلى التنويه بمكانة الأزهر، وتنبيه الدولة إلى أنه مجدٌ لمصر يجب أن يُرعَى وأن تشمله العناية الكاملة من الحكومة والشعب جميعًا، ولكن الشيوخ يدرسون العلم كله مفصَّلًا ولا يقرءون ما يُكتَب عن معهدهم، ويُنشَر في أقطار الأرض، ويُترجَم إلى بعض اللغات الحية الكبرى؛ ذلك فيما أعتقد لأنهم لا يتعلمون كما يتعلم الناس.

ليصدِّقني الشيوخ ولتصدقني الحكومة قبل الشيوخ، إن توحيد العلم الابتدائي والثانوي واجبٌ وطني لا ينبغي التقصير فيه ولا التأخير في أدائه، وشباب الأزهريين شيوخًا وطلابًا يريدونه ويطالبون به ويلحون فيه، فَلْتخطُ الحكومة خطوتها الثانية، وليس عليها في ذلك بأسٌ ولا جُناحٌ.

الخطوة الثانية وإنْ غضِبَ الغاضِبُون

عفا الله عن هؤلاء الشيوخ الأجلاء من علماء الأزهر الشريف الذين يجادلون في الخطوة الثانية، فيسرفون على أنفسهم وعلى قرَّائهم في الجدال، وهم يقرءون في كُتُبهم أن الله لا يحب الإسراف، وأن خير الأمور أوساطها، وأن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى.

وهم حين يسرفون على أنفسهم وعلى الناس لا يخالفون عن أصول الأخلاق التي تُستحَب للرجل الكريم — ولا سيما حين يكون من رجال الدين — فحسب، وإنما يخالفون عن أمر الدين نفسه وهم يتلون قول الله عز وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. ذلك أن الذين يأمرهم بألَّا يقولوا على الناس غير الحق، وهم يقولون عليَّ غير الحق حين يلحون في أني أطالب بإلغاء التعليم الديني في مصر.

ومع أني قد ألححتُ في أني لا أطالب بإلغاء هذا التعليم الديني ولم أطالب به قطُّ، فهم ما يزالون يبدئون ويعيدون في هذا الكلام؛ لأنهم لا يريدون أن يحقوا حقًّا أو يبطلوا باطلًا كما يريدهم الله على أن يفعلوا لأنهم من رجال الدين، وإنما يريدون أن يشنعوا ويشهروا ويثيروا الناس ويذكوا غيرتهم على الدين وحرصهم على رعايته وحمايته، يفعلون ذلك وهم يعلمون حق العلم أنهم يخالفون عن حق ويخالفون أمر الدين، ولا يعنيهم إلا أن يشفوا صدورهم من صديق للأزهر يرونه له خصمًا.

وشيوخ الأزهر لا يقفون عند هذا الحد، ولكنهم — وشيخهم النمر خاصةً — يورِّطون أنفسهم في إثم آخَر لا يحبه الله، وقد عاب به قومًا لا أذكرهم هنا لأني لا أريد أن أسوء الشيوخ، ولكنهم يعرفونه حق معرفتهم؛ لأن الله يقول لهؤلاء القوم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

ويقول فيهم أيضًا: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾. وقد كتبت مقالين عن هذه الخطوة الثانية، لم أذكر فيهما تصريحًا ولا تلميحًا إغلاق الأزهر، ولا إلغاء التعليم الديني فيه، ولا إلغاء التعليم الديني في غيره من المدارس والمعاهد على اختلافها، فما حكم الله في أولئك الذين يقرءون كلام الناس ثم يحرِّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون!

وما حُكْم الله في شيخ منهم يريد أن يخاصمني بكتاب من كتبي، فينشر في «الجمهورية» فصلًا طويلًا عريضًا يزعم فيه أن الدكتور طه يرد على الدكتور طه، ثم يروي جملًا من كتاب «مستقبل الثقافة» يختزلها اختزالًا مما قبلها ومما بعدها، لا يريد بذلك إلا التشنيع والتشهير وإثارة الناس، وهو يعلم أن اختزال الكلام على هذا النحو تعمُّد لإفساده، وتعمُّد للوقوع في هذا الإثم الذي لا يحبه الله من المؤمنين الصادقين. وللشيخ النمر تفوُّق في الخطف، وكنت أظن أن آفة الخطف لم تصل إلى الأزهر بعدُ، وأنها آفة مقصورة على بعض الذين يتعجلون حين يكتبون في الصحف، لا يتعمدون إساءة، وإنما يعجلهم الوقت عن القراءة المستأنية والتثبت في الفهم والنقل جميعًا، فقد أثبت لنا هذا الشيخ أنه خاطف بارع يحسن اختزال الجمل، كما يحسن تحريف الكلم عن مواضعه، يريد أن يصوِّرني فانيًا في حضارة الغرب، مُؤثِرًا لها على كل شيء، طالبًا إلى الناس أن يفنوا فيها، وهو يعلم حق العلم أني قد دافعت عن الحضارة الإسلامية وعن الثقافة العربية، كما لم يدافع عنهما إلا الأقلون من غير شيوخ الأزهر، وهو يعلم أن لي في الدفاع عن الحضارة العربية والثقافة الإسلامية وعن الإسلام نفسه مواقف لم يقف مثلها هو ولا أمثاله من الأزهريين، لأني لا أخاصم المسلمين عن الإسلام، وإنما أخاصم عنه غير المسلمين في غير موطن من أوروبا، ولأني قد أُرمَى في بعض البيئات الأوروبية بالتعصب للإسلام، على حين يقوم هو وأمثاله من الشيوخ مقامات أكرهها لنفسي ويكرهها الله لَمن يحب من عباده، فأنا لا أكفِّر مسلمًا، ولا أغري به، ولا أثير عليه ولا أحاكم على الخطأ ولا أعاقب فأسيء العقاب، والشيخ يُعرَف من الذين يفعلون هذا كله ويفعلونه باسم الإسلام، والإسلام منه بريء.

والأستاذ الشيخ نمر الذي يحاجني اليوم بكتاب «مستقبل الثقافة» بين اثنتين كلتاهما شر، فإما أن يكون قد قرأ هذا الكتاب قراءة مستوعب له مستقصٍ لما فيه، وإذن فقد تعمَّد إهمال ما فيه من خير صريح لا لبس فيه ولا غموض، إلى جانب اختزاله لما نقل من هذا الكتاب على نحو مهين لَمن يتورط فيه، وإما أن يكون قد ألقى على هذا الكتاب

نظرة خاطفة، ومدَّ إليه يدًا مختلسة تلتمس ما ينفعه بعد التحريف واختزال، وتترك عن عمد ما يُلزمه الحجة ويقيم عليه البرهان ويضطره إلى الصمت؛ لأنه يبيِّن له ولغيره من الشيوخ أن الخطوة الثانية التي أدعو إليها الآن شيء قديم طالبتُ به منذ أعوام طوال قبل أن تثار الحرب العالمية الأخيرة، وطالبت به في كتاب «مستقبل الثقافة» نفسه، وفي صفحات منه طوال لم تصل إليها عين الشيخ ولا يده لأنه لم يقرأ الكتاب، وإنما خطف منه متعجلًا ما ظن أنه ينفعه فيما يعمد إليه من التشهير والتشنيع والسعي إلى السوء الذي لا يسعى إليه رجل الدين، وأنا ناشر للشيخ وأمثاله هذا الفصل الذي اختصصت به الأزهر في مستقبل الثقافة، ليقرأه في الجمهورية بعد أن تعمَّد ألَّا يقرأه في موضعه من الكتاب. والفصل يقع في صحيفة ٣٥٠ إلى صحيفة ٣٥٧:

> وفي مصر لون من ألوان التعليم العالي لا بدَّ من أن نقف عنده وقفة قصيرة؛ لتكون دورتنا حول الثقافة في مصر محيطة بها من جميع أقطارها، وهو التعليم الديني في الأزهر الشريف، وقد عرضنا للأزهر أثناء هذا الحديث غير مرة، وأطلنا الوقوف عنده أحيانًا، ولكننا نحب أن نسجِّل هنا أننا مؤمنون بأن الأزهر في تكوين الثقافة أعظم خطرًا وأبعد أثرًا في حياة مصر خاصةً، وفي حياة العالم الإسلامي عامةً، مما يظن الأزهريون أنفسهم لأسباب مختلفة، منها أن الأزهر أكثر معاهد التعليم في مصر وفي الشرق الإسلامي حظًّا من الطلاب، فيجب أن تظفر فيه هذه الكثرة الضخمة من الشباب المصريين والمسلمين بثقافة ليست أقل من الثقافة التي يظفر بها الشباب في الجامعة وفي مدارس التعليم العام، لا من جهة الكم ولكن من جهة الكيف كما يقال. ومنها أن الأزهر معهد الدراسات الدينية الإسلامية، وهو من هذه الجهة شديد الاتصال، ويجب أن يكون شديد الاتصال بطبقات الشعب على اختلافها وتباينها؛ فهو إذن من أهم المصادر للثقافة في مصر والشرق، ويجب أن تكون الثقافة التي تصدر عنه وتتغلغل في طبقات الشعب كلها، ثقافةً راقيةً ممتازةً ملائمةً لحياة الشعب وحاجاته، لا مناقضة لهذه الحاجات وتلك الحياة. ومنها أن الأزهر مظهر من مظاهر المجد المصري القديم، حمل لواء المعرفة في مصر وفي الشرق الإسلامي قرونًا متصلة، فيجب أن يكون حاضره ومستقبله ملائمين لماضيه المجيد، ويجب أن يكون عنوانًا للمجد المصري الحديث كما كان عنوانًا للمجد المصري القديم.

وسبيل ذلك أن تكون الثقافة التي تصدر عنه والمعرفة التي تُطلَب فيه ملائمتين أشد الملاءمة لحاجات الناس وآمالهم في هذا العصر الحديث.

ومنها أن الأزهر مصدر الحياة الروحية للمسلمين، وهو من هذه الجهة مطالَب بما لا تُطالَب به المعاهد الأخرى، مطالب بأن يشيع في نفوس الناس الأمن والرضى والأمل والرجاء، ويعصمهم من الخوف والسخط ومن اليأس والقنوط، وهو لن يبلغ منهم ذلك إلا إذا لاءم بين الثقافة التي تصدر عنه فتنتشر في أقطار الأرض الإسلامية، وبين نفوس المسلمين وقلوبهم كما يكوِّنها العصر الحديث، وكما يصوغها التعليم المبدئي الحديث.

وليس من الخير أن يكون الأزهر حربًا على الحياة الحديثة؛ فإن هذه الحرب لا تجدي ولا تفيد، وإنما الخير والواجب أن يكون الأزهر ملطفًا للحياة الحديثة، مخفِّفًا لأثقالها، ملائمًا بينها وبين ما يأمر الله به من الخير والمعروف، مباعِدًا بينه وبين ما ينهى الله عنه من الشر المنكر، وذلك لا يكون إلا إذا عرف رجال الدين حياة الناس كما يحبونها، وأتقنوا العِلْمَ بأسرارها ومشكلاتها، وما تجرُّ على الناس من شر وما تدفعهم إليه من إثم، وسبيل ذلك أن يتثقف الأزهر بالثقافة الحديثة كما يتثقف بها غيره من المعاهد، وأن يمتاز بعد هذا بما لا تمتاز به المعاهد الأخرى من هذه الثقافة الدينية الخالصة، بحيث إذا اتصل رجاله بطبقات الناس لم يناقضوهم، ولم يباينوهم، ولم يجدوا مشقةً في الوصول إلى قلوبهم، والانتهاء إلى نفوسهم، والتأثير في هذه النفوس وتلك القلوب.

والشر كل الشر أن يتحدَّث رجل الدين إلى الناس فلا يفهمون عنه، لأنه قديم وهم محدَثون، وأن يتحدَّث الناس إلى رجال الدين فلا يفهم عنهم، لأنهم محدَثون وهو قديم، ولا ينبغي أن يغترَّ الأزهر لأن الناس يسمعون له الآن ويفهمون عنه بعض الشيء، فكثرة المصريين لا تزال متأثرة بعقلية القرون الوسطى، ولكن طبيعة الحياة ستخرجها غدًا أو بعد غد عن هذا الطور، وستصوغ الأجيال الناشئة والأجيال المقبلة صيغة حديثة أوروبية.

فلا بدَّ من أن يجاري الأزهر هذا التطور ليكون اتصاله بالأجيال الناشئة والأجيال المقبلة أقوى وأجدى من اتصاله بالأجيال الماضية والأجيال الحاضرة، ومنها أخيرًا أن الأزهر مشرق النور الديني للبلاد الإسلامية كلها. وأخص ما

يمتاز به الإسلام أنه دين الحرية والعلم والمعرفة، وأنه دين الحرية والعلم والمعرفة كما تفهمها الأجيال على اختلافها لا كما فهمها جيل بعينه، وكما تحققها العصور على اختلافها لا كما حققها عصر بعينه.

فالإسلام دين التطور والطموح إلى المثل العليا في الحياة الروحية والمادية جميعًا، ويجب أن يكون رجاله الناشرون له، الذائدون عنه، الداعون إليه، ملائمين كل الملاءمة لطبيعته هذه السمحة التي تشجع التطور ولا تمانعه، وتؤيد الطموح ولا تأباه، وسبيل ذلك ألَّا تكون محافظة الأزهر على القديم مانعة له من الأخذ بأسباب الحديث.

كل هذه الأسباب يحقق ما قدَّمناه من أن مهمة الأزهر أخطر جدًّا مما يظن الأزهريون؛ وإذن فلا بدَّ من أن تكون سيرة الأزهر ونُظُم التعليم فيه ملائمة لهذه المهمة الخطيرة، وهذا يقتضي أولًا أن يعدل الأزهر عدولًا تامًّا عما دأب عليه من الانحياز إلى نفسه والعكوف عليها والانقطاع عن الحياة العامة. وقد يقال إن الأزهر قد أخذ يترك هذه السيرة ويتصل بالحياة العامة، ويأخذ حظوظًا حسنة من الثقافات الحديثة على اختلافها. وهذا صحيح في ظاهره، ولكنه في حقيقة الأمر غير صحيح؛ فالأزهر ما زال منحازًا إلى نفسه مستمسكًا بهذا الانحياز حريصًا عليه، وهو من أجل هذا الانحياز نفسه يريد أن يتصل بالحياة العامة على النحو الذي نراه الآن.

يريد أن تكون له نُظُمه الخاصة وإجازاته وطرقه الخاصة بالحياة والتعليم، ويريد مع ذلك أن يفرض نفسه على الحياة العامة فرضًا، وأن يفرض نفسه باسم الدين، وما هكذا يكون الاتصال الصحيح بالحياة العامة والاشتراك فيها. إن الأزهر حين يسلك طريقه التي يسلكها في هذه الأيام لا يشارك في الحياة العملية والعلمية، وإنما ينافس فيها ويريد الاستئثار بها أو ببعض فروعها دون غيره من المعاهد؛ تنشئ الدولة معاهد التعليم فينشئ الأزهر معاهد على نحو ما تنشئ الدولة، وتنشئ الدرجات الجامعية فينشئ الأزهر الدرجات الجامعية، ثم يقول للدولة هذه معاهدي تشبه معاهدك، وهذه درجاتي وإجازاتي تشبه درجاتك وإجازاتك، فينبغي إذن أن يكون الشباب الذين يخرجون من معاهدي ويظفرون بإجازاتي ودرجاتي كالشباب الذين تخرجينهم وتمنحينهم الإجازات والدرجات، ويجب أن يشغلوا من المناصب ما

يشغله هؤلاء، وأن ينهضوا من أعباء الحياة العامة بما ينهض به هؤلاء، فإن لم تفعلي فأنت ظالمة لرجال الدين، وظالمة للدين نفسه.

وينتج عن هذا النظام ثنائي غريب في التعليم أولًا، وفي إجازاته ودرجاته ثانيًا، وفي شغل مناصب الدولة إنْ تم للأزهر ما يريده ثالثًا، وهذا شيء لا يُرَى في غير مصر ولا يلائم عقلًا ولا نظامًا، إنما طبيعة الإصلاح أن يمتاز الأزهر أولًا بتعليمه الديني، وأن يمتاز بهذا التعليم الديني من الناحيتين العملية والعلمية، فيهيئ شبابه للنهوض بالأعباء الدينية التي تحتاج إليها الحياة العامة من جهة، وللتفرغ للبحث العلمي الخالص في شئون الدين من جهة أخرى، هذا النحو من الامتياز بالتعليم الديني والاستئثار بالمناصب الدينية في الحياة العامة لا غبار عليه ولا جدال فيه، ومن طبيعته أن يمتاز الأزهر بإجازاته ودرجاته الدينية التي تؤهِّل، لا نقول لشغل المناصب الدينية العامة، بل للاستباق إلى هذه المناصب كما قدَّمنا في شأن الجامعة. فأما إذا أراد الأزهر أن يشارك شبابه في غير هذه المناصب الدينية من الحياة العامة، فحقه في ذلك واضح لا جدال فيه، وثابت لا يمكن إنكاره؛ لأن شبابه مصريون عليهم من الواجبات ولهم من الحقوق مثل ما على غيرهم وما لهم من الحقوق والواجبات، ولكن ينبغي أن يسلكوا إلى هذه الأعباء طرقها الطبيعية، وأن يدخلوها من أبوابها المألوفة، أي ينبغي أن يتعلَّموا في معاهد الدولة المدنية، ويظفروا بإجازاتها ودرجاتها المدنية، ويسابقوا غيرهم من إخوانهم المدنيين إلى المناصب العامة، ذلك أحرى أن يلغي هذا النظام الثنائي الغريب، وأن يحقق الوحدة العقلية في مصر، وأن يحتفظ لسلطان الدولة بما ينبغي له من السيطرة على الشئون العامة جميعًا، وعلى مناصب الدولة بنوع خاص، هو أحرى أن يصل الأزهر والأزهريين بالحياة المصرية اليومية، ويمزج الأزهر والأزهريين بهذه الحياة مزجًا.

وللفصل بقية لا تتسع لها صحيفة سيارة، ويستطيع مَن شاء أن يقرأها في موضعها من الكتاب، وأقل ما يدل عليه هذا الذي نشرته من هذا الفصل أن شيوخ الأزهر لم يقرءوه خاصةً، ولو قد فعلوا لأراحوا الناس من هذا الإسراف الذي لا يغني عنهم ولا من الناس شيئًا.

ولي مع الشيوخ حديث آخَر كنت أريد أن أسوقه إليهم اليوم، ولكني أردت أن يعلموا علم هذه الخطوة الثانية كما ينبغي، فيقصروا عما يلجون فيه من التكلف والتزيد والكلام الكثير الذي لا خير فيه.

والشيوخ ينذرونني اليوم في «الجمهورية» بإعلان عن مجلة الأزهر، وما سيظهر فيها من أحاديث يظنون أنها تخيف وتقلق، فأحب لهم أولًا أن يعرفوا أنهم لا يُخِيفون ولا يُقلِقون، وأن لنا جوابًا على كل سؤال، وحديثًا نرد به على كل حديث. وكم أحب أن يذكر الشيوخ ذلك البيت الذي يقرءونه في كتب البلاغة:

جَاءَ شَقِيقٌ عَارِضًا رُمْحَهُ إِنَّ بَنِي عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاح

وأن يقرءوا كذلك بيتًا آخَر لا يقرؤه منهم إلا الأقلون:

وَمَنْ رَبَطَ الْجِحَاشَ فَإِنَّ فِينَا قَنًا صُلْبًا وَأَفْرَاسًا حِسَانَا

أما بعدُ، فعسى أن يكون هذا الكلام الواضح قريب المنال لا يحتاج شيوخنا إلى أن يستعينوا على فهمه بشرح أو حاشية أو تقرير، وعندي لهم من ذلك إن أحبوا ما يريدون.

تعبئة

كانت رائعة هذه التعبئة الهائلة التي احتفل لها شيوخ الأزهر الشريف، وكانت مروعة هذه القذائف التي لا يبلغها الإحصاء إلا في المشقة الشاقة والعسر العسير، وكانت كل هذه التعبئة وكل هذه القذائف المدمِّرة موجَّهةً إلى شخص واحد، والغريب أنها لم تقطع لسانه ولم تخفت صوته، ولم تمنعه من الإملاء ولم تصده عن المطالبة بالخطوة الثانية؛ لأن فيها إصلاحًا للأزهر ورفعًا لمكانة شيوخه وتمكينًا لهم من أن يحسنوا النهوض بخدمة الإسلام، والذود عنه ونشره في أقطار الشرق والغرب جميعًا.